محمد صلى الله عليه وسلم

الإنسان الكامل

تأليف

السيد محمد بن السيّد علوي

ابن السيّد عباس المالكي الحسني

خادم العلم الشريف في البلد الحرام

المكتبة العصرية

صيدا - بيروت

مُحَمَّد ﷺ

الإنسانُ الكامِل

تأليف

السيّد محمّد بن السيّد علويّ بن السيّد
عبّاس المالكي الحسني
خادمُ العِلم الشّريف في البلد الحرام

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ (٠١) ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ (٠١) ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

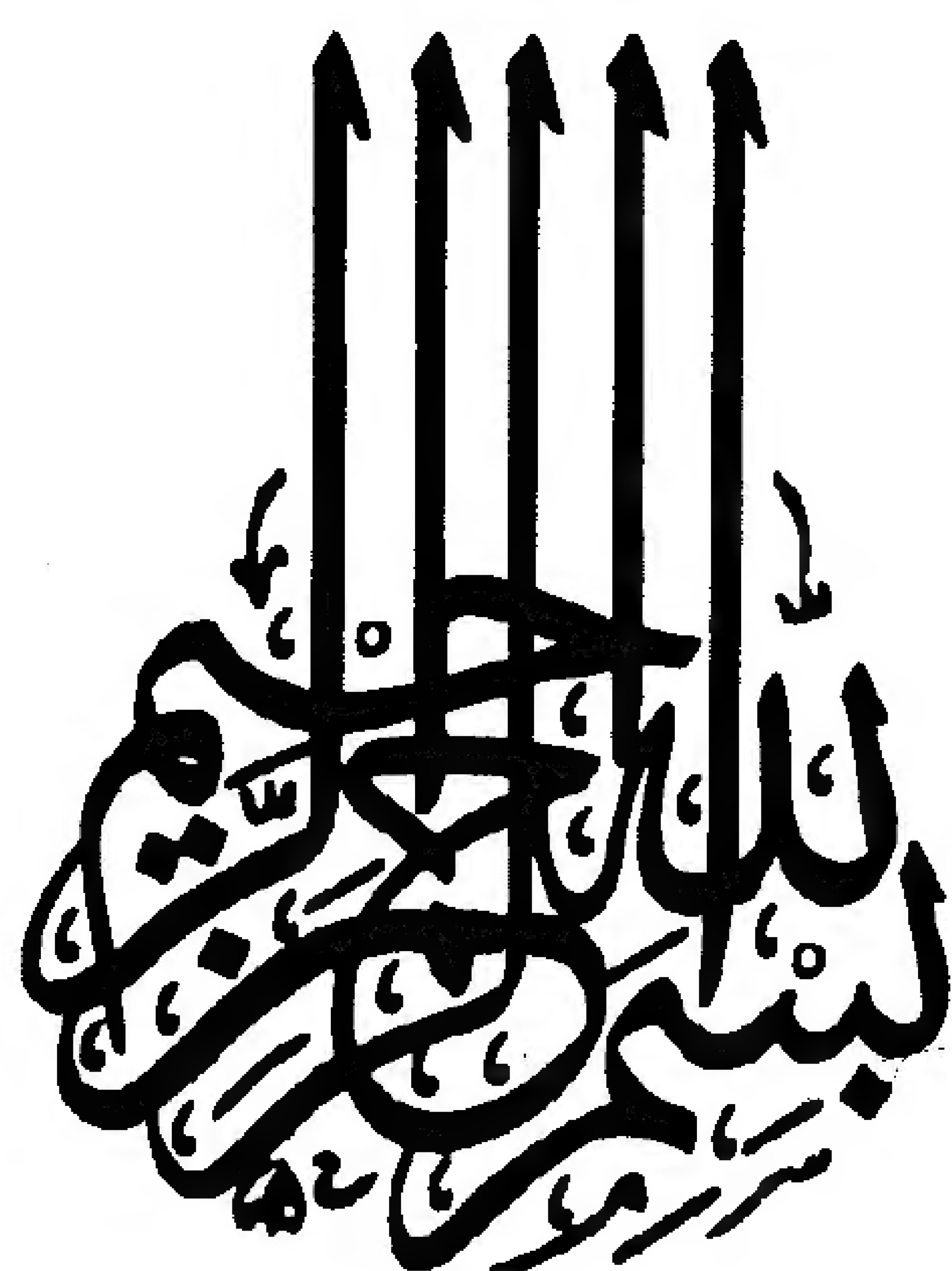
• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ (٠٧) ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٧ م - ١٤٢٨ هـ

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 9953-34-459-0


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إليك وإلا لا تُشَدُّ الركائبُ — وعنك وإلا فالمحدِّثُ كاذبُ
وفيك وإلا فالرجاءُ مخيَّبُ — ومنك وإلا لا تُنالُ الرغائبُ

الحمد للّه الذي أمرنا باتباع سنته فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وأمرنا بالصلاة عليه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فصلاة وسلام على الإنسان الكامل في أخلاقه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، الكامل في أدبه وسيرته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨] الكامل في صفاته، وفي كل النواحي، يقول الشاعر في وصفه عليه الصلاة والسلام في كماله:

خُلِقتَ مبرأً من كل عيبٍ — كأنك قد خُلِقتَ كما تشاءُ

ويقول الشيخ يوسف النبهاني رحمه اللّه تعالى في كتابه «حجة اللّه على العالمين» ما نصه:

«فإنه لا يخفى على من له أدنى اطلاع على أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، أن سيدهم وسيد جميع الخلق محمداً عليه الصلاة والسلام، هو أكثرهم معجزات ودلائل، وأظهرهم فضائل وفواصل، وأبهرهم محاسن وشمائل، وأشهرهم في الكتب السماوية علامات وبشائر، وأصدقهم شواهد وردت عن الأوائل والأواخر».

هذا، وقد طلبت مني الدار بأن أقوم بتصحيح هذا الكتاب المسمّى «محمد ﷺ الإنسان الكامل» لمؤلفه السيد محمد بن السيد علوي بن السيد عباس المالكي الحسني، وقد قمت بتصحيحه وضبط ألفاظه على قدر ما وفقني اللّه تعالى له، فإن وُجِدَ خطأ ما في الكتاب فاعذرونا فإنه ما سمي الإنسان إنساناً إلا لكثرة نسيانه.

يـا مـصـطـفـى مـن قـبـل نـشـأة آدم   والـكـون لـم يـبـرز مـن الـتـكـويـن
أيـضـيـق مـن حـصـر وصـفـك بـعـدمـا   أثـنـى عـلـى أخـلاقـك الـخـلاقـا

فصلاة اللّه وسلامه عليك ما دامت السموات والأرض، وما دامت الأنفس تخرج من الأفواه.

شفيق محمود البسط

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى الصراط المستقيم وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم.

إن العناية بالسيرة النبوية والاهتمام بها قد تناوله الكتاب من نواحيه المختلفة لا في اللغة العربية والفارسية فقط بل وفي كثير من اللغات الغربية، ومن بينها الإنكليزية التي هي أكثر لغات الغرب اهتماماً بالجناب النبوي، فإنها غنية بكتب تبحث عن السيرة، لأن كثيراً من مؤلفي الغرب بذلوا غاية جهودهم فألفوا كتباً في سيرة النبي الأمين وأقاموا حججاً بالغة على عظمة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام واعترفوا بما للنبي الكريم من الفضل في تحرير المجتمع من مظاهر العبودية والتقليد ومن ربقة الذل والهوان. وقال بعضهم: إن دعوته عليه الصلاة والسلام رفعت الأمة من حضيض الشقاء إلى أوج السعادة في سنين معدودة وإن كانت دارساتهم وكتبهم لا تخلو من دس وسم، ولذا فإنه لا ينبغي خلع الثقة المطلقة عليها.

ومهما كتب الكتّاب وملؤوا بطون الأسفار والمجلدات بفضائله فهم عاجزون ومقصرون في حصر جميع ما لحضرته ﷺ من الأوصاف الحميدة والخصال الطيبة الطاهرة، فهو ﷺ قد بلغ أوج الكمال الإنساني حيث اصطفاه ربه لتبليغ رسالته الإلّهية فكان لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وقد أثنى عليه ربه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] وقال عزَّ من قائل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وأمثال هذا كثيرة في أعظم كتاب وأفضل خطاب فخارج عن الطوق البشري إحصاء كمالاته بتمامها.

كملت محاسنه فلو أهدى السنا ... للبدر عند تمامه لم يخسف
وعلى تفنن واصفيه بوصفه ... يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وكلما تقدم الإنسان في الحضارة وخطا خطوة في حلبة الرقي وصعد درجة في سلم الارتقاء أدرك بقدر اتساع آفاقه الفكرية ما لمحمد ﷺ من الأيادي البيضاء على الإنسانية جمعاء.

وقد مضى على انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى أربعة عشر قرناً ولا تزال عظمته ملء القلوب والأسماع وذكراه نشيد الحياة الظامئة إلى منبع هذا الإلهام الكريم وإلى فيض هذه البطولة الفذة والعظمة الكاملة.

وإذا ذكر المسلمون هذا النبي الأمي تقديساً للرسالة التي حملها وبلغها عن الله تعالى ونشرها في الخافقين وإيماناً بسمو ما جاء به من عقيدة تشريع فإن الإنسانية كلها لتذكر أنه رسولها الفذ الكريم البر الرحيم والعلم المفرد الوحيد مجاهداً في تاريخها الحافل المديد.

إن عظمته عليه الصلاة والسلام ليست مستمدة من عصبية أو جاه أو مال ولا من عظمة الأمة التي ظهر فيها، ولا من سمو حسبه وشرفه بل من جلال شخصيته وكمال خلقه وسعة أفقه، وأنه المثل الأعلى للإنسان الكامل، وأنه عاش مجاهداً ومات مجاهداً في سبيل الله، وأنه الرسول المبعوث الذي اختارته العناية الإلٓهية من بين الخلق ليبلغ رسالة الله إلى العالم على فترة من الرسل ضل فيها الناس وجهلوا هداية السماء التي بشر بها الأنبياء والمرسلون وترجع إلى أنه جاء بآخر الرسالات لتكون بين البشرية عامة وعقيدة الناس قاطبة وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

فقد دعت إلى التوحيد المطلق وقررت مبادئ العدالة والحرية والمساواة والإخاء بين الناس كافة، وكانت دين البشرية بسمو روحها وجلال نزعاتها ونبيل أهدافها، ورفعها من كرامة الإنسان ودعوتها إلى الحب والرحمة والتعاون وإيقاظ الضمير والشعور بالمسؤولية وتقدير العهود والحرمات ونشر العلم والعمران والمدنية، وحرب الوثنية والشرك والضلال والعناد والرذائل والمنكرات والأهواء الضالة والأوهام الضارة والشهوات الجامحة والخرافات الكاذبة والتقاليد البالية، وجمع الناس تحت لواء واحد من هدى الله وفي ظل رسالة كاملة هي شريعة الله، ثم لم يمض إلى جوار ربه إلا وقد جمع العرب عليها ودعا الملوك والأمراء إليها، فأرسل الرسل مبشرين ومنذرين إلى كسرى وملك البحرين والحبشة وحاكم مصر وهرقل قائد دولة الروم العظمى.

وحمل خلفاؤه من بعده عبء هداية الأمم وتحرير الإنسانية فوصلت هذه الرسالة إلى أطراف الدنيا وقامت عليها حضارة مشرقة ولم تزل عقيدة كثير من الأمم والشعوب ولن تزال حية بما فيها من أخلاق وأحكام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولقد كنت أقرأ في سورة المائدة فاستوقفني قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] ووقفت عند هذه الآية وقفة تأمل وتبصر واعتبار وأخذت أكررها وأرتلها متذوقاً حلاوتها مستشعراً بلاغتها متأثراً وجميع جوارحي بها وخلصت إلى:

١ ـ أن اللّه تعالى لما أراد أن يكون هذا الدين خاتم الأديان فلا دين بعده ينسخه أو يبدله أو يصلحه، بدليل قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] جمع فيه من الأحكام والآداب والتعاليم ما يضمن له أن يكون خالداً باقياً، وصالحاً لكل زمان ومكان، وكفيلاً بإسعاد الإنسانية كلها وتخليص البشرية من أدرانها وإقامة العدالة والحق بين الناس أجمعين. فكان بذلك الدين القيم التام المحفوظ الخالد، القيم الذي قال فيه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

التام: الذي قال فيه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

المحفوظ: الذي قال فيه تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢].

الخالد: الذي قال فيه سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والتمام والحفظ والخلود هي أولى سمات الكمال فهو بهذه الصفات الدين الكامل.

٢ ـ وإذا كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة التامة القيمة المحفوظة الخالدة الكاملة من كل نواحيها، فلا بد وأن يكون حاملها والداعي إليها الذي بعثه اللّه بها على ذلك المستوى بل وأرفع، وفي نفس تلك الرتبة بل وأعلى، وفي تلك المنزلة والدرجة بل وأجلّ، لأنه هو المتحمل القائم بأعباء هذه الرسالة، ومعلوم أن الحمل الكبير لا يحمله ـ إلا من هو أكبر منه.

٣ ـ ومن هذه الزاوية اللطيفة والحيثية الشريفة تصورت أن النبي محمداً ﷺ الذي جاء بهذا الدين الكامل لا شك أنه هو إنسان كامل، كامل في كل شيء، كامل في خلقه وصورته، فلم يرَ الرائي قبله ولا بعده مثله.

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسم

كامل في خلقه وسجاياه، إذ يقول فيه ربه سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، كامل في أدبه وسيرته إذ يقول عنه مولاه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨] فهو الإنسان

الكامل في كل شيء من الصفات الحسية والمعنوية، المنزه عن كل عيب أو نقص.

خُلِقْتَ مبرّأً من كل عيبٍ كأنّك قد خُلِقْتَ كما تشاء

٤ ـ وأحببت أن أشارك في الكتابة عن هذه الحقيقة التي من أنكرها فقد أتى منكراً وزوراً.

وإن أنكر الأعمى على الشمس ضوءها فما ضرَّها شيئاً ولكن أتى نكراً

فكتبت عن كمال هذا الإنسان ﷺ.

وبعد: فهذا كتاب شاركت فيه بالكلام عن بعض حقائق الجناب المحمدي سائلاً المولى جل وعلا أن يلهمنا الصواب وأن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

محمد علوي المالكي المكي الحسني

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾

[الشرح: ١ـ٤]



كمال مواهبه العَلِيَّة وصفاتِه السَّنِيَّة

كمال طهارة نسبه الشريف

قال ابن عباس: قال رسول اللّه ﷺ: «ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح الإسلام».

وروى هشام بن محمد الكلبي عن أبيه قال: كتبت للنبي ﷺ خمسمائة أمر فما وجدت فيهن سفاحاً ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية.

وعن علي كرم اللّه وجهه أن النبي ﷺ قال: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح أهل الجاهلية شيء».

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لم يلتق أبوايَ قط على سفاح لم يزل اللّه ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما».

وعن أنس رضي اللّه عنه قال: قرأ رسول اللّه ﷺ: «لقد جاءكم رسول من أنفَسكم» بفتح الفاء، وقال: «أنا أنفَسكم نسباً وصهراً وحسباً ليس في آبائي من لدن آدم سفاح».

وعن عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها عن النبي ﷺ عن جبريل عليه السلام قال: «قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أرَ رجلاً أفضل من محمد ﷺ، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم»[(١)].

وفي «صحيح البخاري» عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «بعثت في خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت منه».

وفي «صحيح مسلم» عن واثلة بن الأسقع رضي اللّه عنه قال: قال ﷺ: «إن اللّه اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم». وعن العباس رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن اللّه خلق الخلق فجعلني في خير فرقتهم وخير الفريقين

(١) رواه البيهقي والطبراني في الأوسط وابن عساكر.

ثم تخير القبائل فجعلني في خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» أي خيرهم روحاً وذاتاً وخيرهم أصلاً.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله اختار خلقه فاختار منهم بني آدم ثم اختار بني آدم فاختار منهم العرب ثم اختارني من العرب فلم أزل خياراً من خيارٍ. ألا مَن أحب العرب فبحبي أحبهم ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

واعلم: أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه وقصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله تعالى للنبوة غاية ولتمام الشرف نهاية، وأنت إذا اختبرت حال نسبه وعلمت طهارة مولده تيقنت أنه سلالة آباء كرام فهو ﷺ النبي العربي الأبطحي الحرمي الهاشمي القرشي نخبة بني هاشم المختار ـ المنتخب من خير بطون العرب وأعرقها في النسب وأشرفها في الحسب وأنضرها عوداً وأطولها عموداً وأطيبها أرومةً وأعزها جرثومةً وأفصحها لساناً وأوضحها بياناً وأرجحها ميزاناً وأصحها إيماناً وأعزها نفراً وأكرمها معشراً من قبل أبيه وأمه ومن أكرم بلاد الله على الله.

وما أحسن قول الحافظ المحدث شمس الدين بن ناصر الدين الدمشقي:

حفظ الإلّه كرامة لمحمدٍ آباءه الأمجاد صوناً لاسمه
تركوا السفاح فلم يصبهم عاره من آدم وإلى أبيه وأمه

كمال خلقته
وجمال صورته ﷺ

قال الإمام البوصيري رحمه اللّه تعالى:

فهو الذي تم معناه وصورته ثم اصطفاه حبيباً بارئ النسم
منزه عن شريك في محاسنه فجوهرُ الحسن فيه غير منقسم

قال القرطبي:

لم يظهر لنا تمام حسنه لأنه لو ظهر لنا تمام حسنه لما أطاقت أعيننا رؤيته ﷺ.

وقد استفاضت الأحاديث النبوية والآثار المروية التي تدل على كمال خلقته ﷺ وجمال صورته ولذلك كان من تمام الإيمان به ﷺ، الإيمان بأن اللّه سبحانه وتعالى قد جعل بدنه الشريف على وجه لم يظهر قبله ولا بعده خلق آدمي مثله.

وجهه الشريف

كان ﷺ أحسن الناس وجهاً[(١)] كأن الشمس تجري في وجهه[(٢)].

يقول عليّ رضي اللّه عنه: «لم يكن بالمطهم ولا المكلثم وكان في وجهه تدوير»[(٣)]. والمطهم الكثير السمن والمكلثم المدوَّر الوجه أي لم يكن شديد تدوير الوجه بل في وجهه تدوير قليل.

تقول عائشة: كان رسول اللّه ﷺ إذا سرَّ تبرق أسارير وجهه كأنه قطعة قمر[(٤)].

وقال أبو بكر الصديق وكعب بن مالك: كان وجه رسول اللّه ﷺ كأنه دارة قمر.

(١) رواه الشيخان عن البراء.
(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه أصحاب الشمائل.

وقيل لأبي الطفيل صف لنا رسول اللّه ﷺ فقال: كان أبيض مليح الوجه إذا سر فكأن وجهه مرآة وكأن البدر يرى في وجهه[١].

وقال جابر: مثل الشمس والقمر وكان مستديراً[٢].

وقد اجتمعت كلمة الصحابة الذين وصفوا رسول اللّه ﷺ على أنه كان منير الوجه مشرق المحيا يتلألأ بالنور الباهر والضياء الزاهر والبهاء الظاهر.

وجاء في حديث الحسن بن علي عن خاله هالة بن أبي هالة قال: كان رسول اللّه ﷺ فخماً مفخماً يتلألأ وجهه ﷺ تلألؤ القمر ليلة البدر[٣]. ونظر إليه جابر بن سمرة في ليلة مقمرة، قال: فجعلت أنظر إليه وإلى القمر فلهو عندي أحسن من القمر[٤].

وقيل للربيع بنت معوذ: صفي لنا رسول اللّه ﷺ، فقالت: يا بني لو رأيته لرأيت الشمس طالعة[٥].

ووصفته أم معبد فقالت:

رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة حسن الخلق مليح الوجه قسيماً وسيماً[٦].

وقالت امرأة من همدان: حججت مع رسول اللّه ﷺ، فقيل لها: شبّهيهِ لنا: فقالت كالقمر ليلة البدر لم أر قبله ولا بعده مثله[٧].

الخد

أما خده الشريف فقد كان ﷺ أسيل الخدين، والخد الأسيل هو ما فيه استطالة غير مرتفع الوجنة.

العين

أما بصره الشريف فقد وصفه اللّه تعالى بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وثبت في «الصحيح» أن رسول اللّه ﷺ كان يرى بالليل في الظلمة كما يرى بالنهار في الضوء وكان يرى من خلف كما يرى من أمام.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه الترمذي وهو صحيح.
(٥) رواه الترمذي والبيهقي.
(٦) رواه البيهقي والحاكم وصححه وهو من الشهرة بمكان.
(٧) رواه الترمذي في الشمائل.

وفي حديث ابن أبي هالة[١] وإذا التفت التفت جميعاً ـ خافض الطرف ـ نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء ـ جل نظره الملاحظة[١]، والملاحظة من اللحظ وهو النظر بشق العين الذي يلي الصدغ.

ويقول سيدنا علي رضي اللّه عنه: كان ﷺ عظيم العينين أهدب الأشفار مشرب العين بحمرة[٢].

والأهدب الكثير الهدب وهو شعر أشفار العين.

وفي رواية أدعج العينين[٣] وفي رواية أشكل العينين[٤] والشكلة الحمرة تكون في بياض العين وهو محمود محبوب، وأما الشهلة فإنها حمرة في سوادها.

الرأس والجبين

وأما جبينه الكريم فقد كان ﷺ واضح الجبين وهو معنى قول علي ـ صلت الجبين ـ وفي رواية واسع الجبين وفي رواية عظيم الجبهة وكله بمعنى واحد.

وكان ﷺ عظيم الهامة[٥] وهو معنى قول علي «ضخم الرأس».

وكان ﷺ أزج الحواجب «الزج دقة الحاجبين في طول» سوابغ في غير قرن «أي أن حاجبيه طويلان تامان لكن غير مجتمعين ولا متصلين».

الأنـف

أقنى الأنف «وهو ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه أو نتوء وسط القصبة وضيق المنخرين».

الـفـم

ضليع الفم «أي عظيمه» والعرب تمدح عظيم الفم وتذم صغيره. مفلج الأسنان «أي متباعد ما بين الأسنان» أشنب «أي طيب الفم» أفلج الثنيتين «براق الثنايا».

---

(١) رواه الترمذي في الشمائل.
(٢) رواه البيهقي..
(٣) رواه الترمذي.
(٤) رواه مسلم.
(٥) كما وصفه ابن أبي هالة.

مزية الجمال النبوي

ثبت أنه ﷺ قد أعطي الحسن كله ولكن هذا الجمال النبوي متوج بأمرين عظيمين: الأول: الهيبة الجلالية، والثاني: النور الضيائي ـ ولذلك لم يفتتن به من يراه بخلاف يوسف عليه السلام فإنه مع كونه أعطي نصف الحسن إلا أنه لما رآه النسوة ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]. قال بعضهم:

وصحب زليخا لو رأين جبينه لآثرن تقطيع القلوب على الأيدي

فأما الجلال والهيبة فقال هند بن أبي هالة في وصفه: كان ﷺ فخماً مفخماً[١].

وقال علي رضي اللّه عنه: من رآه بديهة هابه[٢].

وقال غيره: كان النبي ﷺ أوقر الناس في مجلسه[٣] ودخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال له: هوِّن عليك[٤]. ويقول عمرو بن العاص عن حضرة المصطفى ﷺ: وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه[٥].

وقال ابن أبي هالة في وصفه: وكان إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير[٦].

وقد كان الصحابة رضي اللّه عنهم لا يستطيعون إمعان النظر فيه لقوة مهابته ومزيد وقاره، ومن ثم لم يصفه إلا صغارهم أو من كان في تربيته قبل النبوة كهند بن أبي هالة وسيدنا علي رضي اللّه عنه.

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الترمذي في الشمائل.
(٣) رواه أبو داود في المراسيل (نسيم الرياض ٢/ ١١٧).
(٤) رواه البخاري معلقاً عن أنس ووصله ابن ماجه «نسيم الرياض ٢/ ١٠٤».
(٥) رواه مسلم في الصحيح «٣/ ١٢٨ بالنووي».
(٦) رواه الترمذي في الشمائل وابن سعد والطبراني.

ومن عظيم مهابته وكمال وقاره أنه كان من جلس إليه ﷺ هابه وربما أخذته رعدة شديدة من الهيبة المحمدية ولذلك كان ﷺ يباسطهم ويلاطفهم ليسكن روعهم.

جاء عن قيلة بنت مخرمة أنها قالت: لما رأيت رسول اللّه ﷺ متخشعاً في الجلسة وهو قاعد القرفصاء أرعدت من الفرَق ـ أي الخوف ـ فقال رجل: يا رسول اللّه أرعدت المسكينة! قالت قيلة، فقال رسول اللّه ﷺ ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: يا مسكينة عليك السكينة.

فلما قالها أذهب اللّه ما كان دخل قلبي من الرعب.

وعن أبي مسعود البدري رضي اللّه عنه قال: إني لأضرب غلاماً لي إذ سمعت صوتاً من خلفي: اعلم أبا مسعود، قال: فجعلت لا ألتفت إليه من الغضب حتى غشيني فإذا هو رسول اللّه ﷺ. قال أبو مسعود: فلما رأيته ﷺ وقع السوط من يدي من هيبته ﷺ فقال لي: واللّهِ للّهُ أقدر عليك منك على هذا، فقلت: واللّه يا رسول اللّه لا أضرب غلاماً لي بعدها أبداً.

وأما النورانية التي توج بها كمال الجمال النبوي فقد ذكرنا في صفة وجهه الشريف جملة من الأوصاف تدل على ذلك.

وهذه النورانية أصلية فيه ﷺ وهي أول ما خلق من الأنوار في الأكوان كما جاء ذلك في الحديث المشهور على الألسنة: أول ما خلق اللّه نور نبيك يا جابر[1].

قال الزرقاني: رواه البيهقي أيضاً ببعض المخالفة ـ ولا يعارضه حديث الترمذي: «أول ما خلق اللّه القلم» إذ يمكن الجمع بينهما بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا النور المحمدي، وقيل الأولية في كل شيء بالإضافة إلى جنسه ـ أي أول ما خلق اللّه من الأنوار نوري.

ومما يثبت هذه النورانية المحمدية ما رواه علي بن الحسين عن أبيه عن جده، أن النبي ﷺ قال: «كنت نوراً بين يدي ربي».

وهذا الحديث ذكره الحافظ أبو الحسن علي بن محمد بن القطان في أحكامه، وابن القطان من نقاد الحديث المعروفين بصناعته ومن أشد العلماء عناية بالرواية والحفظ والإتقان.

---

(١) قال في المواهب اللدنية: رواه عبد الرزاق الصنعاني بسنده عن جابر ١/ ١٠.

ومما يثبت هذه النورانية قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، فقد قال كثير من العلماء: إن المراد بالنور هو محمد ﷺ، وكذا في تفسير الطبري وابن أبي حاتم والقرطبي.

وقال قتادة: يعني بالنور محمداً[١].

ومما يدل على هذه النورانية أيضاً ما ثبت بالطرق المستفيضة من أنه ﷺ لما ولد رأت أمه نوراً، وخرج معه نور أضاءت له قصور الشام[٢].

ومما يثبت هذه النورانية ما جاء في حديث الطبراني: ورأينا كأن النور يخرج من فيه. وما جاء عن ابن عباس قال: إذا تكلم رئيَ كالنور يخرج من بين ثناياه. «عزاه الزرقاني للترمذي والدارمي».

وما جاء عن ابن أبي هالة عند الترمذي في الشمائل في وصفه ﷺ؛ إذ قال: له نور يعلوه.

وما جاء عن السيدة عائشة قالت: كنت قاعدة والنبي ﷺ يخصف نعله فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً فبهت، فقال: ما لك بهت؟ قلت: جعل جبينك يعرق وجعل عرقه يتولد نوراً ولو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أولى بشعره حيث يقول:

ومبرأ من كل غبرةِ حيضة وفساد مرضعة وداء مغيل
وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت بروق العارض المتهلل

ويظن بعض الجهلة أن معنى كونه ﷺ نوراً أي أنه جسم مشع، وهذا وهم أو سوء فهم فكأنه بهذا قد جعله ﷺ مصباحاً أو سراجاً «لمبة كهربائية» وهو ﷺ أجل وأكرم وأرفع وأعظم من أن يكون كذلك. نعم لا مانع عندنا من أنه ﷺ قد يظهر منه ضوء محسوس كما يسطع من الأجسام المضيئة المشعة، ولكن هذا لا يكون دائماً وإنما يكون عند الحاجة كمعجزة من معجزاته الخارقة للعادة، وقد ثبت هذا لمن هو أقل منه ﷺ كما حصل للصحابي الجليل أسيد بن حضير.

فعن أنس رضي اللّه عنه قال: كان أسيد بن حضير وعباد بن بشر عند رسول اللّه ﷺ في ليلة ظلماء حندس فتحدثا عنده حتى إذا خرجا أضاءت لهما

(١) تفسير ابن الجوزي ٢/٣١٧.
(٢) المواهب ١/١٢.

عصا أحدهما فمشيا في ضوئها، فلما تفرق بهما الطريق أضاءت لكل واحد منهما عصاه فمشى في ضوئها ـ أخرجه البخاري.

وكما حصل للصحابي الجليل الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس الدوسي الذي كان يقال له: ذو النور، لأنه لما وفد على النبي ﷺ فدعا لقومه، قال له: ابعثني إليهم واجعل لي آية، فقال: «اللهم نوّر له» فسطع نور بين عينيه، فقال: يا رب أخاف أن يقولوا مثلة، فتحول إلى طرف سوطه فكان يضيء له في الليلة المظلمة.

كمال اعتنائه بمظهره الشريف

اعتناؤه ببدنه:

كان ﷺ يعتني بنظافة بدنه ويأمر بذلك، فقد كان يغتسل في كل أسبوع ويحافظ على غسل يديه قبل الطعام وبعده، ويحرص على استعمال السواك في كل أحواله.

وكان ﷺ يحافظ على تعهد أطراف بدنه بالنظافة وإزالة الأوساخ عنها من قص شاربه وأظفاره ونتف إبطه وحلق عانته.

وكان يأمر بالنظافة ويحث عليها ويحذر من الوساخة بقوله:

«إن اللّه طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، وكريم يحب الكرم، جواد يحب الجود»(١).

وبقوله: تنظفوا بكل ما استطعتم فإن اللّه بنى الإسلام على النظافة ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف(٢).

وأكبر دليل على نظافة بدنه الشريف طيب عرقه الشريف ورائحته التي تفوق العنبر والمسك، وطيب رائحته عموماً التي كانت تعبق في أي طريق يمر منه، ومع ذلك فإنه لا شك في أن هذا من خصائصه ﷺ.

اعتناؤه بشعره:

بتنظيفه وترجيله وسدله. قال أنس رضي اللّه عنه: كان رسول اللّه ﷺ يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته، ويكثر القناع (القناع خرقة توضع على الرأس حين استعمال الدهن لتقي العمامة منه).

اعتناؤه بعينه:

قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: إن النبي ﷺ كانت له مكحلة يكتحل منها كل ليلة، ثلاثة في هذه وثلاثة في هذه.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) قال الخفاجي في شرح الشفاء: إنه ضعيف ينجبر بطرقه فيصير حسناً ومعناه صحيح.

اعتناؤه بأسنانه:

كان ﷺ يعتني بتخليل أسنانه بعد تناول الطعام ويقول: حبذا المتخللون من أمتي، وقد قيل له: وما المتخللون يا رسول اللّه؟ فقال: المتخللون في الوضوء والمتخللون في الطعام، أما تخليل الوضوء: فالمضمضة والاستنشاق وبين الأصابع، وأما تخليل الطعام: فلأنه ليس شيء أشد على الملكين من أن يريا بين أسنان صاحبهما طعاماً وهو قائم يصلي(١).

ومن عنايته بأسنانه وطيب رائحة فمه الشريف محافظته على استعمال السواك في كل أحواله، عند الصلاة وعند الوضوء وعند النوم وبعد النوم وعند دخوله وخروجه، بل وكان يأمر بذلك ويحث عليه ويقول: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»(٢).

ويقول: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»(٣).

وفي رواية عند البزار والطبراني: لفرضت عليهم السواك عند كل صلاة كما فرضت عليهم الوضوء.

اعتناؤه بثيابه وهيئته:

بيّن لنا رسول اللّه ﷺ أن حسن السمت والزي الحسن من شمائل الأنبياء وخصالهم الأصيلة(٤).

وسيدنا محمد ﷺ هو سيد الأنبياء ولذلك فهو أنظف خلق اللّه بدناً وثوباً وبيتاً ومجلساً، وفي الحديث: ما رأيت مثل هذا الرجل لا أحسن منه وجهاً ولا أنقى ثوباً(٥).

وكان ﷺ يتجمل ويحث على التجمل ويقول: إن اللّه جميل يحب الجمال(٦).

وكان يراعي الأحوال والمناسبات، فإذا جاء الوفود كان له حال آخر في

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وورواه الإمام أحمد مختصراً كما في الترغيب.
(٢) رواه النسائي وغيره.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه الترمذي واللفظ له وعند مالك نحوه.
(٥) رواه أبو قرصافة وأخرجه الطبراني كذا في المجمع.
(٦) رواه ابن السني.

مقابلتهم ـ فيتجمل بثوبه أو بجبته أو بما هو حاضر لديه مما يناسب القادم وحاله، وإذا جاء العيد لبس حلة مخصوصة لذلك وكذلك الجمعة، وكان يأمر بذلك ويقول: أحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس[١].

ويقول: إن اللّه إذا أنعم على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده[٢].

ويقول: إن من كرامة المؤمن على اللّه نقاء ثوبه ورضاه باليسير[٣].

وكان ﷺ ينهى عن تعريض الثياب للوسخ ويأمر برفعها عن الأرض ويقول: «ارفع إزارك فإنه أنقى وأبقى».

اعتناؤه بنظافة بيته ومسجده:

كان ﷺ يعتني بنظافة بيته ويحب أن يكون نظيفاً ويحث الناس على ذلك ويقول: «نظفوا أفنيتكم».

وكان يعتني بنظافة المسجد ويهتم بذلك ويفرح بمن يقوم بهذه المهمة ولذلك فإنه لما ماتت المرأة التي كانت تقم المسجد ولم يخبروه إلا بعد دفنها تأثر وقال: «هلا آذنتموني؟» فذهب إلى قبرها وصلى عليها.

وكان هناك رجل مخصوص يتولى تبخير المسجد وهو نعيم المجمر وسمي بالمجمر نسبة إلى هذه الوظيفة ـ وليس هذا خاصاً بمسجده بل كان يحث على ذلك بوجه عام.

فقد جاء في الحديث: أمرنا رسول اللّه ﷺ ببناء المساجد في الدور وأمرنا أن ننظفها[٤].

وفي رواية: وأن نطيبها.

وأمر أن تكون المطاهر «يعني أماكن قضاء الحاجة» على أبوابها حتى لا يوسخ الناس المساجد، ونهى الرجل أن يتنخم في المسجد وأخبر أن تنظيف المسجد حتى من القذاة «وهي أصغر شيء يمكن أن يتصور من الوسخ» فيه أجر كبير.

---

(١) رواه الحاكم.

(٢) رواه الطبراني والبيهقي.

(٣) رواه الطبراني وأبو نعيم.

(٤) رواه الترمذي.

صوته الشريف:

كان صوته ﷺ حسناً وقد أخبرنا أنس عن ذلك فقال: ما بعث اللّه نبياً إلّا حسن الوجه حسن الصوت، وكان نبيكم أحسنهم وجهاً وأحسنهم صوتاً(١).

وقال البراء بن عازب: قرأ رسول اللّه ﷺ في العشاء ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] فلم أسمع صوتاً أحسن منه(٢).

وقال جبير بن مطعم: كان ﷺ حسن النغمة(٣) وكان في صوته صحل كما تقول أم معبد، والصحل بفتح الصاد والحاء كالبحة وبأن يكون حاد الصوت، وكان في صوته قوة بحيث يبلغ ما لا يبلغه صوت غيره.

ووصفه البراء فقال: خطبنا حتى أسمع العواتق في خدورهن(٤).

وقالت أم هانئ: كنا نسمع قراءة النبي ﷺ في جوف الليل عند الكعبة وأنا على عريشي(٥).

---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الشيخان.
(٣) رواه أبو الحسن الضحاك ونقله في شرح المواهب.
(٤) رواه البيهقي، والعواتق جمع عاتق أي الشابة.
(٥) رواه ابن ماجه.

كمال خلق
القلب المحمدي

إن قلب سيدنا محمد ﷺ هو خير القلوب وأوسعها وأقواها وأتقاها وأنقاها وألينها وأرقها، وهو القلب الواعي اليقظان الفياض بأنوار الإيمان والقرآن.

فخير القلوب قلبه الشريف ﷺ، جاء في مسند أحمد وغيره عن ابن مسعود رضي اللَّه عنه أنه قال: إن اللَّه تعالى نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه ﷺ يقاتلون عن دينه. فما رآه المسلمون حسناً فهو عند اللَّه حسنٌ، وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند اللَّه سيِّئٌ.

وكما أنّ قلبه الشريف ﷺ هو أزكى القلوب وأطهرها، فقد شق صدره الشريف منذ صغره واستخرج من قلبه حظ الشيطان، كما روى مسلم وغيره عن أنس رضي اللَّه عنه: أن رسول اللَّه ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأَمَهُ ثم أَعادهُ في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، يعني: ظئره، ـ أي مرضعته ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون ـ أي متغير اللون ـ قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ.

وهذا الشق للصدر الشريف قد حصل له ﷺ أول مرة وهو صغير السن عند حليمة.

وأما المرة الثانية: فقد شق صدره الشريف ﷺ وهو ابن عشر سنين، والحكمة فيه أن العشر قريب من سن التكليف، فشق قلبه ﷺ وقدس حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال.

وأما المرة الثالثة: فقد شق صدره الشريف ﷺ عند مجيء جبريل عليه السلام بالوحي إليه حين نبّئ.

والحكمة في هذا الشق ـ كما أفاده المحققون ـ هو الزيادة في إكرامه

وإمداده ﷺ وتقويته وإعداده ليتلقى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال القدسية المرضية.

وأما المرة الرابعة: فقد شق صدره الشريف ليلة الإسراء كما ورد في «الصحيحين».

والحكمة في هذا الشق ـ كما أفاده العارفون ـ هو الزيادة في إكرامه ﷺ وإعظامه والزيادة في إمداده وإعداده للتأهب للوقوف بين يدي اللّه تعالى ومناجاته ومشاهدة الأنوار والأسرار وتجليات الجمال والجلال.

وقال الحافظ القسطلاني أيضاً: ثم إن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة فلا يستحيل شيء من ذلك.

وقال أيضاً: قال السيوطي: وما وقع من بعض جهلة العصر من إنكار ذلك وحمله على الأمر المعنوي وإلزام قائله القول بقلب الحقائق فهو جهل صريح وخطأ قبيح نشأ من خذلان اللّه تعالى لهم وعكوفهم على العلوم الفلسفية وبعدهم عن دقائق السنة.

لقد أعطى اللّه تعالى رسوله ﷺ: يقظة القلب فهو في توجهٍ إلى اللّه تعالى ووعي عنه دائمين لا تعتريه غفلةٌ ولا يطرأ على قلبه ﷺ شائبةُ نومة ولذا كانت رؤياه المنامية من جملة طرق الوحي وأنواعه، كما أن نومه لا ينقض وضوءه ﷺ وقد ثبت ذلك بالأحاديث الصحيحة. ففي «صحيح البخاري» وغيره عن عائشة رضي اللّه عنها في حديث قيام النبي ﷺ بالليل: قالت عائشة: قلت: يا رسول اللّه أتنام قبل أن توتر؟ فقال: يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي. وروى البخاري عن جابر رضي اللّه عنه قال: جاءت ملائكة إلى النبي ﷺ وهو نائم، وفي رواية الترمذي: خرج علينا رسول اللّه ﷺ فقال: إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي وميكائيل عند رجلي. فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلاً، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى داراً وجعل فيها مأدبة وبعث داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها ـ أي يفهمها ـ فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة والقلب يقظان، فقالوا: فالدار الجنة والداعي محمد ﷺ، فمن أطاع محمداً ﷺ فقد أطاع اللّه ومن عصى محمداً فقد عصى اللّه، الحديث.

وفي «سنن الدارمي»: أُتي النبي ﷺ فقيل له: لتنم عينك ولتسمع أذنك وليعقل قلبك، قال: فنامت عيناي وسمعت أذناي وعقل قلبي، فقيل لي: سيدٌ بنى داراً فصنع مأدبة وأرسل داعياً فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يطعم من المأدبة وسخط عليه السيد، قال: فالله السيد، ومحمد الداعي، والدار الإسلام، والمأدبة الجنة.

حكم وفوائد من شق صدره الشريف ﷺ

الفائدة الأولى: قال العلامة ابن المنير: وشق الصدر له ﷺ وصبره عليه من جنس ما ابتلى اللّه تعالى به الذبيح وصبر عليه، بل هذا أشق وأجل لأن تلك معاريض وهذه حقيقة.

وأيضاً فقد تكرر ووقع له وهو صغير يتيم بعيد عن أهله ﷺ.

الفائدة الثانية: سئل شيخ الإسلام أبو الحسن السبكي رحمه اللّه تعالى عن العلقة السوداء التي أخرجت من قلبه ﷺ حين شق فؤاده وقول الملك: هذا حظ الشيطان منك.

فأجاب رحمه اللّه تعالى: بأن تلك العلقة خلقها اللّه تعالى في قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها فأزيلت من قلبه ﷺ فلم يبق فيه مكان لأن يلقي الشيطان فيه شيئاً.

هذا معنى الحديث. ولم يكن للشيطان فيه حظ، وأما الذي نفاه الملك فهو أمر في الجبلة البشرية فأزيل القابل الذي لم يكن يلزم من حصوله حصول القذف في القلب، قيل له: فلم خلق اللّه تعالى هذا القابل في هذه الذات الشريفة؟ وكان يمكن أن لا يخلقه اللّه تعالى فيها؟

فقال: إنه من جملة الأجزاء الإنسانية فخلق تكملة للخلق الإنساني ولا بد منه ونزعه كرامة ربانية طرأت.

وقال غيره: لو خلق اللّه تعالى نبيه ﷺ كذلك لم يكن للآدميين اطلاع على حقيقته ﷺ فأظهره اللّه تعالى على يد جبريل عليه الصلاة والسلام ليتحققوا كمال باطنه كما برز لهم مكمل الظاهر ﷺ.

الفائدة الثالثة: قال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: الحكمة في شق صدره ﷺ مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيماناً وحكمة من غير شق الزيادة في قوة اليقين لأنه أعطي برؤيته شق صدره وعدم تأثره بذلك ما أمن معه من جميع

المخاوف العادية، فلذلك كان ﷺ أشجع الناس حالاً ومقالاً ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

الفائدة الرابعة: في الحكمة في تكرره قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى بعد أن ذكر الأولى والثالثة والرابعة: ولكل من الثلاث حكمة فالأولى: كانت في زمن الطفولية لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم عند البعث: زيادة في إكرامه لتلقي ما يلقى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع عند إرادة العروج إلى السماء: ليتأهب للمناجاة.

قال الحافظ الشامي قلت: وسئلت عن حكمة المرة الثانية مع ذكره إياها في كتاب التوحيد جازماً بها: ويحتمل أن يقال لما كان التمييز في ثامن سن التكليف شق صدره ﷺ وقدس حتى لا يتلبس بشيء مما يعاب على الرجال، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: ويحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ بحصول المرة الثالثة كما هي شرعه ﷺ.

وقال ابن أبي جمرة رحمه الله تعالى: وإنما غسل قلبه وقد كان مقدساً وقابلاً لما يلقى فيه من الخير، وقد غسل أولاً وهو صغير السن وأخرجت منه العلقة إعظاماً وتأهباً لما يلقى هناك يعني في المعراج.

وقد جرت الحكمة بذلك في غير ما موضع مثل الوضوء للصلاة لمن كان متوضئاً، لأن الوضوء في حقه إنما هو إعظام وتأهب للوقوف بين يدي الله تعالى ومناجاته، ولذلك تسن الزيادة على الواحدة والثنتين إذا أسبغ بالأولى لأن الإجزاء قد حصل وبقي ما بعد الإسباغ إلى الثلاث إعظاماً وكذلك غسل الباطن هنا بالنسبة له ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] فكان الغسل له ﷺ من هذا القبيل وإشارة لأمته بالفعل بتعظيم الشعائر كما نص لهم عليه القول.

وقال البرهان النعماني رحمه الله تعالى: قد حسن لداخل الحرم الشريف الغسل، فما ظنك بداخل الحضرة المقدسة. فلما كان الحرم الشريف من عالم الملك وهو ظاهر الكائنات أنيط الغسل له بظاهر البدن في عالم المعاملات، ولما كانت الحضرة الشريفة من عالم الملكوت وهو باطن الكائنات أنيط الغسل بباطن البدن في الحقيقات.

وقد عرج به لتعرض عليه الصلاة وليصلي بملائكة السموات ومن شأن الصلاة الطهور، فقدس ظاهراً وباطناً ﷺ.

فإن قلت: إن اللّه تعالى خلقه نوراً متنقلاً من الأنبياء وفي صفاء النور ما يغني عن التطهير الحسي، ثم إن المرة الأولى لم تكن كافية في تطهير الباطن ويلزم عليه أنه بعد النبوة كان فيه شيء يحتاج إلى ذلك وهو منزه عن أدران البشرية.

قلت: الأولى لعلم اليقين، والثانية لعين اليقين، والثالثة لحق اليقين.

الفائدة الخامسة: قال السهيلي: وخص الذهب لكونه مناسباً للمعنى الذي قصد به، وإن نظرت إلى لفظ الذهب فمطابق للذهاب، وإن اللّه تعالى أراد أن يذهب عنه الرجس ويطهره تطهيراً ﷺ، وإن نظرت إلى معنى الذهب وأوصافه وجدته أنقى شيء وأصفاه.

الفائدة السادسة: قال ابن أبي جمرة إنما لم يغسل بماء الجنة لما اجتمع في زمزم من كون أصل مائها من الجنة ثم استقر في الأرض فأريد بذلك بقاء بركته ﷺ في الأرض.

وقال غيره: لما كان ماء زمزم أصل من أوتيه إسماعيل ﷺ وقد ربِّي عليه ونما عليه قلبه وجسده وصار هو صاحبه وصاحب البلدة المباركة ناسب أن يكون ولده الصادق المصدوق كذلك، ولما فيه من الإشارة إلى اختصاصه بذلك بعده فإنه قد صارت الولاية إليه في الفتح، فجعل السقاية للعباس ولولده وحجابة البيت لعثمان بن أبي شيبة وعقبه إلى يوم القيامة.

الفائدة السابعة: الحكمة في غسل صدره ﷺ بماء الثلج والبرد هي مع ما فيها من الشفاء وعدم التكدر بالأجزاء الترابية التي هي محل للأرجاس وعنصر الأكدار: الإيماء إلى أن الوقت يصفو له ولأمته ويروق لشريعته الغراء وسنته، والإشارة إلى ثلوج صدره: أي انشراحه بالنصر على أعدائه والظفر بهم والإيذان ببرودة قلبه: أي طُمأنينته على أمته بالمغفرة لهم والتجاوز عن سيئاتهم.

وقال ابن دحية: إنما غسل قلبه بالثلج لما يشعر به من ثلج اليقين إلى قلبه، وقد كان ﷺ يقول بين التكبير والقراءة: اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد. وأراد تعالى أن يغسل قلبه بماء حمل من الجنة في طست من ذهب ممتلىءٍ حكمة وإيماناً ليعرف قلبه طيب الجنة ويجد حلاوتها، فيكون في الدنيا أزهد وعلى دعوة الخلق إلى الجنة أحرص، ولأنه كان له أعداء يتقوّلون عليه، فأراد اللّه تعالى أن ينفي عنه طبع البشرية من ضيق الصدر وسوء مقالات الأعداء، فغسل قلبه ليورث ذلك صدره سعة ويفارقه الضيق.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧] فغسل قلبه

غير مرة فصار بحيث إذا ضرب أو شج رأسه أو كسرت رباعيته كما في يوم أحد يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون.

الفائدة الثامنة: اختلف في تفسير الحكمة فقيل: إنها العلم المشتمل على معرفة اللّٰه مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكف عن ضده، والحكيم من حاز ذلك.

قال الإمام النووي: هذا ما صفا لنا من أقوال كثيرة، انتهى.

وقد تطلق الحكمة على القرآن وهو مشتمل على ذلك كله وعلى النبوة كذلك، وقد تطلق على العلم فقط وعلى المعرفة فقط ونحو ذلك.

وقال الحافظ ابن حجر: أصح ما قيل فيها: أنها وضع الشيء في محله أو الفهم في كتاب اللّٰه تعالى، وعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأول فقد يتلازمان لأن الإيمان تدلّ عليه الحكمة.

فائدة مهمة: قال الحبيب الإمام العارف باللّٰه السيد علي الحبشي في قضية شق الصدر النبوي: وإخراج حظ الشيطان منه، كما جاء في الأخبار والآثار:

وما أخرج الأملاك من قلبه أذى ولكنهم زادوه طهراً على طهر

يقول محمد علوي مؤلفه: ووقع في قلبي معنى آخر، وهو أن قلب سيدنا رسول اللّٰه ﷺ مملوء بالرحمة، بل هو منبعها وأصلها كما قال اللّٰه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وهذه الرحمة شاملة كاملة، لأنها رحمة اللّٰه التي وسعت كل شيء، ولكنّ اللّٰه سبحانه وتعالى أخرج الشيطان وأعوانه وإخوانه ومن قدّر عليه الشقاء من هذه الرحمة، فلا نصيب لهم فيها ولا شيء لهم منها، ويكون المعنى حينئذٍ أنهم أخرجوا من قلبه الشريف حظ الشيطان من رحمته، فلا حظ للشيطان في هذه الرحمة، واللّٰه أعلم.

كمال العقل المحمدي

العقل الكامل هو الأصل الذي تنشأ عنه الخصال الحميدة والمواهب الرشيدة وبه تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل، وهو الذي يسلم صاحبه إلى مجامع الخير والفضل، كما ورد في حديث إسلام خالد بن الوليد حين دخل على رسول اللّه ﷺ فسلّم عليه بالنبوة، قال: فرد علي السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إلّه إلا اللّه وأنك رسول اللّه، فقال له: تعال، فأقبل، فقال رسول اللّه ﷺ: الحمد للّه الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى الخير، الحديث.

وروى الطبراني عن قرة بن هبيرة رضي اللّه عنه أنه أتى النبي ﷺ فقال: إنه كان لنا أرباب وربات نعبدهن من دون اللّه عز وجل، فدعوناهن فلم يجبن، وسألناهن فلم يعطين، فجئنا فهدانا اللّه بك فنحن نعبد اللّه، فقال رسول اللّه ﷺ: قد أفلح من رزق لبا(١).

ولقد بلغ سيدنا محمد ﷺ رسول اللّه تعالى من أرجحية العقل وكماله الغاية القصوى التي لم يبلغها أحد سواه وذلك بنعمة اللّه تعالى وفضله عليه ﷺ، وقال اللّه تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ١، ٢] أي أنت في أعلى مستوى من كمال العقل وسمو الفكر، فلقد أقسم سبحانه بقوله: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وهو المدد الإلّهي الفياض، وبالقلم الأول المستفيض وبما سطره المسطرون في المستوى الأعلى الذي سمع رسول اللّه ﷺ فيه صريف أقلامه وما تسطره الأقلام المستمدة من القلم الأول.

أقسم بهذا القسم العظيم على سعة عقل هذا الرسول الكريم وإنه ليس فيه شائبة جنون، وإنما هو صاحب العقل الأكمل والعلم الواسع الأفضل، وأنه كيف لا يكون عقله فوق كل العقول وقد أنعم اللّه عليه وأكرمه فخصه بالنبوة الجامعة والخاتمة والرسالة العامة ونزول القرآن الجامع للعلوم كلها فإن هذه

(١) قال في مجمع الزوائد: فيه راو لم يسم وبقية رجاله ثقات ثقات.

النعم لا يتحملها إلا من خصه اللّه تعالى بأكمل العقول وأرجحها، ولذا قال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢]، أي ما أنت بسبب نعمة ربك عليك بالنبوة والرسالة والقرآن الجامع لأنواع العلوم والحكمة، ما أنت بمجنون. فهو ينفي ما اختلقه أعداؤه صلى اللّه عليه وآله وسلم ويثبت له بالدليل القاطع أرجحية العقل والحكمة وذلك أن من أوحي إليه القرآن الجامع للعلوم والمعارف وأوحي إليه الحكمة العالية التي هي فوق كل حكمة، كيف يتصور أن يكون فيه شائبة خلل أو نقص؟![1].

وقال وهب بن منبه التابعي الثقة، الذي روى له الشيخان وغيرهما، قرأت في أحد وسبعين كتاباً ـ أي من الكتب السابقة فوجدت في جميعها، أن اللّه تعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى إنقضائها من العقل في جنب عقل محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم أرجح الناس عقلاً وأفضلهم رأياً «كذا في شرح المواهب»، ويتجلى كمال عقله ﷺ وسعة فكره في مواجهته ﷺ للعالم الذي انتشرت الجاهلية في جميع طبقاته حتى أنهم ضلت عقولهم، وتحويل هذه العقلية إلى عقلية لطيفة سليمة صائبة وهو أمر يحتاج إلى عقل رجيح وفكر صحيح ولا ريب أن ذلك كان بتعاليم أحكم الحاكمين وبوحي رب العالمين، ولكن التعاليم الإلَهية والإيحاءات الربانية لا بد لها من عقل كبير مشرق منير قد أعده اللّه لحملها، ويتجلى كمال عقله ﷺ في أساليب حجته على عبدة الأوثان، وأدلته على اليهود والنصارى، وإلزامهم الحجة، وإفحامهم وإلقامهم حجر الخذلان.

ويتجلى كمال عقله ﷺ في تعليم الشاب الذي جاءه يستأذنه في الزنا بقوله: أترضى أن يزني الناس بأمك أو بأختك أو ببنتك، فقال: لا، فقال له ﷺ: وكذلك الناس يكرهونه. فما كان من الشاب إلا أن قال: أشهدك أني تبت من الزنا.

ويتجلى كمال عقله ﷺ في حكمه يوم حكمته قريش في وضع الحجر الأسود، وذلك أن قريشاً لما بنت الكعبة اختصموا فيمن يضع الحجر الأسود في موضعه، فاختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالفوا وأعدوا للقتال، وبلغ بهم الحال في إرادة الشر أن ضربت جفنة عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا «لعقة الدم» فمكثت

(١) الشمائل المحمدية لشيخنا الشيخ عبد اللّه سراج الدين ص٧٤.

قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا، ثم اتفقوا على أن يحكموا أول داخل من باب المسجد فكان أول داخل رسول اللّه ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلي ثوباً، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه.

يقظته ﷺ

ويتجلى كمال عقله الشريف ﷺ في يقظته مع المتعدين له بالعداوة وأخذه بأنواع الحذر منهم ورده مكرهم عليهم، فقد أمر زيد بن ثابت أن يتعلم كتابة اليهود ولغتهم وذلك أخذاً بأسباب التحفظ من مكرهم وخديعتهم(١) ومن ثم قيل: من تعلم لغة قوم أمن من مكرهم.

وأرسل يوم بدر والأحزاب من يكشف له عن عدد العدو وعدته وهذا يدل على تمام يقظته التي يتجلى فيها كمال عقله الشريف. وأرسل يوم الأحزاب نعيم بن مسعود الأشجعي يخذّل بين صفوف الأعداء، وقال له: خذّل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة، ومن ذلك أنه كان ﷺ يلبس أمور الحرب على أعدائه ويخفيها عنهم كيلاً يتفطنوا لها ويستعدوا للدفع أو يزيدوا في الجمع وفي ذلك حقن للدماء.

وكل هذا يدل على كمال يقظته بأخذه بأسباب التحفظ والحيطة أو بأسباب تخويف وإرهاب الأعداء، وهذا من كمال عقله ﷺ.

---

(١) عزاه الحافظ في الإصابة إلى البخاري تعليقاً.

حسن مداراته

ويتجلى كمال عقله ﷺ في معاملته وحسن سياسته ومداراته للناس على مختلف طبقاتهم تأليفاً لهم واستمالتهم نحو الحق الذي جاء به، ولذلك فقد كان يداري السفهاء والحمقى ليكف من غائلتهم وشرهم، وليستميلهم ويجلب قلوبهم نحو السداد والرشاد، وكان يقبل بوجهه على شر القوم يتألفهم بذلك.

وكان يقول: «مداراة الناس صدقة»[١] والمداراة محمودة وهي غير المداهنة، لأن المداراة بذلُ الدنيا لصلاح أمر الدنيا أو الدين أو صلاح الدنيا والدين معاً، وأما المداهنة فهي بذل الدين لصلاح الدنيا.

---

(١) رواه ابن عدي والطبراني عن جابر مرفوعاً بسند ضعيف.

حسن اختياره للرسل

ويتجلى كمال عقله ﷺ في انتقائه الرسل الأذكياء العقلاء، ليبعثهم إلى الأمراء والملوك يبلغون ويدلون بالحجج المعقولة والحكم المقبولة.

يشهد لهم بذلك حسن عرضهم في مواقفهم من الملوك وقوة بيانهم وبرهانهم.

فهذا العلاء بن الحضرمي يبعثه رسول اللّه ﷺ إلى المنذر بن ساوى ومعه كتاب يدعوه إلى الإسلام فلما قدم عليه قال له: يا منذر إنك عظيم العقل فلا تصغرن في الآخرة. إن هذه المجوسية شر دين ليس فيها تكريم للعرب ولا علم عن أهل الكتاب، إنهم ينكحون ما يستحيا من نكاحه، ويأكلون من يتكرم عن أكله، ويعبدون في الدنيا ناراً تأكلهم يوم القيامة، ولست بعديم العقل ولا الرأي، فانظر هل ينبغي لمن لا يكذب في الدنيا أن لا تصدقه؟ ولمن لا يخون أن لا تأمنه؟ ولمن لا يخلف أن لا تثق به؟

فإن كان هذا هكذا، فهذا هو النبي الأمي الذي ـ واللّه ـ لا يستطيع ذو عقل أن يقول: ليت ما أمر به نهى عنه، وما نهى عنه أمر به، أو ليته زاد في عفوه أو نقص من عقابه. إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر، فقال له المنذر: قد نظرت في هذا الذي في يدي دين المجوسية فوجدته للدنيا دون الآخرة، ونظرت في دينكم فرأيته للآخرة والدنيا، فما يمنعني من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله ـ أي يدخل في الإسلام ـ وعجبت اليوم ممن يرده ـ أي لا يدخل فيه. مع أنه المعقول. وأن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر فيما أصنع أي من الذهاب إلى هذا الرسول ﷺ أو مكاتبته أو غير ذلك لا في أنه يسلم أو لا يسلم، فإن قوله وعجبت اليوم ممن يرده، اعتراف منه بأنه دين حق اهـ. كما في «شرح المواهب» وغيره.

وهذا المهاجر بن أمية المخزومي شقيق أم سلمة أم المؤمنين بعثه رسول اللّه ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال أحد ملوك حمير فلما قدم عليه المهاجر قال له: يا حارث إنك كنت أول من عرض عليه المصطفى نفسه فخطئت عنه، وأنت أعظم الملوك قدراً وإذا نظرت في غلبة الملوك فانظر في غالب الملوك، وإذا

سرك يومك فخف غدك، وقد كان قبلك ملوك ذهبت آثارها وبقيت أخبارها، عاشوا طويلاً، وأملوا بعيداً، وتزودوا قليلاً، فمنهم من أدركه الموت ومنهم من أكلته النقم، وأنا أدعوك إلى الرب الذي إن أردت الهدى لم يمنعك وإن أرادك لم يمنعه منك أحد، وأدعوك إلى النبي الأمي الذي ليس شيء أحسن مما يأمر به ولا أقبح مما ينهى عنه.

واعلم أن لك ربّاً يميت الحي ويحيي الميت، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، اهـ كما في «الروض الأنف».

قال حاطب بن أبي بلتعة: بعثني رسول اللّه ﷺ إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فجئته بكتاب رسول اللّه ﷺ فأنزلني في منزله، وأقمت عنده ليالي، ثم بعث إلي وقد جمع بطارقته فقال، إني سأكلمك بكلام أحب أن تفهمه مني قال قلت: هلم قال: أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبياً؟ قلت: بلى، هو رسول اللّه، قال: فما له حيث كان هكذا لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلدته إلى غيرها؟ قلت له: فعيسى ابن مريم أتشهد أنه رسول اللّه؟ قال: بلى هو رسول اللّه. فقلت له: فما له حيث أخذه قومه فأرادوا صلبه ألا يكون دعا عليهم بأن يهلكهم اللّه حتى رفعه اللّه إليه في سماء الدنيا! قال: أحسنت، أنت حكيم جاء من عند حكيم، هذه هدايا أبعث بها معك إلى محمد، وأرسل معك من يبلغك إلى مأمنك، قال: فأهدى لرسول اللّه ﷺ ثلاث جوار منهن أم إبراهيم ابن رسول اللّه ﷺ، وأخرى وهبها رسول اللّه ﷺ لأبي جهم بن حذيفة العدوي، وأخرى وهبها لحسان بن ثابت الأنصاري، وأرسل بثياب مع طرف من طرفهم.

كمال قوته البدنية ﷺ

جمع اللّه تعالى لسيدنا محمد ﷺ بين شجاعة القلب وقوة البدن وهذا هو الكمال في الرجولة.

فقد روى ابن سعد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وأبو نعيم والبخاري واللفظ له عن سيدنا جابر رضي اللّه عنه أنه قال: إنا كنا يوم الخندق نحفر فعرضت كدية[١] شديدة فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال: أنا نازل ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب في الكدية فعاد كثيباً أهيل، هذه الكدية فسرتها روايات أخرى بأنها صخرة، كما أن تلك الروايات الأخرى بينت أنهم لم يذهبوا للنبي ﷺ إلا بعد أن عجزوا عن إزالتها وتكسرت فيها معاولهم، وأبانت تلك الروايات أيضاً أن الضربات التي كانت منه ﷺ في تلك الصخرة ثلاثاً فقط.

والذي يبهر من قوته ﷺ أن الصخرة لم تتحمل منه أكثر من ثلاث ضربات وقد كلت سواعد أصحابه رضي اللّه عنهم من كثرة ما حاولوه فيها، هذه قوته ﷺ وهو معصوب البطن من الجوع ومضى عليه ثلاثة أيام لم يذق طعاماً، ومعروف ما يحدثه الجوع المطلق من الضعف والهزال في البدن، فما بالك بالجوع الشديد الذي كان من عدم الأكل أياماً ثلاثة، فلو كان غير جائع كانت قوته فوق هذا بكثير من غير شك، وأي قوة هذه التي تزيد كثيراً عما سمعت؟ وأخرج أبو نعيم والبيهقي من طرقٍ واللفظ للبيهقي من طريق إسحاق بن يسار، أن رسول اللّه ﷺ قال لركانة بن عبد يزيد: أسلِمْ فقال: لو أعلم أن ما تقول حقاً لفعلت، فقال له رسول اللّه ﷺ وكان ركانة من أشد الناس: أرأيتك أن صرعتك تعلم أن ذلك حق، قال: نعم، فقام رسول اللّه ﷺ فصرعه، فقال له: عد يا محمد، فعاد له رسول اللّه ﷺ فأخذه الثانية فصرعه على الأرض، فانطلق ركانة وهو يقول: هذا سحر لم أر مثل هذا

(١) كدية: صخرة.

سحراً قط، واللّه ما ملكت من نفسي شيئاً حين وضعت جنبي إلى الأرض.

وقد روي هذا الحديث من طريق ركانة نفسه وفيه صرح بأنه أسلم رضي اللّه عنه، وانظر قول ركانة: واللّه ما ملكت من نفسي شيئاً حين وضعت جنبي إلى الأرض، تعلم منه أن ركانة رضي اللّه عنه ما كان شيئاً يذكر بيده ﷺ مع أنه كان أقوى قريش بدناً وما صرعه أحد قبله عليه الصلاة والسلام.

كمال علمه ﷺ

كان رسول اللّه ﷺ واسع العلم عظيم الفهم، أفاض اللّه تعالى عليه العلوم النافعة الكثيرة والمعارف العالية الوفيرة، وقد أعلن سبحانه وتعالى بسعة علمه ﷺ، وأعلم بعظيم فضله فقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

فهو ﷺ أعلم خلق اللّه تعالى وأعرفهم باللّه تعالى كما ورد في «الصحيحين» أنه ﷺ قال: «إن أتقاكم وَأعلمكم باللّه أنا».

وفي رواية الأصيلي: «أنا أعرفكم باللّه».

ومن تدبّر في تعاليم اللّه تعالى لرسله وأنبيائه صلوات اللّه تعالى عليهم الواردة في القرآن الكريم يتضح له جلياً أن سيدنا محمداً ﷺ، قد علمه اللّه تعالى علوماً هي أكثر وأوفر وأجمع وأعم، وذلك لأنه سبحانه قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ﴾ فجيء بـ «ما» التي هي للعموم والشمول لتعم جميع العلوم التي علمها اللّه تعالى لرسله وأنبيائه ولتشمل غيرها من العلوم التي أفاضها اللّه سبحانه عليه، وجاء في «الصحيحين» واللفظ لمسلم عن أنس رضي اللّه عنه: أن الناس سألوا نبي اللّه ﷺ حتى أحفوه بالمسألة أي أكثروا عليه الأسئلة، فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال: «سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم».

وفي رواية: «إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا» وجاء في هذا الحديث أن رسول اللّه ﷺ قال: «لم أر كاليوم قط في الخير والشر، أني صورت لي الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط».

ومن سعة علمه ﷺ أن اللّه تعالى جمع له القرآن بعلومه وحقائقه، والقرآن هو بحر العلوم والمعارف. وإذا كان علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه يقول: لو تكلمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرت[١] سبعين جملاً. فما ظنك بعلوم سيدنا محمد ﷺ، ومفاهيمه القرآنية.

---

(١) لأوقرت: أي ملأت كتباً حمل سبعين جمل.

ومن سعة علومه ﷺ ما أطلعه الله عليه من كثير من المغيبات، قال تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وقد أطلعه الله تعالى على كثير من المغيبات، ومن ذلك: إطلاعه ﷺ على بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار كما دل عليه ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه. وفي «الصحيحين» عن حذيفة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ فينا مقاماً، ما ترك فيه شيئاً إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله قال حذيفة: وقد كنت أرى الشيء قد كنت نسيته فأعرفه كما يعرف الرجل الرجل إذا غاب فرآه فعرفه.

كما أخبر ﷺ عما هو كائن بعده إلى يوم القيامة، ففي «صحيح مسلم» عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة، فأعلمنا أحفظنا.

فما ترك أمراً يكون إلى يوم القيامة إلا أخبر عنه، وروى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال: والله ما أدري أنسي أصحابي أم تناسوا؟ والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة إلى أن تنقضي الدنيا يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً إلا سماه لنا باسمه واسم أبيه واسم قبيلته، كما ورد أنه ﷺ أخبر عن جميع أشراط الساعة الصغرى والوسطى والكبرى، وأخبر عن أحوال الآخرة وبرازخها، وأحوال أهل الجنة، وأحوال أهل النار وتفاصيل أمورهم كلها كما هو مبين في كتب السنة. وفي هذا دليل على سعة العلوم التي أفاضها الله تعالى عليه ﷺ، ومن ذلك: إطلاعه ﷺ على العوالم كما صح في أحاديث المعراج من أنه ﷺ عرج به إلى السموات السبع ودخلها واحدة واحدة ورأى فيها ما رأى واجتمع مع الرسل عليهم الصلاة والسلام. كما ورد أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم العرش، بدليل أنه ﷺ بيَّن سعة العرش وأنه أوسع العوالم، كما ورد أنه ﷺ تكلم عن العرش وأن له الظلال، وأن له القوائم، وأن له الكنوز، وتحدث ﷺ عن حملة العرش وعن قوة حملة العرش وعظمهم كما ورد في «المسند» أن النبي ﷺ قال: «أنا محمد النبي الأمي، ولا نبي بعدي، قالها ثلاثاً، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه، وعلمت كم خزنة النار، وحملة العرش» الحديث.

كما ورد أنه ﷺ أطلعه الله تعالى على عالم الجنة والنار ومثّلتا له في عدة

مناسبات. ففي حديث المعراج «ثم أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك الأذفر».

كما ورد أنه ﷺ أطلعه اللّه تعالى على عالم البرزخ وأحوالهم وشؤونهم، وعالم الحشر، وأحوال الناس فيه، وعالم العرض، وعالم الحوض، وأخذ الصحف والحساب والميزان والصراط، وأحوال أهل الجنة وأهل النار، وحدَّث عن جميع تلك العوالم وفصل أمورهم ﷺ.

كما ورد أنه ﷺ أطلعه اللّه تعالى على العوالم العلوية وما يجري بين الملأ الأعلى من الاختصام حول الكفارات والدرجات، وتجلت الأشياء كلها وعرفها كما في الحديث الذي رواه الترمذي وأحمد وغيرهما عنه ﷺ أنه قال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي، فنعست في صلاتي حتى استثقلت، فإذا أنا بربي عز وجل فقال لي: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري».

وفيه أن اللّه تعالى يفيض على النبي ﷺ العلوم حتى قال: «فتجلى لي كل شيء وعرفت» وفي رواية: «فعلمت ما في السموات وما في الأرض» وفي رواية الطبراني: «فعلّمني كل شيء» وفي روايةٍ له: «فما سألني عن شيء إلا علمته ثم قال لي: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: في الكفارات والدرجات» الحديث.

ومن سعة علومه ﷺ بأصناف المخلوقات وأنواع أمم الحيوانات وبأحكامها وأوضاعها وتفاصيل أمورها.

روى الطبراني بإسناد رجاله رجال الصحيح عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه قال: «لقد تركنا رسول اللّه ﷺ وما في السماء طائر يطير بجناحيه إلا ذكر لنا منه علماً، وروى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي اللّه عنه قال: «لقد تركنا رسول اللّه ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً» وزاد الطبراني في روايته أيضاً فقال النبي ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم».

فقد ذكر ﷺ للصحابة علماً كبيراً حول عالم الطير، وفي هذا دليل على أنه ﷺ كان واسع العلم في نواحي أصناف العالم كله.

وأيضاً فيه دليل على أنه ﷺ بيّن جميع المهام الكونية المتعلقة بمصالح العالم وسعادة البشر من جميع الوجوه والاعتبارات.

فإنه ﷺ الذي تناول ذكر عالم الطير كيف يتصور منه أنه يهمل بيان ناحية

إصلاحية من نواحي المصالح البشرية، ويترك ذكرها، ويتناول ذكر عالم الطير وأحكمه؟ لا بل أنه ﷺ بين جميع النواحي الإصلاحية وطرق السعادات البشرية.

هذا وإن بحار علومه ﷺ لا يحيط بها إلا اللّٰه تعالى الذي أفاضها عليه وقد جاء في «الصحيحين» وغيرهما، واللفظ للبخاري عن أنس رضي اللّٰه عنه أن النبي ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى الظهر فلما سلم قام على المنبر، فذكر الساعة وذكر أن بين يديها أموراً عظاماً ثم قال: «من أحب أن يسأل عن شيء فليسأل عنه فواللّٰه لا تسألوني عن شيء (أي عن أي شيء) كان إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا» قال أنس: فأكثر الأنصار البكاء، وأكثر رسول اللّٰه ﷺ أن يقول: «سلوني» فقال أنس: «فقام رجل فقال: أين مدخلي يا رسول اللّٰه؟ قال: النار، فقال عبد اللّٰه بن حذافة: مَنْ أبي يا رسول اللّٰه؟ قال: «أبوك حذافة» ثم أكثر أن يقول: «سلوني، سلوني» فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا باللّٰه رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ رسولاً. قال: فسكت رسول اللّٰه ﷺ حين قال عمر ذلك، ثم قال رسول اللّٰه ﷺ: «والذي نفسي بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفاً في عرض هذا الحائط وأنا أصلي، فلم أر كاليوم في الخير والشر».

فقد أذن ﷺ للصحابة أن يسألوه عن أي شيء بدا لهم، ما دام في مقامه ذلك.

كمال فصاحته وبلاغته

كان رسول اللّه ﷺ أفصح خلق اللّه تعالى لساناً، وأوضحهم بياناً، أوتي جوامع الكلم وبدائع الحكم، وقوارع الزجر، وقواطع الأمر، والقضايا المحكمة، والوصايا المبرمة، والمواعظ البالغة، والحجج الدامغة، والبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة، وقد تحدث عن نفسه في هذا الميدان فقال: أنا محمد النبي الأمي ـ قالها ثلاثاً ـ ولا نبي بعدي، أوتيت فواتح الكلم وخواتمه وجوامعه، الحديث(١).

فكيف لا يكون أفصح خلق اللّه تعالى وقد آتاه اللّه تعالى لساناً جامعاً للمعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، وقال وهو على المنبر: «يا أيها الناس إني قد أعطيت جوامع الكلم وخواتيمه واختصر لي اختصاراً»(٢) وسأله عمر رضي اللّه عن سر فصاحته بقوله: يا نبي اللّه ما لك أفصحنا ولم تخرج من بين أظهرنا؟ فقال ﷺ: كانت لغة إسماعيل قد درست فجاءني بها جبريل فحفظتها(٣).

وقد أجمع الناس على أن محمداً الأمي قد أوتي من الأسلوب السهل المعجز ما لم يؤتَ معلّمٌ ولا متعلم ممن دانت لهم العربية وملكوا زمامها فله جوامع الكلم وبدائع الحكم في لفظ ناصع وقول جزلٍ ومعان صحاح خالدة في عبارات مضيئة مشرقة لا تكلف فيها، ويقول الجاحظ يصف كلام الرسول: «ألقى اللّه على كلامه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وهو مع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلّت له القدم ولا بارت له حجة ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ولا أصدق لفظاً ولا أعدل وزناً من كلامه ﷺ، يقول علي: ما سمعت كلمة غريبة من العرب إلا وقد سمعتها من رسول اللّه ﷺ وسمعته يقول: «مات حتفَ أنفه» وما سمعتها من عربي قبله.

---

(١) رواه أحمد في المسند وغيره.

(٢) عزاه الحافظ ابن كثير لأبي يعلى.

(٣) رواه أبو نعيم في تاريخ أصبهان كذا في شرح المواهب.

كان كلامه ﷺ بيناً لا فضولَ فيه ولا تقصير يحفظه من جلس إليه، تقول عائشة: «ما كان رسول اللّه يسرد كسردكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بيّنٍ فصلٍ يحفظه من جلس إليه». وروي عنها أيضاً: أنه كان يحدث حديثاً لو عده العادّ لأحصاه، ويقول أنس: كان إذا تكلم بكلمةٍ ردها ثلاثاً.

وقال له أصحابه: ما رأينا أفصح منك، فقال: إن اللّه لم يجعلني لحّاناً، اختار لي خير الكلام كتابه القرآن[١].

وكان يمدح الفصاحة ويكره اللحن ولذلك لما سأله العباس ما الجمال؟ قال: اللسان[٢]. وفي رواية أنه سأله ما الجمال في الرجل؟ فقال: فصاحة لسانه[٣]، وقال: رحم اللّه امرءاً أصلح من لسانه[٤].

ومن كمالِ فصاحته أنه ﷺ كان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيره علمَ ذلك وتحقَّقَهُ وليس كلامه مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد ككلامه مع أقيال حضرموت وملوك اليمن، وانظر كتابه إلى همدان: إن لكم فرعها[٥] ووهاطها[٦] وعزازها[٧]، تأكلون علافها[٨] وترعون عفاءها[٩]، لنا من دفئهم[١٠] وصرامهم[١١] ما سلموا بالميثاق والأمانة[١٢]، ولهم من الصدقة الثلب[١٣] والناب[١٤]

---

(١) عزاه في الجامع الصغير إلى الديلمي في الفردوس.

(٢) قال الزرقاوي هو مرسل ورواه الحاكم.

(٣) رواه العسكري.

(٤) رواه العسكري كذا في شرح المواهب.

(٥) وهي ما ارتفع من الأرض من مرتفعات البقاع.

(٦) وهي الوهطة وما سفل وما انخفض.

(٧) وهو ما اشتد وصلب من الأرض مما لا ملك ولا حد عليه.

(٨) جمع علف وهو ما تأكله الماشية.

(٩) فسروه بما ليس لأحد فيه ملك ولا أثر من عفا الشيء إذا اندرس.

(١٠) الدفء: بكسر الدال المهملة وسكون الفاء فالهمزة وفسره هنا بالإبل والغنم سميت بذلك لأنها يتخذ من أصوافها وأوبارها أثاثاً يتدفأ به.

(١١) جمع صرمة وهي القطعة من النخل ويجوز الثمر نفسه لأنه يصرم من النخل أي يجد ويقطع فسمي بالمصدر.

(١٢) والمراد بما سلموا بتشديد اللام ما يعطونه من الزكاة المفروضة.

(١٣) معناه الجمل المسن الهرم الذي سقطت أسنانه.

(١٤) مثل الثلب معنى إلا أنه مخصوص بالنوق الإناث.

والفصيل[١] والفارض الداجن[٢] والكبش الحواري[٣]، وعليهم فيها الصالغ[٤] والفارح[٥].

وقوله ﷺ لنهد: اللهم بارك لهم في محضها ومخضها[٦] ومذقها[٧]، وابعث راعيها في الدثر[٨]، وافجر له الثمد[٩]، وبارك لهم في المال والولد.

من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إلّه إلا اللّه كان مخلصاً، لكم يا بني نهد ودائع الشرك[١٠] ووضائع الملك، لا تلطُطْ في الزكاة[١١] ولا تلحدْ في الحياة[١٢] ولا تتثاقل عن الصلاة. وكتب لهم في الوظيفة الفريضة ولكم الفارض[١٣] والفريش[١٤] وذو العنان الركوب[١٥] والفلو[١٦] الضبيس[١٧] لا يمنع سرحكم[١٨] ولا يعضد طلحكم[١٩] ولا يحبس دركم[٢٠] ما

(١) ولد الناقة الصغير.

(٢) الفارض: البقرة الهرمة المسنة.

(٣) الكبش: الذكر الكبير من الغنم.

(٤) الصالغ: بصاء مهملة ولام وغين معجمة وهو من البقر والغنم ما كمل وانتهى سنه في السنة السادسة.

(٥) القارح: من ذوات الحافر ما أكمل خمس سنين وهو في السنة الأولى.

(٦) المحض والمخض: أصله تحريك السقاء الذي فيه اللبن.

(٧) وأصل معناه الخلط والمزج ثم استعمل في اللبن المخلوط.

(٨) وهو الإبل الكثيرة ويقع على الواحد فما فوقه وقيل الدثر: الخصب وكثرة النبات.

(٩) وهو الماء القليل.

(١٠) والظاهر أن المراد عهودهم التي وقعت بينهم بعد الحروب وبعدم المؤاخذة بما قتلوا إذا تحاربوا وقتل بعضهم بعضاً وما أراقوا من الدماء هدر.

(١١) أي لا تمنعها.

(١٢) من الحد إلحاداً إذا جار وعدل عن الحق.

(١٣) يعني لا يؤخذ منكم ولا يكون على الانصباء لأنه لا تصح به الزكاة.

(١٤) الحديث العهد بالنتاج.

(١٥) الركوب: بفتح الراء هو المركوب الذلول.

(١٦) المهر: الصغير من الخيل.

(١٧) المهر العسير الركوب.

(١٨) وهي الماشية التي تسرح بالغداة للمرعى.

(١٩) الطلح: شجر عظام.

(٢٠) والمراد به هنا الأنعام ذوات الدر لا تحبس عن المرعى في مكان يجتمع فيه ليعدها من يأخذ الصدقة لما فيه من ضرر صاحبها بعدم رعيها ومنع درها.

لم تضمروا الرماق[١] وتأكلوا الرباق[٢] ومن أقرَّ فَلَه الوفاء بالعهد والذمة ومن أبى فعليه الربوة[٣].

ومن كتابه لوائل بن حجر إلى الأقيال العباهلة والأوراع المشابيب وفيه: في التيعة شاة[٤] لا مقورة الألياط[٥] ولا ضناك[٦]، وانطوا الثبجة[٧] وفي السيوب الخمس[٨] ومن زنى مم بكر فاصقعوه مائة[٩] واستوفضوه عاماً[١٠] ومن زنى مم ثيب فضرجوه بالأضاميم[١١] ولا توصيم في الدين[١٢] ولا غمة[١٣] في فرائض اللّه وكل مسكر حرام ووائل بن حجر يترفل[١٤] على الأقيال. أين هذا من كتابه لأنس في الصدقة المشهور، لما كان كلام هؤلاء على هذا الحد وبلاغتهم على هذا النمط وأكثر استعمالهم هذه الألفاظ استعملها معهم ليبين للناس ما نزل على هذا النمط وليحدث الناس بما يعلمون.

وكقوله في حديث عطية السعدي: فإن اليد العليا هي المنطية[١٥] واليد السفلى هي المنطاة[١٦]. قال: فكلمنا رسول اللّه ﷺ بلغتنا، وقوله في حديث

---

(١) تضمروا بمعنى تخفوا وتكتموا، الرماق هو النفاق والمعنى ما لم تضق قلوبكم عن الحق.

(٢) جمع ربقة وهي حبل فيه عرى يشد به البهائم، وفي الحديث خلع ربقة الإسلام من عنقه والمعنى أن هذا أمر مقرر عليكم منا ما لم تنقضوا العهد وترجعوا عن الإسلام.

(٣) الربوة: بتثليث الراء المهملة أي الزيادة، وفسرت الربوة بأن يؤخذ منه زيادة على فريضة الزكاة عقوبة له.

(٤) التيعة: الأربعون من الغنم وقيل الخمس من الإبل وقيل هي أدنى ما تجب فيه الصدقة من الغنم والإبل.

(٥) مقورة: من الإقورار وهي المسترخية الجلد من الهزال والألياط جمع ليط وهو قشر العود فاستعير للجلد من لاطه يلوطه إذا ألصقه وقيل المقورة: المقطوعة والمعني بها الناقصة.

(٦) بفتح الضاد المعجمة وكسرها وهي الكثيرة اللحم السمينة فلا تؤخذ لجودتها.

(٧) انطاء بمعنى إعطاء لغة أهل اليمن أو لبني سعد، الثبجة أي الشاة الوسطى ليست بأدنى ولا أعلى من ثبج كل شيء وسطه.

(٨) السيوب: جمع سيب وهو الركائز.

(٩) قوله مم بكر وما يأتي من قوله مم ثيب أصله كما في النهاية من بكر ومن ثيب فاصقعوه أي فاضربوه.

(١٠) أي اطردوه أو انفوه وغربوه.

(١١) أي ارجموه حتى يسيل دمه أو يقتل والأضاميم: الحجارة.

(١٢) توصيم من الوصم وهو العيب والعار أي لا كسر ولا عيب ولا عار ولا كسل في إقامة حدود اللّه فلا تحابوا.

(١٣) أي لا ستر ولا غطاء. وفي رواية ولا عمه بمهملة فميم مخففة مفتوحتين فهاء أي لا خيرة ولا تردد.

(١٤) أي يتأمل ويترأس.

(١٥) أي المعطية.

(١٦) أي المعطاة.

العامري حين سأله، فقال له النبي ﷺ: سل عنك، أي سل عما شئت وهي لغة بني عامر.

وأما كلامه المعتاد وفصاحته المعلومة وجوامع كلمه وحكمه المأثورة فقد ألَّفَ الناس فيها الدواوين، وجمعت في ألفاظها ومعانيها الكتب، ومنها ما لا يوازي فصاحة ولا يباري بلاغة.

ونذكر جملة صالحة من ذلك تبركاً بكلامه ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات» [رواه الشيخان].

«ليس للعامل من عمله إلا ما نواه، نية المؤمن خير من عمله». [رواه الطبراني].

«يا خيل اللّه اركبي» [رواه الشيخان].

«كل الصيد في جوف الفرا» [رواه الرامهرمزي] والفرا: حمار الوحش.

«الحرب خدعة» [رواه الشيخان].

«إياكم وخضراء الدمن، المرأة الحسناء في المنبت السوء» [رواه الرامهرمزي] والدمن: جمع دمنة وهي البعر.

«لا يجني جان إلا على نفسه» [رواه الإمام أحمد وابن ماجه].

«ليس الشديد من غلب الناس وإنما الشديد من غلب نفسه» [رواه ابن حبّان].

«ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [رواه الشيخان] أي ليس القوي هو الذي يصرع غيره بل هو الذي يملك نفسه.

«ليس الخبر كالمعاينة» [رواه أحمد وغيره] والمعاينة: أي المشاهدة.

«المجالس بالأمانة» [رواه العقيلي].

«البلاء موكل بالمنطق» [رواه ابن أبي شيبة وغيره].

«ترك الشر صدقة».

«أي داء أدوى من البخل» [رواه البخاري].

«لا ينتطح فيها عنزان» ـ أي لا يجري فيها خلاف ولا نزاع.

«الحياء خير كله» [متفق عليه].

«اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع» [رواه في مسند الفردوس].

«سيّد القوم خادمهم» [رواه أبو عبد الرحمن السلمي].

«فضل العلم خير من فضل العبادة» [رواه الطبراني وغيره].

«الخيل في نواصيها الخير» [متفق عليه]، وفي لفظ «معقود بنواصيها الخير».

«أسرع الخير ثواباً البر، وصلة الرحم، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم» [رواه أحمد والترمذي].

«إن من البيان لسحراً وإن من العلم جهلاً وإن من الشعر حكماً» [رواه أبو داود].

«نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ» [رواه البخاري].

«المكر والخديعة في النار» [رواه البيهقي والبزار] وهو معمول به في الترغيب.

«المستشار مؤتمن» [رواه أحمد وغيره].

«الندم توبة» [رواه الطبراني ورواه أحمد] وهو صحيح.

«الدال على الخير كفاعله» [رواه العسكري ورواه الطبراني] وهو معمول به في الترغيب.

«حبك الشيء يعمي ويصم» [رواه أحمد وأبو داود وغيره] وهو حسن.

«العارية مؤداة والمنحة مردودة والدين مقضي والزعيم غارم» [رواه أحمد والترمذي وغيره] والمنحة: هي ما يمنح الرجل صاحبه من أرض يزرعها ثم يردها أو شاة يشرب درها ثم يردها. والزعيم: أي الكفيل، وغارم: أي ضامن.

«سبقك بها عكاشة» [رواه البخاري].

«خير المال عين ساهرة لعين نائمة» ومعناه أن خير المال ما يبقى نفعه كعين الماء يجريها الإنسان فهي تجري وصاحبها نائم، وثوابه جار كعين ماء تجري ليلاً ونهاراً وصاحبها نائم.

«خير مال المرء مهرة مأمورة أو سكة مأبورة» [رواه الإمام أحمد وغيره] ومعنى مأمورة: كثيرة النتاج، وسكة مأبورة: أي طريقة مصطفة من النخل.

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» [رواه مسلم].

«زرْ غباً تزددْ حباً» [رواه البزار وغيره] وهو حديث حسن ومعناه: زر أخاك وقتاً بعد وقت.

«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم» [رواه أبو يعلى وغيره].

«إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» [رواه أحمد وسنده جيد]، وفي رواية بزيادة: «فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» [رواه البزار وغيره] والمنبت:

المنقطع والمراد به الذي يعسف الركاب ويحملها على ما لا تطيق رجاء الإسراع فينقطع ظهره فلا هو قطع الأرض التي أراد، ولا أبقى ظهره سالماً.

«إن الدين يسر ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه» [رواه البخاري].

«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على اللّه الأماني» [رواه أحمد والترمذي والحاكم وصححه] والكيس: هو العاقل، ودان نفسه: أي حاسبها.

«ما حاك في صدرك فدعه» [رواه الطبراني] والمعنى: أن ما تردد في نفسك فاتركه ولا تلتفت للوساوس.

«تنكح المرأة لجمالها ومالها ودينها وحسبها فعليك بذات الدين تربت يداك» [متفق عليه]، وتربت: لصقت بالتراب أي افتقرت إذا خالفت.

«الشتاء ربيع المؤمن قصر نهاره فصامه وطال ليله فقامه» [رواه البيهقي وغيره] وقال الهيثمي: إن سنده حسن.

«القناعة مال لا ينفد وكنز لا يفنى» [رواه الطبراني وغيره] وفيه كلام ومعناه صحيح.

«ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد» [رواه الطبراني] وهو معمول به في الأخلاق ومعنى ولا عال من اقتصد أي ولا افتقر.

«الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة والتودد إلى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم» [رواه البيهقي وغيره] وهو حسن في الأخلاق.

«لا عقل كالتدبير ولا ورع كالكف ولا حسب كحسن الخلق» [رواه الترمذي وابن حبّان] والمراد بالكف: كف الأذى أو كف اللسان.

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هاجر ما حرم اللّه» [متفق عليه].

«التدبير نصف المعيشة والتودد نصف العقل والهم نصف الهرم وقلة العيال أحد اليسارين» [رواه الديلمي].

«لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له» [رواه الإمام أحمد وغيره].

«حسن العهد من الإيمان» [رواه الحاكم في مستدركه].

«جمال الرجل فصاحة لسانه» [رواه القضاعي].

«منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا» [رواه الطبراني وغيره].

«لا فقر أشد من الجهل ولا مال أعز من العقل ولا وحشة أشد من العجب» [رواه ابن ماجه].

«الذنب لا ينسى والبر لا يبلى والديّان لا يموت فكن كما شئت» [رواه الديلمي في مسند الفردوس].

«ما جمع شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم» [رواه العسكري].

«التمسوا الرزق في خبايا الأرض» [رواه أبو شريح].

«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك في أهل القبور» [رواه البيهقي وغيره].

«صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر» [رواه الطبراني].

«العفو لا يزيد العبد إلا عزاً، والتواضع لا يزيده إلا رفعة، وما نقص مال من صدقة» [رواه مسلم وغيره بألفاظ مختلفة].

وغير ذلك مما روته الكافة عن الكافة من مقاماته ومحاضراته وخطبه وأدعيته وعهوده مما لا خلاف أنه نزل من ذلك مرتبة لا يقاس بها غيره وحاز فيها سبقاً يقدر قدره.

كمال معارفه الدنيوية بالتخطيط والتنظيم لشؤون الإسكان والأسواق وغير ذلك

كان ﷺ يهتم بعملية التخطيط والترتيب لبناء المنازل والدور، وكانت له ﷺ معرفة واسعة بتخطيط ذلك وتنظيمه على أساس يحفظ حق الشارع والمارة ويحفظ حق الجار ويحفظ حق المسجد ويراعي في ذلك أيضاً القواعد الصحية المطلوبة من مناسبة البناء في ذلك المكان أو عدم مناسبته، فالدور لها موضعها الخاص بها في تخطيطه ﷺ، والحمام كان له موضعه المناسب له في التخطيط النبوي، والسوق له موضعه اللائق به في التخطيط النبوي: وقد كان يقوم بنفسه ﷺ على تنفيذ ذلك والإرشاد إلى ما ينبغي.

روى ابن سعد في طبقاته: لما أقطع عليه السلام الدور بالمدينة خط لعثمان بن عفان داره اليوم.

وقد خرج ﷺ إلى مكان فسيح فقال: نعم موضع الحمام هذا فبني فيه الحمام، وهذا داخل في معرفته ﷺ بالهندسة والبناء ومهاب الأهوية(١).

وروى أبو داود في «السنن»: أن النبي ﷺ بعث أن ينادي في معسكره أن من ضيق منزلاً أو قطع طريقاً فلا جهاد له. وذلك لما ضيق الناس المنازل وقطعوا الطرق، فيؤخذ منه أنه كان ﷺ يحب النظام حتى في نصب الأخبية في السفر، فكيف لا يحب ذلك في محل الاستيطان والبناء المشيد؟

وقد كان ﷺ يأمر في البناءات أن تكون على مقتضى القواعد الصحية، ولذلك يقول ﷺ لمن سأله عن حق الجار: لا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح، ولا تؤذه بريح قذرك إلا أن تغرف له منها(٢) وفي رواية: ولا تحجب عنه الريح إلا بإذنه(٣). وقد اختار عليه السلام محل السوق وأرشد إليه وقام بنفسه لينظر

(١) انظر التراتيب الإدارية ١/ ٢٨٢.

(٢) رواه البيهقي وقال سنده ضعيف وله شواهد.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل، كذا في التراتيب ٢/ ٨٠.

إليه، فلما رآه أعجبه وركض برجله وقال: نعم سوقكم هذا فلا ينقص.

وكان قد ذهب قبل ذلك إلى السوق القديم فقال: ليس لكم هذا بسوق، ثم رجع إلى الثاني فقال ما قال وحثهم على عمارته[١].

ومن اهتمامه ﷺ بأمر السوق أنه كان يراقب أحوالهم ويسأل عما يجري في السوق وما يحدث ويرعى ذلك رعاية كاملة، ولما علم أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان بعث من يمنعهم من ذلك وقد يضربهم على فعل ذلك، روى البخاري في «الصحيح» عن ابن عمر: أنهم كانوا يشترون الطعام من الركبان على عهد رسول اللّه ﷺ، فبعث عليهم من يمنعهم أن يبيعوه حيث اشتروه حتى ينقلوه حيث يباع الطعام[٢].

ونهى عن تلقي الركبان كما ثبت في «الصحيح»، وينهى أن يبيع حاضر لباد. وقد يخرج بنفسه إلى السوق لمراقبة ما يجري هناك، كما جاء في الحديث أنه ﷺ مر على صاحب طعام فأدخل يده، فنالت بللاً فقال: يا صاحب الطعام ما هذا؟ قال أصابته السماء يا رسول اللّه، قال: أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ثم قال: من غش فليس منا، قال الترمذي حسن صحيح. واستعمل ﷺ بعد الفتح سعيد بن سعيد بن العاص على سوق مكة، واستعمل عمر على سوق المدينة[٣].

ومن اهتمامه بأمر السوق مراقبته للوزّان وأمره له بالعدل والفضل، يقول أبو هريرة: كان لأهل السوق وزان يزن، فقال له عليه السلام: زن وأرجح[٤]. ومعنى قوله زن أي التمر وأرجح أي زد عليه حتى ترجح الميزان بزيادة الكفة.

وكان ﷺ يهتم بتوفير السلع في الأسواق ورواجها وكثرتها لئلا تغلو ولتكون في متناول اليد، ومن هذا المبدأ كان يقول: «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» [رواه ابن ماجه] وكان يحذر الناس من بعض أصحاب الحرف إذ كان يعرف عنهم الغش والكذب ويقول: «أكذب الناس الصباغون والصواغون» [رواه ابن ماجه] وقال في «الفتح» وهو حديث مضطرب الإسناد [رواه أحمد وغيره]، وكان يحث على الخروج إلى الأسواق للبيع والشراء والتجارة ومزاولة الأعمال والحرف المختلفة.

وقد حث الذي جاء يشتكي إليه الفاقة أن يشتغل بجمع الحطب وقال له:

---

(١) روى ابن ماجه والطبراني قصة السوق بروايتين جمعنا بينهما هنا.

(٢) صحيح أبي عبد اللّه البخاري «البيوع».

(٣) السيرة الحلبية ٣/ ٣٥٤.

(٤) رواه أحمد في المسند.

انطلق إلى هذا الوادي فلا تدعن شوكاً ولا حطباً ولا تأتيني إلا بعد عشرة أيام، فكان هذا حثاً وحضاً على مهنة جمع الحطب[١] وجاء سعد بن عائذ يشتكي إليه ﷺ قلة ذات يده فأمر بالتجارة فخرج إلى السوق فاشترى شيئاً من قرظ فباعه فربح فيه فذكر ذلك للنبي ﷺ فأمره بلزومه فلزم التجارة فيه[٢]. وكان إذا رأى الصبيان في السوق يبيعون يدعو لهم بالبركة ويفرح بهم ويشجعهم، وقد مر بعبد اللّه بن جعفر وهو يبيع بيع الصبيان فقال: اللهم بارك له في بيعه أو صفقته[٣]، في رواية للعامري قال: «كنا غلماناً نعمل في السوق، الحديث» [رواه أبو داود].

ومن اهتمامه ﷺ بالسوق أنه سمّى القائمين فيه بالبيع والشراء تجاراً، وقد كان يطلق عليهم سماسرة.

فقد روى ابن ماجه عن قسّ بن أبي عزارة: كنا نسمى في عهد رسول اللّه ﷺ السماسرة فمر بنا رسول اللّه ﷺ، فسمانا باسم هو أحسن منه، فقال: يا معشر التجار إن البيع ـ الحديث ـ زاد الطبراني ـ فكان أوّل من سمّانا التجار، وقد ذكر الحديث الترمذي، وقال باب التجار وتسمية النبي ﷺ بذلك.

واسم التاجر أشرف من اسم السمسار في العرف العام، ولعل وجه الأحسنية أن السماسرة تطلق عى المكاسين أو لعل هذا الاسم في عهده عليه السلام كان يطلق على من فيه نقص.

ومن كمال معارفه ﷺ معرفته بالخياطة؛ تقول السيدة عائشة: كان ﷺ يعمل عمل البيت وكثيراً ما يعمل الخياطة[٤].

ومن كمال معارفه العامة ﷺ أمره لمن قطع أنفه أن يتخذ أنفاً من ذهب كما روى أبو داود في «السنن» أن عرفجة بن سعد قطع أنفه يوم الكلاب فاتّخذ أنفاً من ورق فأنتن عليه فأمره ﷺ أن يتخذه من ذهب.

قال الترمذي في «سننه» وقد روي عن غير واحد من أهل العلم أنهم شدّوا أسنانهم بالذهب فأشار ﷺ إلى أن الذهب خاصيته أن لا ينتن[٥].

ولما أعلن ﷺ تحريم مكة وقطع شجرها ونباتها قال العباس إلا الإذخر

(١) أصلها في سنن الترمذي.
(٢) انظر ترجمته في الإصابة والاستيعاب واسمه سعد بن عائذ وصار معروفاً بسعد القرظ.
(٣) انظر ترجمته في الإصابة.
(٤) رواه ابن سعد في طبقاته.
(٥) انظر سنن الترمذي في استعمال الذهب وترجمة المذكور في الإصابة.

لصاغتنا وسقفاً لبيوتنا، قال إلا الإذخر وأجاز ذلك وهو في «الصحيح».

وكان إذا رأى الرجل يحسن ويتقن صناعة الشيء وكّله إليه وشجعه عليه حتى يبرز فيه.

ومن ذلك أنه ﷺ رأى قيس بن طلق الحنفي وهو يبني معهم المسجد الشريف ورآه يتقن ويحسن عمل الطين فوكله إليه وقال: قربوا له الطين فإنه أعرف به، وحدَّث قيس بن طلق عن هذه القصة فقال: قدمت المدينة على النبي ﷺ وهو يبني مسجده والمسلمون يعملون فيه معه، وكنت صاحب علاج وخلط طين فأخذت المسحاة أخلط الطين ورسول الله ﷺ ينظر إلي ويقول: إن هذا الحنفي لصاحب طين، وفي رواية: فإنه أضبطكم للطين[١].

وفي «البيان والتحصيل» لابن رشد عن مالك كما نقله عن الكتاني: إن رسول الله ﷺ وقف على قبر فكأنه رأى باللبنة سوء خلط فأمر بأن يصلح وقال: إن الله يحب إذا عمل العبد عملاً أن يحسنه ويتقنه.

---

(١) انظر ترجمته في الإصابة وطبقات ابن سعد.

كمال الأدب في الخطب النبوية

كانت خطبه ﷺ مُثلاً عليا يحق على كل داع إلى الإصلاح أن يقتدي بها ويقتبس من آدابها ويسوس النفوس بمثل أساليبها.

وكان يحرص ﷺ أن تطرق مواعظه آذان المستمعين، متمايزة الحروف مفصلة الكلمات، فكان يلقي الخطبة قائماً رافعاً بها صوته، ويخطب على مكان مرتفع ولذلك اتخذ المنبر في مسجده بالمدينة، ويحرص على أن تقع الموعظة في قرارات النفوس، فكان يلقي الخطبة بألفاظ مأنوسة، وتأليف محكم ومعان بارزة في صور بارعة، وربما أعاد الجملة فنطق بها ثلاث مرات ليدل على أنها موضع اهتمام ويخشى أن تمر على أذهان المستمعين دون أن تستقر في نفوسهم.

ولم يكن ﷺ يلتزم السجع في خطبه وإنما يأخذ فيها بطريقة الترسّل إلا أن يجيء السجع عفواً، وذلك أن السجع الملتزم لا يخلو من تكلّف تفقد به صور المعاني جانباً من الوضوح، ولم يكن ﷺ ليطيل الخطب يخشى على الناس الملل فلا ينتفعون بالموعظة انتفاعهم بها وهم يصغون إليها بإقبال ونشاط، وكان يقول: إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته من فقهه، وكانت خطبه مع قصرها ممتعة بالحكمة والموعظة الحسنة إذ تجيء حافلة بجوامع الكلم والجمل التي تجري على الألسنة مجرى الأمثال إيجازاً وبلاغة، وقد يطيل الخطبة في غير يوم الجمعة متى اقتضى الحال الإطالة، فقد قام يوماً فخطب بعد العصر ولم يزل يخطب حتى غربت الشمس.

وكان يفتح الخطبة بحمد اللّه والثناء عليه ويصلهما بالتشهد ويقول: أما بعد، منتقلاً بها إلى حكمة أو موعظة، وقد يدع الخطبة العامة ويتجه في أثنائها إلى إرشاد شخص بعينه متى خشي فوات الفريضة.

فقد جاء رجل والنبي ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة فقال ﷺ: صليت يا فلان؟ فقال: لا، فقال: قم فاركع، ثم عاد إلى الخطبة. وقد يستعين ﷺ في تثبيت

المعنى بالإشارة بيده إشارةً مناسبةً للمعنى، كما قال في إحدى خطبه، «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وقرن بين أصبعيه السبّابة والوسطى، وروي أنه كان يشير بأصبعه السبّابة عند ذكر اللّه تعالى ودعائه وقد تظهر عليه أمارات الإنذار والغضب إذا اقتضى الحال والمقال ذلك، فكان أحياناً إذا خطب احمرّت عيناه واشتدّ غضبه حتى كأنه منذر جيش.

وكان ﷺ ينظر إلى حال القوم يوم الخطبة فيلقيها على مقتضى حالهم، فيأمر بمعروف أخلّوا به، أو يحذّر من مكروه اقتربوا منه.

كمال حكمته في أسلوب الدعوة

الدعوة الصادقة لا يثبت أصلها وتمتد فروعها وتؤتي ثمرها إلا أن يقوم بناؤها على أساس الحجة ويذهب بها الداعي كل مذهب حكيم ويأخذ فيها بكل أدب جميل.

وكذلك كانت دعوته ﷺ إلى الإسلام، فإنها كانت محفوفة بما يقرب العقول إلى قبولها، وتألف النفوس إلى سماعها، فكان ﷺ يراعي في إبلاغها الطرق الكفيلة بنجاحها فيورد لكل مقام مقالاً يناسبه، ويكسو كل معنى من المعاني ثوباً يليق به، ويخاطب كل طائفة على قدر عقولهم، ويلاقيهم بالسيرة التي هي أدعى إلى إقبالهم وأسرع أثراً في صرفهم عن غوايتهم.

وكان ﷺ يدعو إلى الحق ويتلو الدعوة بالحجة والقرآن الكريم، لم يدع أصلاً من أصول الدين إلا أقام عليه البرهان الساطع، وأزاح عنه كل شبهة، يدعم ﷺ الدعوة بالحجة ويدفع ما كان يعرض للناس من شبه.

ومن مظاهر دعوته ﷺ إرسال الحكم البالغة، وكثرة ما في الكتاب العزيز والحديث الشريف من الحكم الرائعة تدل الناظر على أن دعوة الإسلام قول فصل وما هو بالهزل، ومن حكمته ﷺ أنه كان يستعين في بث الدعوة بما كان يهبه لأشراف القبائل من المال لأن الهدايا تذهب بالأحقاد وتضع مكان التقاطع ائتلافاً، فغايتها أنها تجعل القلوب متهيئة للنظر في صدق الدعوة. وكان ﷺ يفعل ذلك حيث يظهر له أن إيمانهم لم يرسخ في قلوبهم رسوخ ما لا تزلزله الفتن.

وإلى أمثال هؤلاء أشار ﷺ بقوله: إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار.

ومن أدب دعوته ﷺ أخذه فيها بالصبر والرفق والأناة، فكان يعرضها في لين من القول، ويقابل الجاهل بالإعراض والمسيء بالعفو والإحسان، وإن أذى كثيراً كان يلحقه من مشركي قريش وسفهائهم فيلقاه بالصبر ولا ينال من عزمه واسترساله في الدعوة ولو شيئاً قليلاً، وكم من كلمة سيئة يرميه بها بعض المنافقين أو بعض الجفاة من الأعراب فيكون جزاؤها الصفح أو التبسم والإنعام، وكان يأخذ في

التأديب والزجر عما لا ينبغي مأخذاً لطيفاً حتى إنه لا يوجه الإنكار إلى الرجل بعينه بل كان يعم فيقول: «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم خشية له».

ومن حكمته في الدعوة أنه لا يجعل الوعظ على الناس ركاماً بل كان يتحرى بالموعظة وقت حاجتهم إليها أو وقت نشاطهم لسماعها. قال عبد الله بن مسعود: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا.

وكان ﷺ يسلك في رسائله إلى الملوك والطوائف طريق الإيجاز ويوكل بسط الدعوة وتفصيل الحجة ودفع الشبه إلى من يبعثهم بتلك الرسائل وفيهم الكفاية لهذا الشأن. كتب إلى أهل نجران كتاباً أرسله مع عمرو بن العاص وهو:

«أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فإن أبيتم فالجزية فإن أبيتم فقد آذنتكم بحرب والسلام».

ومن بديع أسلوبه ﷺ في إجابة السائلين أنه يأتي بالجواب في صورة قاعدة عامة والسائل يكفيه أن يقال له في الجواب «نعم أو لا».

كان رجل من محارب يؤذيه أيام كان يعرض نفسه على القبائل ثم جاء ذلك الرجل في وفد محارب مسلماً، وذكر رسول الله ﷺ بما كان يلقاه به من الأذى وقال له: «استغفر لي» فقال له ﷺ: «إن الإسلام يجبُّ ما قبله من الكفر».

ومن أسلوبه في الدعوة صوغ التشابيه البديعة، وضرب الأمثال الرائعة، وللتشبيه والتمثيل أثر كبير في جعل الحقائق الخفية واضحة والمعاني الغريبة مألوفة، ومن أبدع ما سمعناه في هذا الباب قوله ﷺ: «ترى المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى». ومن سياسته في الدعوة أنه كان يخاطب كل قوم بما يفهمون ويتحامى أن يخاطب أحداً بما لا يتحمله عقله، وأرشد إلى هذا الباب بقوله: «حدثوا الناس بما يفهمون أتحبون أن يكذب الله ورسوله» وربما فعل ﷺ الشيء مسايرة لمن يبتغي فعله وإنما يأخذ بهذا الأدب فيما يرجع إلى العادات ولم يكن في فعله ضرر يستدعي تركه، أراد أن يكتب إلى بعض الملوك رسائل يدعوهم فيها إلى الإسلام فقيل له: إنهم لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً فاتخذ خاتماً من فضة نقشه: محمد رسول الله.

وقد يترك الأمر الذي لا ضرر في تركه اتقاء للفتنة كما ترك هدم الكعبة وبقاءها على أساس إبراهيم اتقاء لفتنة قوم هم حديثو عهدٍ بجاهلية وقال لعائشة رضي الله عنها: لولا قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وبلغت به أساس إبراهيم.

﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾

[المائدة: ٦٧]



كمال عِصْمته عن النقائِص والشُبهات وحفْظ اللَّه تعالى لهُ مِن الأعْداء وَالشّياطِين والمخالفات

كمال حفظ الله تعالى له

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ [الزمر: ٣٦] قيل بكاف محمداً ﷺ أعداءه المشركين، وقيل غير هذا.

وقال: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]، وقال: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الأنفال: ٣٠].

تقول عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني ربي عز وجل».

وروي أن النبي ﷺ كان إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة يقيل تحتها، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك مني فقال: الله عز وجل، فأرعدت يد الأعرابي وسقط سيفه وضرب برأسه الشجرة حتى سال دماغه، فنزلت الآية.

وقد رويت هذه القصة في «الصحيح» وأن غورث بن الحارث صاحب هذه القصة، وأن النبي ﷺ عفا عنه فرجع إلى قومه وقال: «قد جئتكم من عند خير الناس». وقد حكيت مثل هذه الحكاية إنها جرت له يوم بدر وكان قد انفرد من أصحابه لقضاء حاجته فتبعه رجل من المنافقين وذكر مثله.

وقد روي أنه وقع له مثلها في غزوة غطفان بذي أمر مع رجل اسمه دعثور بن الحارث، وإن الرجل أسلم فلما رجع إلى قومه الذين أغروه، وكان سيدهم وأشجعهم قالوا له: أين ما كنت تقول وقد أمكنك؟ فقال: إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدري فوقعت لظهري وسقط السيف فعرفت أنه ملك وأسلمت، وقيل وفيه نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ [المائدة: ١١].

وفي رواية الخطابي: إن غورث بن الحارث المحاربي أراد أن يفتك بالنبي ﷺ فلم يشعر به إلا وهو قائم على رأسه منتضياً سيفه فقال: اللهم اكفنيه بما شئت فانكب على وجهه وندر سيفه من يده. وقيل في قصته غير هذا، وذكر أن فيه

نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾. وقيل كان رسول اللّه ﷺ يخاف قريشاً فلما نزلت هذه الآية استلقى ثم قال: من شاء فليخذلني.

وذكر عبد بن حميد قال: كانت حمالة الحطب تضع العضاة وهي جمر على طريق رسول اللّه ﷺ فكأنما يطؤها كثيباً أهيل.

وذكر ابن إسحاق عنها أنها لما بلغها نزول ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وذكرها بما ذكرها اللّه مع زوجها من الذم أتت رسول اللّه ﷺ وهو جالس في المسجد ومعه أبو بكر وفي يدها فهر من حجارة فلما وقفت عليهما لم تر إلا أبا بكر وأخذ اللّه تعالى ببصرها عن نبيه ﷺ، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني واللّه لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه. وفي ذلك يقول صاحب الهمزية:

وأعدت حمالة الحطب الفهـ ـر وجاءت كأنها الورقاء
يوم جاءت غضبي تقول أفي مثـ ـلي من أحمد يقال الهجاء
تولت وما رأته من أيـ ـن ترى الشمس مقلة عمياء

وعن الحكم بن أبي العاص قال: تواعدنا على النبي ﷺ حتى إذا رأيناه سمعنا صوتاً خلفنا ما ظننا أنه بقي بتهامة أحد فوقعنا مغشياً علينا، فما أفقنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله، ثم تواعدنا ليلة أخرى فجئنا حتى إذا رأيناه جاءت الصفا والمروة فحالت بيننا وبينه.

وعن عمر رضي اللّه عنه تواعدت أنا وأبو جهم بن حذيفة ليلة قتل رسول اللّه ﷺ فجئنا منزله فسمعنا له فافتتح وقرأ: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ إلى ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١ ـ ٨] فضرب أبو جهم على عضد عمر رضي اللّه عنه وقال: انج وفرّا هاربين، فكانت من مقدمات إسلام عمر رضي اللّه عنه. ومنه العبرة المشهورة والكفاية التامة عندما أخافته قريش وأجمعت على قتله وبيتوه فخرج عليهم من بيته فقام على رؤوسهم وخلص منهم. وحمايته عن رؤيتهم له في الغار بما هيأ اللّه من الآيات ومن العنكبوت الذي نسج عليه حتى قال أميّة بن خلف حين قالوا ندخل الغار: ما أرى أنه فيه وعليه من نسج العنكبوت ما أرى إلا أنه قبل أن يولد محمد، ووقفت حمامتان على فم الغار، فقالت قريش: لو كان فيه أحد لما كانت هناك الحمام.

وقصته مع سراقة بن مالك بن جعشم حين الهجرة وقد جعلت قريش فيه وفي أبي بكر الجعائل فأنذر به فركب فرسه واتبعه حتى إذا قرب منه دعا عليه النبي ﷺ

فساخت قوائم فرسه فخر عنها واستقسم بالأزلام فخرج له ما يكره، ثم ركب ودنا حتى سمع قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر رضي اللّه عنه يلتفت ويقول للنبي ﷺ أتينا، فقال: لا تحزن إن اللّه معنا، فساخت ثانية إلى ركبتها وخر عنها فزجرها فنهضت ولقوائمها مثل الدخان، فناداهم بالأمان، فكتب له النبي ﷺ أماناً كتبه ابن فهيرة، وقيل أبو بكر وأخبرهم بالأخبار وأمره النبي ﷺ أن لا يترك أحداً يلحق بهم فانصرف يقول للناس كفيتم ما ههنا، وقيل بل قال لهما أراكما دعوتما عليّ فادعوا لي فنجا ووقع في نفسه ظهوره النبي ﷺ.

وفي معجزة الغار وقصة سراقة قال البوصيري:

ويح قوم جفوا نبيّاً بأرض ... ألفته ضبابها والظباء
وسلوه وحن جذع إليه ... وقلوه ووده الغرباء
أخرجوه منها وآواه غار ... وحمته حمامة ورقاء
وكفته بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصداء
واختفى منهم على قرب مرآ ... ه ومن شدة الظهور الخفاء
ونحا المصطفى المدينة واشتا ... قت إليه من مكة الأنحاء
وتغنت بمدحه الجن حتى ... أطرب الأنس منه ذاك الغناء
واقتفى إثره سراقة فاستهـ ... وته في الأرض صافن جرداء
ثم ناداه بعدما سيمت الخسـ ... ف وقد ينجد الغريق النداء

وذكر ابن إسحاق وغيره أن أبا جهل جاءه بصخرة وهو ساجد وقريش ينظرون ليطرحها عليه فلزقت بيده ويبست يداه إلى عنقه، وأقبل يرجع القهقري إلى خلفه ثم سأله أن يدعو له ففعل فانطلقت يداه. وكان قد تواعد مع قريش بذلك وحلف لئن رآه ليدمغنه، فسألوه عن شأنه فقال: ذكر أنه عرض لي دونه فحل ما رأيت مثله قط هم بي أن يأكلني فقال النبي ﷺ: ذاك جبريل لو دنا لأخذه.

وفي ذلك قال الإمام البوصيري:

هَمَّ قوم بقتله فأبى السيـ ... ف وفاء وفاءت الصفواء
وأبو جهل إذ رأى عنق الفحـ ... ل إليه كأنه العنقاء

وذكر السمرقندي أن رجلاً من بني المغيرة أتى النبي ﷺ ليقتله فطمس اللّه على بصره فلم ير النبي ﷺ وسمع قوله فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتى نادوه. وذكر أنه في هاتين القصتين نزلت: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨].

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق في قصته إذ خرج إلى بني قريظة في أصحابه

فجلس إلى جدار بعض آطامهم فانبعث عمرو بن جحاش أحدهم ليطرح عليه رحى، فقام النبي ﷺ فانصرف إلى المدينة وأعلمهم بقصتهم.

وقد قيل إن قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ﴾، في هذه القصة نزلت.

وحكى السمرقندي أنه خرج إلى بني النضير يستعين في عقل الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية، فقال له حيي بن أخطب: اجلس يا أبا القاسم حتى نطعمك ونعطيك ما سألتنا، فجلس النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما وتآمر حييّ معهم على قتله فأعلم جبريل عليه السلام النبي ﷺ بذلك، فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة، وذكر أهل التفسير معنى الحديث عن أبي هريرة رضي اللّه عنه أن أبا جهل وعد قريشاً لئن رأى محمداً يصلي ليطأن رقبته، فلما صلى النبي ﷺ أعلموه فأقبل فلما قرب منه ولى هارباً ناكصاً على عقبيه منتقباً بيديه فسئل فقال: لما دنوت منه أشرفت على خندق مملوء ناراً كدت أهوي عليه وأبصرت هولاً عظيماً وخفق أجنحة قد ملأت الأرض، فقال ﷺ: تلك الملائكة لو دنا لاختطفته عضواً عضواً ثم أنزل على النبي ﷺ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]، إلى آخر السورة.

ويروى أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين وكان حمزة قد قتل أباه وعمه، فقال: اليوم أدرك ثأري من محمد، فلما اختلط الناس أتاه من خلفه ورفع سيفه ليصبه عليه قال: لما دنوت منه ارتفع لي شواظ من نار أسرع من الرق فوليت هارباً وأحس بي النبي ﷺ فدعاني فوضع يده على صدري وهو أبغض الخلق إليّ فما رفعها إلا وهو أحب الخلق إليّ وقال لي: أدن فقاتل فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه بنفسي ولو لقيت أبي تلك الساعة لأوقعت به دونه.

وعن فضالة بن عمير قال: أردت قتل النبي ﷺ عام الفتح وهو يطوف بالبيت فلما دنوت منه قال: أفضالة، قلت: نعم، قال: ما كنت تحدث به نفسك؟ قلت: لا شيء، فضحك واستغفر لي ووضع يده على صدري فسكن قلبي، فواللّه ما رفعها حتى ما خلق اللّه شيئاً أحب إلي منه، قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا ... يأبى عليّ اللّه والإسلام
لوما رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام

لـرأيـت ديـن الـلّـه أضـحـى بـيـنـا والـشـرك يـغـشـى وجـهـه الإظـلام

ومن مشهور ذلك خبر عامر بن الطفيل وأربد بن قيس حين وفدا على النبي ﷺ وكان عامر قال له: أنا أشغل عنك وجه محمد فاضربه أنت فلم يره فعل شيئاً فلما كلّه في ذلك قال له: واللّه ما هممت أن أضربه إلا وجدتك بيني وبينه أفأضربك؟

ومن عصمته تعالى له أن كثيراً من اليهود والكهنة أنذروا به وعينوه لقريش وأخبروهم بسطوته بهم وحضّوهم على قتله فعصمه اللّه تعالى حتى بلغ فيه أمره.

ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر كما قال ﷺ في الحديث الصحيح.

كمال عصمته ﷺ من الشيطان

قال القاضي عياض: اعلم أن الأمة مجمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان وكفايته منه، لا في جسمه بأنواع الأذى، ولا على خاطره بالوساوس، بل في كل أحواله ﷺ.

جاء في «الصحيح» عن عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: ما منكم من أحد إلا وكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا: وإياك يا رسول اللّه؟ قال: وإياي ولكن اللّه أعانني عليه فأسلم.

زاد غيره عن منصور: فلا يأمرني إلا بخير.

وعن عائشة رضي اللّه عنهما بمعناه، روي: فأسلمُ بضم الميم أي فأسلم أنا منه ـ وصحح بعضهم هذه الرواية ورجحها.

وروي: فأسلم بفتح الميم يعني القرين أنه انتقل من حال كفره إلى الإسلام فصار لا يأمر إلا بخير كالملك، وهو ظاهر الحديث.

ورواه بعضهم فاستسلم.

فإذا كان هذا حكم شيطانه وقرينه المسلط على بني آدم، فكيف بمن بعد منه ولم يلزم صحبته ولا قدر على الدنو منه؟

وقد جاءت الآثار بتصدي الشيطان له في غير موطن رغبة في إطفاء نوره وإماتة نفسه وإدخال شغل عليه، إذ يئسوا من إغوائه فانقلبوا خاسرين، كتعرضه له في الصلاة فأخذه النبي ﷺ وأسره.

ففي «الصحاح»: قال أبو هريرة رضي اللّه عنه: عن النبي ﷺ: «إن الشيطان عرض لي». قال عبد الرزاق: في صورة هر، فشد علي يقطع الصلاة، فأمكنني اللّه منه فذعته[1]، ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا

(١) بالذال أي طرحته في التراب ويصح بالدال أيضاً وهو الدفع العنف.

تنظرون إليه فذكرت قول أخي سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] فرده اللّه خاسئاً.

وفي حديث أبي الدرداء عنه ﷺ: «إن عدو اللّه إبليس جاءني بشهاب من نار ليجعله في وجهي»، والنبي ﷺ في الصلاة وذكر تعوذه باللّه منه ولعنه له وقال: «ثم أردت أن آخذه» وذكر نحوه قال: «لأصبح موثقاً يتلاعب به ولدان أهل المدينة».

وكذلك في حديثه في الإسراء: «وطلب عفريت له بشعلة نار فعلمه جبريل ما يتعوذ به منه». ذكره في «الموطأ» ولما لم يقدر على أذاه بمباشرته تسبب بالتوسط إلى عداه كقضيته مع قريش في الائتمار بقتل النبي ﷺ وتصوره في صورة الشيخ النجدي.

ومرة أخرى في غزوة يوم بدر في صورة سراقة بن مالك وهو قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

ومرةً ينذر بشأنه عند بيعة العقبة... وكل هذا فقد كفاه أمره، وعصمه ضره وشره.

وقال ﷺ حين لد في مرضه، وقيل له: خشينا أن يكون بك ذات الجنب... فقال: «إنها من الشيطان ولم يكن اللّه ليسلطه علي».

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

فالجواب: أن المراد بهذا الخطاب أمته ﷺ وهذا كغيره من الخطابات التي توجه إلى النبي ﷺ ويكون المراد بها أمته.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

فقد زلت في معنى هذه الآية أقدام كثير من العلماء، وساءت أفهام كثير من القراء، إذ فسروا التمني هنا بالتلاوة، وإن «إذا تمنى» معناه إذا قرأ، ويكون معناه حينئذٍ أنه إذا قرأ الرسول أو النبي ما أوحي إليه فإن الشيطان يتسلط على قراءته ويلقي فيها ما يشاء ثم ينسخ اللّه ذلك الذي ألقاه الشيطان.

واستدلوا لصحة هذا التأويل بقصة الغرانيق، وهي: ما روي أن النبي ﷺ لما قرأ سورة «والنجم» وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۞ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] قال: تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتها لترتجى.

«والغرانيق» في الأصل، الذكور من طير الماء، واحدها غرنوق وغرنيق، سمي به لبياضه.

وقيل: الكركي.

والغرنوق أيضاً، الشاب الأبيض الناعم، وكانوا يزعمون أن الأصنام تقربهم من اللّه، وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تعلو في السماء وترتفع.

ويروى «ترتضى» وفي رواية: إن شفاعتها لترتجى، وإنها لمع الغرانيق العلى، وفي أخرى: والغرانقة العلى، تلك الشفاعة ترتجى، فلما ختم السورة سجد، وسجد المسلمون والكفار لمّا سمعوه أثنى على آلهتهم.

وما وقع في بعض الروايات أن شيطاناً ألقاها على لسانه وأن النبي ﷺ كان يتمنى أن لو نزل عليه شيء يقارب بينه وبين قومه، فلما ألقى ذلك الشيطان حزن ﷺ، فأنزل اللّه تعالى تسلية له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢] وقوله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣].

والصحيح في تفسير الآية هو ما قاله الإمام العارف باللّه الشيخ عبد العزيز الدباغ رضي اللّه عنه وهو:

أن اللّه سبحانه وتعالى ما أرسل من رسول، ولا بعث نبياً من الأنبياء إلى أمة من الأمم إلا وذلك الرسول يتمنى الإيمان لأمته ويحببه لهم ويرغب فيه ويحرص عليه غاية الحرص ويعالجهم عليه أشد المعالجة، ومن جملتهم في ذلك نبيناﷺ الذي قال له الرب سبحانه وتعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩] إلى غير ذلك من الآيات المتضمنة لهذا المعنى، ثم الأمة تختلف كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فأما من كفر فقد ألقى إليه الشيطان الوساوس القادحة في الرسالة الموجبة لكفره، وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو من وساوس، لأنها لازمة للإيمان بالغيب في الغالب، وإن كانت تختلف في الناس بالقلة والكثرة وبحسب المتعلقات.

إذا تقرر هذا فمعنى تمنى أنه يتمنى الإيمان لأمته ويحب لهم الخير والرشد

والصلاح والنجاح، هذه أمنية كل رسول ونبي، وإلقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوى من الوساويس الموجبة لكفر بعضهم، ويرحم اللّه المؤمنين، فينسخ ذلك من قلوبهم، ويحكم فيهم الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة، ويبقي ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتنوا به، فخرج من هذا أن الوساويس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً، غير أنها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين فهذا ما يتعلق بتفسير الآية الكريمة. وأما قصة الغرانيق فإنها قصة باطلة نقلاً وعقلاً.

أما «نقلاً» فإنّ حديثها حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم.

وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلي أُناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده، واختلاف كلماته، فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها وقد أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه، وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها، فلما بلغ النبي ﷺ ذلك قال: واللّه ما هكذا أنزلت، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم، ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق فيها ضعيفة واهية.

وأما «عقلاً» فقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ، ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، أما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير اللّه وهو كفر، أو يتسور عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه، حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك كله ممتنع في حقه ﷺ، أو يقول ذلك النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً وذلك كفر، أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله.

وقد تقرر بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه لا عمداً ولا سهواً أو أن يشتبه عليه ما يلقيه الملك مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على اللّه لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه، وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥].

وهذا الكلام لو كان كما روي لكان بعيد الإلتئام متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم، متخاذل التأليف والنظم، ولكان النبي ﷺ ومن بحضرته من المسلمين وصناديد المشركين ممن يخفى عليه ذلك، وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حلمه، واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه؟.

ثم إنه قد علم من عادة المنافقين ومعاندي المشركين وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل فتنة، وتعييرهم المسلمين، والشماتة بهم الفينة، بعد الفينة وارتداد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة، ولم يحك أحد في هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الأصل، ولو كان ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرة في قصة الإسراء حتى كانت في ذلك لبعض الضعفاء ردة.

فما روي عن معاند فيها كلمة، ولا عن مسلم بسببها بنت شفة، فدل على بطلانها واجتثاث أصلها.

ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ليلتبس به على ضعفاء المسلمين.

كمال عصمة الله تعالى له من النقائص والشبهات

تعاضدت الأخبار والآثار عن نبينا ﷺ بتنزيهه عن كل نقص منذ ولد، ونشأته على التوحيد والإيمان بل على إشراق أنوار المعارف، ونفحات ألطاف السعادة.

ومن هنا كان توحيده وعلمه بالله وصفاته والإيمان به وبما أوحي إليه، على غاية المعرفة ووضوح العلم واليقين، والانتفاء عن الجهل بشي من ذلك، أو الشك أو الريب فيه، والعصمة من كل ما يضادّ المعرفة بذلك واليقين.

وما ورد من النصوص مما قد يفيد ظاهره خلاف هذا، فسنبين حقيقته باختصار كما جاء عن الأئمة الأعلام، ثم نبين ما نراه في ذلك. قال القاضي عياض في قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ﴾ [يونس: ٩٤]. فاحذر ـ ثبت الله قلبك ـ أن يخطر ببالك ما ذكره فيه بعض المفسرين عن ابن عباس أو غيره من إثبات شك للنبي ﷺ فيما أوحي إليه. فمثل هذا لا يجوز عليه جملة، بل قال ابن عباس: لم يشك النبي ﷺ ولم يسأل، ونحوه عن ابن جبير والحسن.

وحكى قتادة: أن النبي ﷺ قال: ما أشك ولا أسأل، وعامة المفسرين على هذا.

واختلفوا في معنى الآية فقيل المراد.. قل يا محمد للشاك إن كنت في شك... الآية.

وقالوا: وفي السورة نفسها ما دل على هذا التأويل وهو قوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ...﴾ [يونس: ١٠٤]، وقيل المراد بالخطاب العرب وغير النبي ﷺ كما قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، الخطاب له والمراد غيره ومثله ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود: ١٠٩] ونظيره كثير.

ألا تراه يقول: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٩٥]، وهو ﷺ كان المكذَّب (بفتح الذال المعجمة المشددة) فيما يدعو إليه، فكيف يكون ممن كذب به، فهذا كله يدل على أن المراد بالخطاب غيره.

ومثل هذه الآية قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٩] المأمور ههنا غير النبي ﷺ ليسأل النبي، والنبي ﷺ هو الخبير المسؤول، لا المستخبر السائل.

وقيل: إن هذا الشك الذي أمر به غير النبي ﷺ بسؤال الذين يقرؤون الكتاب إنما هو فيما قصه الله من أخبار الأمم، لا فيما دعا إليه من التوحيد والشريعة، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ . . .﴾ [الزخرف: ٤٥] المراد المشركون، والخطاب موجه للنبي ﷺ.

وقيل معناه: **(سلنا عمن أرسلنا من قبلك)** فحذف الخافض وتم الكلام، ثم ابتدأ ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٤٥] إلى آخر الآية، على طريقة الإنكار، أي ما جعلنا.

وقيل: أمر النبي ﷺ أن يسأل الأنبياء ليلة الإسراء عن ذلك، فكان أشد يقيناً من أن يحتاج إلى السؤال، فروي أنه قال: «لا أسأل قد اكتفيت».

وقيل سل أمم من أرسلنا، هل جاؤوهم بغير التوحيد؟ وهو معنى قول مجاهد والسدي والضحاك وقتادة، والمراد بهذا والذي قبله إعلامه ﷺ بما بعثت به الرسل، وإنه تعالى لم يأذن في عبادة غيره لأحد، رداً على مشركي العرب وغيرهم في قولهم: ﴿**إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى**﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] أي في علمهم بأنك رسول الله وإن لم يقروا بذلك، وليس المراد به شكه فيما ذكر في أول الآية.

وقد يكون أيضاً على مثل ما تقدم، أي قل يا محمد لمن امترى في ذلك، لا تكونن من الممترين، بدليل قوله أوّل الآية ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا﴾ [الأنعام: ١١٤]، وإن النبي ﷺ يخاطب بذلك غيره.

وقيل هو تقرير كقوله: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ . . .﴾ [المائدة: ١١٦] وقد علم أنه لم يقل.

وقيل: معناه، ما كنت في شك... فاسأل تزدد طمأنينة وعلماً إلى علمك ويقينك.

وقيل إن كنت تشك فيما شرفناك وفضلناك به فاسألهم عن صفتك في الكتب ونشر فضائلك.

وحكي عن أبي عبيدة، أن المراد... إن كنت في شك من غيرك فيما أنزلنا.

فإن قيل فما معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ﴾

[يوسف: ١١٠] على قراءة التخفيف؟ قلنا: المعنى في ذلك ما قالته السيدة عائشة رضي اللَّه عنها: معاذ اللَّه أن تظن ذلك الرسل بربها، وإنما معنى ذلك أن الرسل لما استيأسوا ظنوا أن من وعدهم النصر من أتباعهم كذبوهم، وعلى هذا أكثر المفسرين.

وقيل: إن ضمير ظنوا عائد على الأتباع والأمم، لا على الأنبياء والرسل، وهو قول ابن عباس والنخعي وابن جبير وجماعة من العلماء.

وبهذا المعنى قرأ مجاهد «كذبوا» فلا تشغل بالك من شاذ التفسير بسواه، مما لا يليق بمنصب العلماء، فكيف بالأنبياء؟

ومن ذلك قوله تعالى لسيدنا محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] فإن بعضهم فسّرها بأن معناها لا تكوننّ ممن يجهل أن اللَّه لو شاء لجمعهم على الهدى.

وهذا أمر باطل فإن أقل الناس إيماناً لا يجهل أن اللَّه لو شاء لجمعهم على الهدى، فكيف بسيد أهل الإيمان، إذ فيه إثبات الجهل بصفة من صفات اللَّه تعالى، وذلك لا يجوز على الأنبياء.

نقول: إن المقصود هو وعظه ﷺ أن لا يتشبه في أموره بسمات الجاهلين.

وقيل: إنه خطاب للأمة المحمدية، والمعنى: فلا تكونوا من الجاهلين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ . . .﴾ [الإسراء: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ [الحاقة: ٤٥] وقوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقوله: ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧] وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

فاعلم وفقنا اللَّه وإياك أنه ﷺ لا يصح ولا يجوز عليه أن لا يبلغ، ولا أن يخالف أمر ربه، ولا أن يشرك به، ولا يتقول على اللَّه ما لا يحب، أو يفتري عليه، أو يضل، أو يختم على قلبه، أو يطيع الكافرين، ولكن يسر أمره بالمكاشفة والبيان في البلاغ للمخالفين، وإن إبلاغه إن لم يكن بهذه السبيل فكأنه ما بلغ، وطيب نفسه وقوى قلبه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، وقوله: ﴿إِذًا

﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الإسراء: ٧٥] فمعناه أن هذا جزاء من فعل هذا، وجزاؤك لو كنت ممن يفعله وهو لا يفعله.

وكذلك قوله: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] فالمراد غيره، كما قال: ﴿إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤٩]، وقوله: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] وما أشبهه فالمراد غيره، وأن هذه حال من أشرك، والنبي ﷺ لا يجوز عليه هذا.

وقوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فليس فيه أنه أطاعهم، والله ينهاه عما يشاء، ويأمره بما يشاء كما قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ [الأنعام: ٥٢] وما كان طردهم ﷺ ولا كان من الظالمين.

رأي المؤلّف

وقد ظهر لي رأي آخر في معنى هذه الآيات عسى أن يكون صواباً إن شاء اللّه، وهو أن هذه الآيات يمكن أن نقسمها إلى قسمين: قسم يتضمن نهيه ﷺ عن فعل أمور لا تصح نسبتها إليه.

وقسم يتضمن افتراض وقوع أشياء منه لا تليق بمقامه ﷺ.

القسم الأوّل

قسم يتضمن نهيه ﷺ عن فعل أمور هو أبعد الناس عنها ولا يتصور أبداً صدورها منه بل لا يتصور صدورها ممن هو أقل منه مقاماً.

ويدخل تحت هذا القسم الآيات المتضمنة أمره بفعل ما هو متصفٌ به، ومتحققٌ بفعله. دلّت البراهين الساطعة والأدلة الصحيحة من سيرته وحالته أنه متصفٌ بها كل الاتصاف متحقق كل التحقق قبل النبوة فهي من مقتضيات أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة.

ورأيي في هذا القسم من الآيات هو أن المقصود منها دعوته ﷺ إلى الاستمرار على الثبات على ما هو عليه سواء فيما نهى عن فعل ضده مما جاء النهي عن فعله أو فيما أمر بفعله مما جاء الأمر بفعله.

أمثلة ذلك:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣]. لا ينبغي أن يفهم من هذه الآيات أنه ﷺ لم يكن من قبل يأخذ بالعفو ويأمر بالعرف ولم يكن متقياً ـ حاشا وكلا، بل إن هذه الآيات وأمثالها، الأمر فيها ليس للابتداء أو الإنشاء، وإنما هو للاستمرار على الحال الذي هو عليه والبقاء على الوصف الذي هو به. فكأنه يقول ـ يا أيها النبي استمر على تقواك استمر على خلقك الزكي من الأخذ بالعفو والأمر بالعرف والإعراض عن الجاهلين ومجاهدة الكفار.

ذلك لأنه ﷺ متصف بهذه الأوصاف ومتحقق بها بل إن بعضها هي من صفاته الخلقية التي اشتهر بها قبل البعثة. فقد كان حليماً كريماً عفوّاً آمراً بالعرف

معرضاً عن الجاهلين كل الإعراض. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥] هذه الآية نزلت في قتادة بن النعمان في شأن متاعه الذي سرق ـ وقد اتهم بني أبيرق من المنافقين، واتهم جماعة من المؤمنين فعاتبه ﷺ وقال له: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح، ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة، قال: فرجعت، ثم نزلت الآية. وظاهر قوله خصيماً يفيد أنه كان يريد أن يميل للخائنين ويخاصم عنهم. وحاشا أن يكون ذلك منه ﷺ وهو الأمين والأمانة وصفه من قبل أن يكون رسولاً، وهو العفيف المعروف بالعفة والنزاهة.

وعندي أن معناه: واستمر يا محمد على سيرتك المرضية وأخلاقك الذكية في عدم إعانتك للخائنين أو معاونتك لهم أو دفاعك عنهم.

ومنه قوله تعالى له: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] أي استمر على معرفتك وعلمك وبعدك عن الجاهلين.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] أي استمر على يقينك وإيمانك وبعدك عن الشاكين المترددين. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦] أي استمر على إخلاصك في دعائك وكمال توجهك واستمساكك بالله.

وأظن جاهلاً يقول بأنه كان يحصل منه خلاف ذلك أو خطر بباله ﷺ.

وأكبر دليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٩٥] مع أنه من المعلوم علماً يقينياً مقطوعاً به لا يقل الشك أنه ﷺ كان المكذَّب فيما يدعو إليه. فكيف يكون ممن كذب به.

والمعنى عندي: استمر يا محمد على قوة اعتقادك وكمال تصديقك وعظيم إيمانك.

وهذا كله كقولك للتلميذ المجتهد المثابر ـ اجتهد واحفظ لا تكسل ولا تعجز ولا تلعب مع أنه قائم بالاجتهاد بعيد عن اللعب.

فكل هذا يسعه صدر اللغة العربية ويطمئن إليه قلب المؤمن.

القسم الثاني

وهو يتضمن افتراض وقوع أشياء منه ﷺ لا يصح بحالٍ من الأحوال تصوّر وقوعها منه. فلا يجوز أن يفهم منها جواز وقوعها منه أو صحة نسبتها إليه. وقد كثر كلام المفسرين عن هذه الآيات بإيراد احتمالات متعددة وكثير منها لا يخلو من تكلفٍ وعنتٍ.

وأرى أن هذه الآيات التي سنذكر بعضها لا يلزم منها ما قاله المفسرون وبنوه عليها من كلام ولوازم تضطرهم ـ بدافع إيمانهم ـ إلى ردّه بتأويلات مهزوزة واحتمالات معلولة. وذلك لأن هذه الآيات تفيد أموراً مفترضة وهذه الأمور المفترضة لا يلزم صحة وقوعها. بل إننا نعتقد أنها يستحيل وقوعها وقضية افتراض وقوعها لا يلزم منها صحة نسبة ذلك إليه. لأننا نقول إنه يمكن أن يفترض وقوع الشيء المحال. ولا يلزم منه جواز الوقوع ودليل هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١] فهل يصح أن يقال إن هذا يفيد صحة وقوع ذلك. ولا يقول ذلك إلا مشركٌ جاهل بل هذا افتراض أي «إن فرض أن يكون للرحمن ولد» وهو محال بلا شك.

وبمثل هذا نجيب عن قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] والمعنى هو «إن فرض حصول الشك منك فاسأل الذين يتلون الكتاب» ولكن ذلك محال. فلا يحصل ولن يحصل أبداً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشورى: ٢٤] ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥] فكل هذه الأمور افتراضيات محال وقوعها ولا يصح نسبتها إليه ﷺ. إذ لا يتصور عاقل مؤمن أنه ﷺ يطيع من في الأرض وهو الذي أمر اللّه من في الأرض بطاعته. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩]. ولايتصور عاقل مؤمن أن يختم اللّه على قلب محمد ﷺ وهو الذي يختم اللّه على قلب من لم يؤمن به. ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] وهكذا...

حول قصة زيد بن حارثة

ومن ذلك قوله تعالى: في قصة زيد بن حارثة ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فقد أخطأ بعض المفسرين في تفسيرها وقال: إن معناها أن النبي ﷺ لما رأى زينب أعجبته، وتمنى أن يطلقها زيد، وأخفى في نفسه هذه الأمنية، وأنه كان يأمر زيداً بإمساكها مجاملة.

ولو كان هذا صحيحاً لكان فيه أعظم الحرج وما لا يليق به من مد عينيه لما نهي عنه من زهرة الحياة الدنيا.. ولكان هذا نفس الحسد المذموم الذي لا يرضاه، ولا يتسم به الأتقياء، فكيف سيد الأنبياء؟!.

قال القشيري: وهذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفة بحق النبي ﷺ وبفضله، وكيف يقال: رآها فأعجبته، وهي بنت عمته، ولم يزل يراها منذ ولدت ولا كان النساء يحتجبن منه ﷺ وهو زوجها لزيد، فلو أرادها ﷺ لاصطفاها لنفسه قبل زيد ولفرحت بذلك بما لا مزيد عليه خصوصاً وإنها ما تزوجت بزيد إلا طاعة لأمر رسول الله ﷺ.

والحق الذي ندين الله عليه هو أن الله تعالى كان قد أعلم نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه بعد زيد لحكمة تشريعية أشارت إليها الآية في آخرها، وكان زيد يشكو كثيراً إلى رسول الله ﷺ عدم استقراره وارتياحه للزواج بها، وذلك لوجود فوارق عديدة بينهما تجعل الائتلاف والإنسجام بعيداً، فكان كلما شكاها إلى رسول الله ﷺ يقول له: أمسك عليك زوجك واتق الله، وأخفى منه في نفسه ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها مما الله مبديه ومظهره بتمام التزوج وطلاق زيد لها.

فهذا منه ﷺ تمام الأدب والذوق، وكمال الإحساس في مراعاة شعور الآخرين، مع أنه لو قال له إن الله أخبرني بأن زينب ستكون زوجة لي بعدك لما كان

عليه في ذلك حرج ولذا فإن اللّه هنا يمتدح فيه هذه المنقبة ويثني عليه موقفه هذا.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

ويؤيد هذا ما جاء عن الزهري قال: «نزل جبريل على النبي ﷺ يعلمه أن اللّه يزوجه زينب بنت جحش، فذلك الذي أخفى في نفسه».

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] أي لا بد لك أن تتزوجها. ويوضح هذا أن اللّه لم يبد من أمره معها غير زواجه لها، فدل أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به تعالى.

والحكمة في زواجه بها، لإزالة حرمة التبني، وإبطال سنته، لأن النبي ﷺ كان قد تبنى زيداً حتى صار يدعى زيد بن محمد، وقد أبطل اللّه تعالى هذه العادة بقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠] أبطلها عملياً بأمره ﷺ بالتزوج بها.

وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى في آخر الآية بقوله: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٤٧].

فإن قيل: فما الفائدة في أمره ﷺ لزيد بإمساكها؟ فالجواب: أنه وإن كان اللّه تعالى قد أعلم نبيه بأنها ستكون زوجته إلا أن اللّه تعالى لم يأذن بطلاقها في ذلك الوقت، فلذلك كان يأمره بإمساكها حتى يأتي الوقت الذي قدر اللّه فيه الطلاق.

وإن قيل: فما معنى قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾، فالجواب: أن الخشية هنا ـ معناها الاستحياء وليس الخوف، أي يستحي منهم أن يقولوا: تزوج زوجة ابنه، وأن خشيته ﷺ من الناس كانت من إرجاف المنافقين واليهود، وتشغيبهم على المسلمين بقولهم: تزوج زوجة ابنه بعد نهيه عن نكاح حلائل الأبناء كما كان، فعاتبه اللّه على هذا ونزهه عن الالتفات إليهم فيما أحله له، كما عاتبه اللّه على مراعاة رضي أزواجه في سورة التحريم بقوله: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ . . .﴾ [التحريم: ١] كذلك قوله له ها هنا: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

وقد روي عن الحسن وعائشة: لو كتم رسول اللّه ﷺ شيئاً لكتم هذه الآية لما فيها من عتبه وإبداء ما أخفاه.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، ودفع شبه أخرى

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، قيل: ضالاً عن النبوة فهداك إليها، وقيل: وجدك بين أهل الضلال فعصمك من ذلك، وهداك للإيمان وإلى إرشادهم، وقيل: ضالاً عن شريعتك، أي لا تعرفها فهداك إليها، والضلال ههنا التحير، ولهذا كان ﷺ يخلو بغار حراء طلب ما يتوجه به إلى ربه، ويتشرع به حتى هداه الله إلى الإسلام، وقيل: لا تعرف الحق فهداك إليه وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣].

وعن جعفر بن محمد: ووجدك ضالاً عن محبتي لك في الأزل أي لا تعرفها، فمننت عليك بمعرفتي.

وقرأ الحسن بن علي: ووجدك ضالاً فهدى[١]، أي اهتدى بك، وهي قراءة شاذة.

والأظهر عندي أن معناه: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل إليك، وفي كيفية إرشاد الناس وتبليغهم، فهداك لذلك، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤] وهذا ما رأيته بعد ذلك في كلام الجنيد.

وقال ابن عطاء: ووجدك ضالاً، أي محباً لمعرفتي... والضال: المحب كما قال: إنك لفي ضلالك القديم، أي محبتك القديمة، لم يريدوا ههنا في الدين، إذ لو قالوا ذلك في نبي الله لكفروا.

ومثله هذا قوله: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠] أي محبة بينة.

وقال الجنيد: ووجدك متحيراً في بيان ما أنزل إليك فهداك لبيانه، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقيل: ووجدك لم يعرفك أحد بالنبوة حتى أظهرك فهدى بك السعداء.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]

---

(١) أي على أن «ضال» فاعل وجدك.

والصحيح أن معناه: ما كنت تدري قبل الوحي أن تقرأ القرآن، ولا كيف تدعو الخلق إلى الإيمان.

وقال بعضهم: ولا الإيمان الذي هو الفرائض والأحكام، فكان قبل مؤمناً بتوحيده، ثم نزلت الفرائض التي لم يكن يدريها قبل فزاد بالتكليف إيماناً، وهو أحسن وجوهه.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣].

وقال الأزهري: معناه الناسين[1]: كما قال تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] فاعلم: أنه ليس بمعنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٧].

بل حكى أبو عبد اللّه الهروي أن معناه: لمن الغافلين عن قصة يوسف إذ لم تعلمها إلا بوحينا.

(١) مقصوده أن معنى قوله لمن الغافلين أي من الناسين.

حول نسبة الذنوب إلى مقامه الشريف ﷺ

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فإن ظاهر الآية يفيد جواز صدور الذنب من النبي ﷺ إعتماداً على أن المغفرة إنما تكون بعد الذنب، وقد قال بهذا بعض العلماء وأيدوه فقالوا بجواز صدور الصغائر منه ﷺ محتجين بآيات وأحاديث، يفيد ظاهرها هذا المعنى.

منها ـ قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣] وقوله: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ * أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ [عبس: ١، ٢] وقول النبي ﷺ في دعائه: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت . . .» ونحوه من أدعيته ﷺ، وقوله: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله»، وفي حديث أبي هريرة: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة». وقد أجاب الشيخ الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى عن قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بأجوبة عديدة. منها: أن المراد بذلك أمته ﷺ، ومنها أن المراد بذلك ما كان عن سهو وغفلة وتأويل، ومنها: أن المغفرة هنا تبرأته من العيوب، ومنها: أن النبي ﷺ لما أُمر أن يقول: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، سرّ بذلك الكفار فأنزل الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فمقصد الآية أنك مغفور لك غير مؤاخذ بذنب إن لو كان.

وأجاب الإمام العارف بالله عبد العزيز الدباغ: بجواب نفيس، خلاصته: أن المراد بالفتح في قول تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ [الفتح: ١] هو المشاهدة، أي مشاهدته تعالى، فمن رحمة الله تعالى للنبي ﷺ أنه أزال عنه الحجاب، وأكرمه بمشاهدته تعالى، فلا يرى إلا ما هو حق من الحق وإلى الحق، فهذا هو المشار إليه بالفتح المبين، وقد وقع له ﷺ من صغره لأنه لم يحجب عنه تعالى، وهذا الفتح ثابت

لكل نبي، بل ولكل عارف، والخصوصية فيه للنبي ﷺ من حيث كمال قوته وطاقته، وأهلية عقله وروحه ونفسه وذاته وسره مما لم يثبت لغيره.

والمراد بالذنب في قوله: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ سببه، وهو الغفلة وظلام الحجاب الذي في أصل النشأة الترابية، والمراد: بما تقدم وما تأخر، الكناية عن زواله والمراد بالغفران الإزالة.

فكأنه يقول: إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليزول عنك الحجاب بالكلية، ولتتم النعمة منا عليك، ولتهدى وتنصر فإنه لا نعمة فوق نعمة زوال الحجاب؛ ولا هداية فوق هداية المعارف، ولا نصرة أبلغ من نصرة من كانت هذه حالته، هذا مستفاد من كلام الشيخ الدباغ بتصرف.

قلت: أما أمر اللّه تعالى لنبينا ﷺ بالاستغفار، وكونه ﷺ يصرح بذلك، ويدعو به ويسأله من اللّه، فهذا من كمال تواضعه ﷺ، ومن كمال إقراره بالعبودية الكاملة، وبحاجته إلى ربه، وافتقاره إليه، وعدم استغنائه عن فضله، وعدم اغتراره بما أعطاه مولاه، وكأن لسان حاله يقول: إني مع ما منّ اللّه علي من فضل وثواب ودرجات عالية ومقامات سامية، فإني لا أزال أرغب في فضله وأسارع إلى رحابه، وأقف على أبوابه، وأنافس في الخيرات، وأبادر إلى المبرات، وقد صرح بذلك فقال: «أنا أخشاكم للّه وأتقاكم وأعلمكم به»، وفي هذا أيضاً تعليم للأمة، ليقتدوا به ويتبعوه، وفي هذا أيضاً تمام الشكر للّه بإدامة العمل له، كيف لا، وهو القائل: «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟

وقد قال الإمام الشاذلي رحمه اللّه: سمعت الحديث الوارد عن رسول اللّه ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر اللّه في اليوم سبعين مرة»، فأشكل عليّ معناه، فرأيت رسول اللّه ﷺ وهو يقول لي: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار.

ووضعنا عنك وزرك

وأما قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢ ـ ٣] فقيل: معناه أنه حفظ قبل نبوته منها وعصم، ولولا ذلك لأثقلت ظهره.

وقيل: المراد بذلك ما أثقل ظهره من أعباء الرسالة حتى بلغها.

وقيل: ثقل شغل سرك وحيرتك، وطلب شريعتك حتى شرعنا ذلك لك.

وقيل: معناه خففنا عنك ما حملت بحفظنا لما استحفظت وحفظ عليك.

وقيل: حططنا عنك ثقل الجاهلية.

ومعنى «أنقض ظهرك» أي كاد ينقضه، أو يكون الوضع عصمة اللّٰه وكفايته من ذنوب لو كانت لأنقضت ظهره أو يكون من ثقل الرسالة، أو ما ثقل عليه وشغل قلبه من أمور الجاهلية، وإعلام اللّٰه تعالى له بحفظ ما استحفظه من وحيه.

عفا اللّٰه عنك

وأما قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] فأمر لم يتقدم للنبي ﷺ فيه من اللّٰه تعالى نهي، فيعد معصية ولا عده اللّٰه تعالى معصية، بل لم يعده أهل العلم معاتبة، وغلطوا من ذهب إلى ذلك.

والصواب أنه ﷺ كان له أن يفعل ما شاء فيما لم ينزل عليه فيه وحي، فكيف وقد قال اللّٰه تعالى: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢] فلما أذن لهم أعلمه اللّٰه بما لم يطلع عليه من سرهم أنه لو لم يأذن لقعدوا وأنه لا حرج عليه فيما فعل وليس «عفا» هنا بمعنى غفر، بل قال النبي ﷺ: «عفا اللّٰه لكم عن صدقة الخيل والرقيق» ولم تجب عليهم قط أي لم يلزمكم ذلك ونحوه للقشيري، قال: وإنما يقول: «العفو» لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب قال: ومعنى: «عفا اللّٰه عنك» لم يلزمك ذنب. قال الداودي: «روي أنها كانت تكرمة». قال مكي: «هو استفتاح كلام مثل: أصلحك الله، وأعزك».

وحكى السمرقندي: إن معناه عافاك اللّٰه.

عبس وتولى

وأما قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ...﴾ [عبس: ١]، فليس فيه إثبات ذنب له ﷺ، بل إعلام اللّٰه لنا أن ذلك المتصدي له ممن لا يتزكى، فالخطاب لنا.

وإن الصواب أو الأولى كان ـ لو كشف لك حال الرجلين، الإقبال على الأعمى.

وفعل النبي ﷺ لما فعل، وتصديه لذاك الكافر، كان طاعة للّه، وتبليغاً عنه، واستئلافاً له، كما شرعه الله له، لا معصية ومخالفة له.

وما قصه اللّه عليه من ذلك إعلام بحال الرجلين ـ وتوهين أمر الكافر عنده، والإشارة إلى الإعراض عنه بقوله: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧].

قلت: ويحتمل أنه عتاب من الحق سبحانه على ما فعله ﷺ مما ظهر له صلاحه وترجح عنده نجاحه، وكان الواقع الذي قدر اللّه جل وعلا بخلاف ذلك. والعتاب لا يقتضي ولا يلزم منه أن يكون بعد ذنب أو مخالفة كما هو الجاري بين الناس في معاملتهم، فقد يعاتب الأخ أخاه والحبيب حبيبه على ترك الأولى بل على ترك الأكمل. وقد يعاتب الوالد ولده على التقصير وفعل المذموم، فالعتاب أوسع من أن يكون في جهة واحدة.

وقيل أراد بـ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ الكافر الذي كان مع النبي ﷺ قاله أبو تمام.

لقد خشيت على نفسي

ومن ذلك ما ورد في حديث السيرة ومبدأ الوحي من قوله ﷺ لخديجة: «لقد خشيت على نفسي» ليس معناه الشك فيما آتاه اللّه بعد رؤية الملك، ولكن لعله خشي أن لا تحتمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي فينخلع قلبه أو تزهق نفسه.

هذا على ما ورد في «الصحيح» أنه قاله بعد رؤية الملك أو يكون ذلك قبل لقائه، وإعلام اللّه تعالى له بالنبوة لأول ما عرضت عليه من العجائب، وسلم عليه الحجر والشجر وبدأته المنامات والتباشير.

كما روي في بعض طرق هذا الحديث، إن ذلك كان أولاً في المنام، ثم أُري في اليقظة مثل ذلك تأنيساً له عليه السلام، لئلا يفجأه الأمر مشاهدة ومشافهة، فلا يحمله لأول حالة بنيته البشرية.

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي اللّه عنها: أول ما بدئ به رسول اللّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، قالت: ثم حبب إليه الخلاء، وقالت: إلى أن جاءه الحق وهو في غار حراء.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنهما: مكث النبي ﷺ بمكة خمس عشرة سنة يسمع الصوت ويرى الضوء سبع سنين، ولا يرى شيئاً، وثماني سنين يوحى إليه.

وقد روى ابن إسحاق عن بعضهم: أن النبي ﷺ قال: وذكر جواره بغار حراء، قال: فجاءني وأنا نائم فقال: إقرأ، فقلت: ما أقرأ... وذكر نحو حديث عائشة في غطّهِ له وأقرائه له ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] السورة، قال: فانصرف عني، وهببت من نومي كأنما صورت في قلبي، ولم يكن أبغض إلي من شاعر أو مجنون، قلت: لأتحدث عني قريش بهذا أبداً، لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحنَّ نفسي منه فلأقتلنها، فبينا أنا عامد لذلك إذ سمعت منادياً ينادي من السماء: يا محمد... أنت رسول اللّه وأنا جبريل، فرفعت رأسي فإذا جبريل على صورة رجل، وذكر الحديث.

فقد بين في هذا أن قوله لما قال، وقصده لما قصد، إنما كان قبل لقاء جبريل عليهما السلام، وقبل إعلام اللّه تعالى له بالنبوة.

إنه ليغان على قلبي

ومن ذلك قوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر اللّه كل يوم مائة مرة» ـ وفي طريق ـ «في اليوم أكثر من سبعين مرة».

قال القاضي عياض: فاحذر أن يقع ببالك أن يكون هذا الغين وسوسة أو ريباً وقع في قلبه ﷺ، بل أصل الغين في هذا ما يتغشى القلب ويغطيه، قاله أبو عبيد، وأصله من غين السماء، وهو إطباق الغيم عليها.

وقال غيره: والغين شيء يغشى القلب ولا يغطيه كل التغطية كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهواء فلا يمنع ضوء الشمس.

والمراد بهذا الغين إشارةٌ إلى غفلات قلبه، وفترات نفسه وسهوها عن مداومة الذكر ومشاهدة الحق بما كان ﷺ دفع إليه من مقاساة البشر وسياسة الأمة، ومعاناة الأهل، ومقاومة الولي والعدو ومصلحة النفس وما كلفه من أعباء أداء الرسالة وحمل الأمانة، وهو في كل هذا في طاعة ربه، وعبادة خالقه... ولكن لما كان ﷺ أرفع الخلق عند اللّه مكانة، وأعلاهم درجة، وأتمهم به معرفة، وكانت حاله عند خلوص قلبه وخلوّ همه وتفرّده بربه وإقباله بكليته، ومقامه هناك أرفع حاليه، رأى ﷺ حال فترته عنها وشغله بسواها غضاً من عُلى حاله، وخفضاً من رفيع مقامه، فاستغفر اللّه من ذلك، هذا أولى وجوه الحديث وأشهرها.

وإلى معنى ما أشرنا به مال كثير من الناس، وحام حوله وهو مبني على جواز الفترات والفضلات والسهو في غير طريق البلاغ.

وذهب طائفة من أرباب القلوب ومشيخة المتصوفة ممن قال بتنزيه النبي ﷺ عن هذا جملة وأجله أن يجوز عليه في حال سهو أو فترة إلى أن معنى الحديث ما يهم

خاطره ويكدّر فكره من أمر أمته ﷺ لاهتمامه بهم وكثرة شفقته عليهم فيستغفر لهم.

قالوا: وقد يكون الغين هنا على قلبه السكينة تتغشاه لقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٤٠] ويكون استغفاره ﷺ عندها إظهاراً للعبودية والافتقار.

قال ابن عطاء: استغفاره وفعله هذا، تعريف للأمة يحملهم على الاستغفار، قال غيره: ويستشعرون الحذر ولا يركنون إلى الأمن.

وقد يحتمل أن تكون هذه الإغانة حالة خشية وإعظام تغشى قلبه، فيستغفر حينئذٍ شكراً للّه وملازمة لعبوديته، كما قال في ملازمة العبادة أفلا أكون عبداً شكوراً.

وقد تقدم كلام الإمام أبي الحسن الشاذلي في هذا الحديث، وإنه رأى النبي ﷺ في النوم، وقال له: هو غين أنوار لا غين أغيار.

سهوه ﷺ وأنه لا ينافي كماله ﷺ

ومن ذلك حديث السهو: وهو أن النبي ﷺ صلى صلاة العصر فسلم في ركعتين، فقام ذو اليدين فقال: يا رسول اللّه أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «كل ذلك لم يكن».

وفي الرواية الأخرى: «ما قصرت الصلاة وما نسيت» الحديث بقصته، فظاهر هذا الحديث يفيد أنه ﷺ نفى الحالتين، وأنه لم يحصل قصر ولا نسيان، مع أنه قد حصل أحد ذلك، كما قال ذو اليدين «قد كان بعض ذلك يا رسول اللّه».

وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة، منها: أن النبي ﷺ أخبر عن اعتقاده وضميره، أما إنكار القصر فحق وصدق باطناً وظاهراً، وأما النسيان فأخبر ﷺ عن اعتقاده، وأنه لم ينسَ في ظنه، فكأنه قصد الخبر بهذا عن ظنه وإن لم ينطق به، وهذا صدق أيضاً.

والذي يظهر لي أن قوله ﷺ: «لم أنس» إنما هو إنكار اللفظ فقط، وأراد ﷺ أن يشير إلى أنه نسّي (بضم النون وتشديد السين) ولم ينس وشبيه بهذا إنكاره ﷺ على من يقول: نسيت آية كذا وكذا، بقوله في الحديث بئسما لأحدكم أن يقول نسيت «بفتح النون وكسر السين المخففة» ولكنه نسّي «بضم النون وتشديد السين المكسورة».. فلما قال له السائل: أقصرت الصلاة أم نسيت، أنكر قصرها كما كان، وأنكر نسيانه هو من قبل نفسه، وأنه إن كان جرى شيء من ذلك فقد نسي حتى سأل غيره، فتحقق أنه نسي وأجري عليه ذلك ليسنّ.

فقوله على هذا (لم أنس) (ولم أقصر) (وكل ذلك لم يكن) صدق وحق لم تقصر ولم ينس حقيقة، ولكنه نسّي.

ويؤيد هذا ما جاء في الحديث: «إني لأنسى أو أنسّى لأسنّ» رواه مالك في «الموطأ».

وفي رواية: «إني لا أنسى ولكن أُنَسّي».

وهذا لا يعارضه حديث: «إنما أنا بشرك مثلكم أنسى كما تنسون» رواه الشيخان، لأن هذا الحديث فيه إثبات النسيان، والحديث الذي قبله فيه نفي لفظ النسيان وكراهة لقبه، وليس فيه نفي حكم النسيان بالجملة فلا تعارض.

هذا ما يتعلق بقوله ﷺ: «ما قصرت ولا نسيت» وبقي بعد ذلك قضية نسبة النسيان إليه وحكمه.

الأحاديث المذكور فيها السهو منه

اعلم أن الأحاديث الصحيحة المذكور فيها السهو من النبي ﷺ ثلاثة:

أولها: حديث ذي اليدين في السلام من اثنتين.

الثاني: حديث ابن بجينة في القيام من اثنتين.

الثالث: حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ صلى الظهر خمساً، وهذا هو الثابت في «الصحيح».

وهذه الأحاديث مبنية على السهو في الفعل، وحكمة اللّه فيه ليستنّ به، إذ البلاغ بالفعل أجلى منه بالقول، وأرفع للاحتمال، وشرطه أنه لا يقرّ على السهو، بل يشعر به ليرتفع الالتباس، وتظهر فائدة الحكمة.

وإن النسيان والسهو في الفعل في حقه ﷺ غير مضاد للمعجزة ولا قادح في التصديق.

وهذا بناء على التفريق بين الأفعال البلاغية، وبين الأقوال البلاغية، فالسهو والنسيان قد يقع في الأفعال والأحكام منه ﷺ، وهو جائز عليه، كما ثبت من أحاديث السهو في الصلاة.

أما الأقوال البلاغية فلا يجوز وقوع النسيان والسهو فيه لقيام المعجزة على الصدق في القول، والنسيان يناقض ذلك، أما النسيان في الأفعال فغير ناقض لها ولا قادح في النبوة، بل غلطات الفعل من سمات البشر، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني» وحالة النسيان والسهو هنا في حقه ﷺ سبب إفادة علم، وتقرر شرع، كما قال ﷺ: «إني لأنسى أو أنسّى لأسنّ» بل قد روي: «لست أنسى ولكن أنسّى لأسنّ».

وهذه الحالة زيادة له في التبليغ، وتمام عليه في النعمة بعيدة عن سمات النقص، وأغراض الطعن.

أما ما ليس طريقه البلاغ، ولا بيان الأحكام من أفعاله ﷺ، وما يختص به من أمور دينية، وأذكار قلبية، مما لم يفعله ليتبع فيه فالأكثر من طبقات علماء الأمة

على جواز السهو والغلط عليه فيها، وذلك بما كلفه من مقاساة الخلق، وسياسات الأمة، ومعاناة الأهل، وملاحظة الأعداء ولكن ليس على سبيل التكرار ولا الاتصال، بل على سبيل الندور، وذهبت طائفة إلى منع السهو والنسيان والغفلات والفترات في حقه ﷺ جملة، وهو مذهب جماعة من العارفين من أهل القلوب والمقامات، رضي اللّه عنهم.

موقفه من أسرى بدر

ومما يستدل به من يقول بجواز الخطأ عليه ﷺ دون أن يقر عليه، قصة أسرى بدر.

وهي: كما في «المسند» عن أنس رضي اللّه عنه أنه قال: استشار النبي ﷺ الناس في الأسرى يوم بدر فقال: إن اللّه تعالى قد أمكنكم منهم... فقام عمر بن الخطاب فقال: يا رسول اللّه اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، ثم عاد رسول اللّه ﷺ فقال: يا أيها الناس إن اللّه قد أمكنكم منهم، وإنما هم أخوانكم بالأمس، فقام عمر فقال: يا رسول اللّه اضرب أعناقهم، فأعرض عنه النبي ﷺ، فقال للناس مثل ذلك، فقام أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه فقال: يا رسول اللّه نرى أن تعفو عنهم، وأن تقبل منهم الفداء، قال: فذهب عن وجه رسول اللّه ﷺ ما كان فيه من الغم، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء.

قال: وأنزل اللّه تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨]، ومن تأمل ما جاء في روايات هذه القصة يظهر له جلياً أنه ﷺ كان مصيباً فيما فعله، وذلك من وجوه متعددة.

الوجه الأول: أن النبي ﷺ عمل بذلك بمقتضى المشاورة التي أمره اللّه تعالى بها في قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الوجه الثاني: أنه ﷺ جنح إلى رأي من قال بالفداء وهويَه ـ أي أحبه ـ لما فيه من الرحمة والعطف واللين، بمقتضى المقام الذي أقامه تعالى فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

الوجه الثالث: أن فعله ﷺ كان موافقاً، لما سبق في الكتاب الأول الذي قضى اللّه تعالى فيه حل الغنائم له ﷺ خاصة، ولم تحل لأحد قبله، كما قال ابن عباس رضي اللّه عنهما في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ﴾ يعني في أم الكتاب الأول: إن المغانم والأسارى حلال لكم... ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الوجه الرابع: وكما أن قبوله ﷺ الفداء، وافق قضاء اللّه تعالى السابق في

الكتاب الأول، فإنه وافق أيضاً الشرع اللاحق النازل في الكتاب الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]، فكيف يقال في أمر وافق الكتاب الأول ووافق الشرع النازل بعد، كيف يقال: إنه خطأ؟

الوجه الخامس: أن نزول التشريع بإحلال الغنائم، وهو قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] هو إقرار لما فعله رسول اللّٰه ﷺ، وتصويب لما رآه، إذ لو كان فعله خطأ كيف يقره اللّٰه تعالى عليه، ويجعله شرعاً باقياً؟ حتى على قول من جوّز الخطأ عليه ﷺ دون أن يقره اللّٰه عليه، لا يقال: إنه ﷺ أخطأ في قضية أسرى بدر، لأن اللّٰه تعالى أقره على ذلك، فمن أين يأتي الخطأ؟.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»: وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم، إن شاء قتل، كما فعل ببني قريظة، وإن شاء فادى بمال، كما فعل بأسرى بدر، أو فادى بمن أسر من المسلمين، كما فعل رسول اللّٰه ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي سلمة بن الأكوع، حيث ردهما وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين، وإن شاء استرق من أسر، هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء، وفي المسألة خلاف بين الأئمة مقرر في موضعه من كتب الفقه، اهـ كلام ابن كثير.

الوجه السادس: لو كان موقفه ﷺ مع أسرى بدر خطأ لأمره اللّٰه تعالى أن يرد الفداء وأن يستغفر اللّٰه تعالى من الخطأ الذي وقع فيه، مع أنه سبحانه وتعالى أقره على ذلك وشرع له ذلك فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾، فلو كان خطأ لما أقره اللّٰه تعالى عليه، ولما شرع له ذلك.

الوجه السابع: كيف يحكم بأنه ﷺ أخطأ في أسرى بدر مع أنه ﷺ أمر أن يخير أصحابه في ذلك، ثم عمل بمقتضى ذلك. فقد روى الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم بإسناد صحيح عن علي كرّم اللّٰه وجهه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول اللّٰه ﷺ يوم بدر، فقال له: خيِّر أصحابك في الأسارى إن شاؤوا القتل وإن شاؤوا الفداء على أن يقتل منهم ـ أي الصحابة ـ في العام المقبل مثلهم، فقالوا: نختار الفداء، ويقتل منا؛ أي يقتل منهم سبعون رغبة في الشهادة في سبيل اللّٰه تعالى.

وعند ابن سعد من مرسل قتادة، قالوا: بل نفاديهم فنقوى بهم عليهم، ويدخل العام القابل منا الجنة سبعون ففادوهم.

قال الحافظ القسطلاني: وهذا دليل على أنهم لم يفعلوا إلا ما أذن لهم فيه.

أما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ

﴿ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ . . .﴾ الآية [الأنفال: ٦٧] ليس فيها معاتبة للنبي ﷺ أصلاً، وإنما فيها العتاب لمن أشار على النبي ﷺ بالفداء بغية عرض الدنيا وهو المال المفدى به حين استشار عامة الناس قبل أن يستشير خاصتهم: أبا بكر وعمر وعليّاً رضي اللّه عنهم كما تقدم.

فأراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الأنفال: ٦٧] أولئك النفر الذين أرادوا المال.

أما سيدنا رسول اللّه ﷺ فلم يقصد بقبول الفداء عرض الدنيا، وحاشاه من ذلك، فإن الدنيا كلها ما لها قيمة عنده وقد قال ﷺ: «مالي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»، وقد عرضت عليه جبال تهامة أن تكون له ذهباً فأبى، فأين هو من عرض الدنيا؟

كما أن قوله تعالى: ﴿لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ [الأنفال: ٦٨، ٦٩] فإن هذا إعلان منه سبحانه وتعالى بنعمته ومنته على هذه الأمة بفضل نبيها ﷺ وإعلام بأنه سبق منه القضاء في الكتاب الأسبق، بحل الغنائم لهذه الأمة دون غيرها فضلاً منه ونعمة بفضل نبيها وكرامته على اللّه تعالى.

ومن ثم كان ﷺ يشيد بهذه النعمة في جملة من المناقب التي خصه اللّه تعالى بها فيقول: «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الأحمر والأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تكن تحل لأحد قبلي».

توضيح إشكاله

أما ما جاء في الحديث من قول عمر رضي اللّه عنه: فلما كان من الغد جئت، فإذا رسول اللّه ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان قلت: يا رسول اللّه أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاءً بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول اللّه ﷺ: أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليَّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة «شجرة قريبة من نبيِّ اللّه ﷺ» وأنزل اللّه عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ـ إلى قوله ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ﴾ فأحل اللّه الغنيمة لهم.

أقول: الصواب إن هذا الذي عرض عليه ﷺ من عذابهم كان قبل نزول الآيات المقرِّرة «بكسر الراء الأولى المشددة» تصحيح عمله وتأييد موقفه وتثبيته فيما انشرح إليه صدره من رأي أبي بكر رضي اللّه عنه، وفائدة هذا العرض زيادة

المنّة من اللّه تعالى بتعظيم النعمة عليهم فيما أباحه لهم ما كان محرماً على من قبلهم، وذلك بيان ما يستحق هؤلاء الأسرى من الجزاء والعقاب لو جرى الأمر على ما كان مما هو مشروعٌ من قبل، فعذابهم هذا الذي رآه ﷺ هو الذي يستحقونه، لو لم يكن ما شرعه اللّه مما هدى إليه رسوله الصادق الأمين من قبوله الفداء وأخذ الغنائم، ثمَّ بعد إظهار ذلك لحضرة المصطفى ﷺ، بكى، لأنه ظن أن هذا هو حكم اللّه فيهم، وظن أنه أخطأ فيما جنح إليه ورآه، ثم أعلمه اللّه جلَّ شأنه بصحّة ذلك، وأنه هو الحق بما أنزل عليه من الآيات البينات التي صوَّبتْ[١] عمله، وأيّدت قوله وفعله، وجعلتْ ما ذهب إليه شريعةً متبعةً، وسمةً قائمةً، ونظاماً من أصول الأنظمة الحربية في شأن الأسرى إلى قيام الساعة.

وأما قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فالصواب أن الآية هذه إخبار من اللّه تعالى لنبيِّه محمد ﷺ عن حكم هذه القضية في الشرائع السابقة، وهي تقول له: يا محمد ما كان لنبيٍّ ممَّن سبقك من الأنبياء أن يكون له أسرى حتى يُكْثر[٢] القتل والقهر في العدوّ، هذا حكم من سبق، أما أنت فقد أبحنا ذلك، وأحللنا لك مزية ومنقبة وخصوصية، تتميز بها عنهم.

فالآية اشتملت على تقرير تمام النعمة على محمد ﷺ ببيان ما فضَّله به مولاه واختصه به اللّه، مما كان محرّماً على من سبقه. فتدبر، وليس فيها عتاب أو خصام فالحمد للّه على ذلك. هذا ما عندي ونسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الفهم في كتابه العزيز.

---

(١) بتشديد الواو.

(٢) يكثر بضم الياء وإسكان الكاف.

موقفه ﷺ في قضية تأبير النخل

ومما يستدل به من يقول بجواز الخطأ عليه ﷺ دون أن يقرَّ عليه، قضية تأبير النخل، وهي:

أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون النخل فقال: لو لم تفعلوا لصَلُحَ، قال: فخرج شيصاً فمر بهم ﷺ فقال: ما لنخلكم قالوا: قلت كذا وكذا، قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم»(١) فمن هذا الحديث فهم بعض الناس أن النبي ﷺ قد يخطئ في أمور الدنيا وراح يقول: أخطأ رسول اللّه ﷺ في كذا وأخطأ في كذا.

ولكن الحق أحق أن يتبع، وذلك أن أقواله ﷺ وأفعاله يفسر بعضها بعضاً، ويشبه بعضها بعضاً، وأن اللّه تعالى حفظه عن الخطأ كما حفظه من الخطيئة، فنقول وباللّه التوفيق:

أولاً: أنه ﷺ قد نشأ في تلك الأراضي المباركة التي هي منابتُ النخيل وتربّى بين قوم يعلمون فنون زرع النخيل، وما يتطلبه من عنايات ولقاحات، وكيف يتصور في حقه ﷺ أن تخفى عليه تلك العادة المطّردة في إنتاج النخيل ولزوم التلقيح له بموجب الأصول الزراعية؟ في حين أن ذلك ليس من خفايا معلومات الزراعة لشجر النخيل ولا من غوامضها، إذن لا بد وأنه يعلم ذلك كما يعلمون، ولكن أراد أن يظهر لهم أمراً لا يستطيعون نيله بأنفسهم.

ثانياً: أنّ الرسول الكريم ﷺ الذي نال من العلوم ما نال، وأفاض اللّه تعالى عليه ما أفاض، حتى أنه ذكر للصحابة وبحث لهم في كلِّ شيءٍ، كما روى الطبراني عن أبي ذرٍ رضي اللّه عنه قال: تركنا رسول اللّه ﷺ وما طائرٌ يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو ذكر لنا منه علماً. . . فكيف يتصور أنه يخفى عليه ﷺ أن النخيل لا يحتاج إلى تلقيحٍ بمقتضى العادة في علم الزراعة؟ ولكنَّ رسول اللّه ﷺ أراد أمراً آخر.

(١) رواه مسلم في الصحيح.

ثالثاً: أنّ الذي يدلنا على ذلك الأمر الذي أراده ﷺ هو النظر في أشباه هذه الواقعة الصادرة منه ﷺ ومن ذلك حديث: «ناولني الذراع».

ففي «المسند» عن أبي رافع القبطي مولى رسول اللّه ﷺ قال: صنع لرسول اللّه ﷺ شاة مصلية، فأتى بها، فقال: «يا أبا رافع ناولني الذراع» فناولته ثم قال: «ناولني الذراع» فناولته ثم قال: «ناولني الذراع» فقلت: يا رسول اللّه هل للشاة إلا ذراعان. فقال ﷺ: «لو سكتّ لناولتني منها ذراعاً ما دعوت به» قال: وكان رسول اللّه ﷺ يعجبه الذراع.

قال في «مجمع الزوائد»: رواه أحمد والطبراني من طرقٍ، وقال في بعضها: «أمرني رسول اللّه أن أُصلِيَ له شاة فصليتها» رواه في «الأوسط» باختصار، وأحد إسنادي أحمد حسن اهـ.

وعن أبي عبيدٍ أنه طبخ لرسول اللّه ﷺ قدراً فيها لحم فقال رسول اللّه ﷺ: «ناولني ذراعها» فناولته، فقال: «ناولني ذراعها» فناولته، فقال: «ناولني ذراعها» فقلت: يا نبي اللّه كم للشاة من ذراع؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «والذي نفسي بيده لو سكت لأعطيت ذراعاً ما دعوت به» وهذه القصة غير التي تقدمت كما نبّه عليه الحافظ الزرقاني وغيره.

وفي «مجمع الزوائد» عن ابن إسحاق قال: حدثني رجل من بني غفار في مجلس سالم بن عبد اللّه قال: حدثني فلانٌ أن رسول اللّه ﷺ أتي بطعام: خبز ولحم، فقال: «ناولني الذراع» فَنُووِلَ ذراعاً فأكله، ثم قال: «ناولني الذراع» فنووول ذراعاً فأكله، ثم قال: «ناولني الذراع» فقال: يا رسول اللّه إنما هما ذراعان، فقال: «وأبيك لو سكتّ ما زلت أُنَاوَلُ منها ذراعاً ما دعوت به» قال: ورواه أحمد وفيه راو لم يسم.

فقوله ﷺ: «ناولني الذراع» في المرة الثالثة ـ مع العلم أن الشاة لها ذراعان إنما أراد أن يظهر أمراً معجزاً فيه الإكرام، وفيه البرهان، وفيه الإشهاد بالعيان، ولكن لما لم يجد محلاً قابلاً لم تظهر تلك المعجزة ولذلك قال الحافظ الزرقاني عند قوله ﷺ: «أما إنك لو سكت لناولتني ذراعاً فذراعاً ما سكت» أي مدّةَ سكوتك، لأنه سبحانه يخلق ذراعاً فذراعاً معجزة له ﷺ، فحمَلَتِ المُناوِل عجَلَتُه المركَّبة في الإنسان على قوله: إنما للشاة ذراعان فأنقطع المدد، لأنه إنما كان من مددِ الكريم سبحانه، إكراماً لخلاصة خلقه ﷺ، فلو تلقاه المُناوِلُ بالأدب ساكتاً مصغياً إلى ذلك العجب لكان شكراً منه مقتضياً لتشريفه بإجراء هذا المدد على

يديه، ولكنه تلقاه بصورة الإنكار فرجع الكرم مولّياً، لما لم يجد قابلاً، إذ لا تليق مشاهدة هذه المعجزة العظيمة ـ التي في شهودِها نوعُ تشريفٍ للمطَّلع عليها ـ إلا لمن كمل تسليمُه ولم يبق فيه أدنى حظ ولا إرادة اهـ.

وهكذا في حادثة تأبير النخل، لما مر ﷺ بقوم يؤبرون النخل، أراد أن يكرمهم ويتحفهم وأن يظهر لهم معجزة خارقة للعادة المطَّردة في إصلاح النخيل بالتأبير، فيكرمهم خاصة بصلاحه دون تأبيرٍ، إذ هو ﷺ ممَّن يعلم بموجب العادة حاجة النخيل إلى تأبيرٍ كما يعلمون، لأنه ﷺ بينهم مطلع على أمورهم.

ولكن لمّا لم تقبل قلوب بعض أولئك النَفَرِ، ولم تستسلم كل الاستسلام إلى قوله ﷺ: «لو لم تفعلوا ـ أي التأبير ـ لصَلُحَ» بل وقفوا عند معلوماتهم الدنيوية المطردة من فنِّ زراعة النخيل، وإن صلاحه موقوف على التأبير، فلم يلق الكرم محلاً قابلاً فرجع.

ولذلك ردهم ﷺ بعد ذلك إلى الأسباب ـ المعتادة لديهم، المعلومة عندهم التي وقفوا عندها ولم يجاوزوها فقال لهم: «أنتم أعلمُ بأمور دنياكم» أي: فارجعوا إلى العمل بموجب علمكم بأمور دنياكم.

ويشهد لصحة ما قلناه، وصواب ما فهمناه من أنه ﷺ لم يخطئ في ذلك ـ قول الشيخ العارف بالله تعالى، صاحب الإبريز نفعنا الله تعالى بمعارفه، حين سئل عن حديث تأبير النخل؟ فقال رضي الله عنه: قوله ﷺ: «لو لم تفعلوا لصلح» كلام حق، وقول صدق، وقد خرج منه هذا الكلام على ما عنده من الجزم واليقين بأنه تعالى هو الفاعل بالإطلاق، وذلك الجزم مبنيٌّ على مشاهدة سريان فعله تعالى في سائر الممكنات، مباشرة بلا واسطةٍ ولا سببٍ، بحيث أنه لا تسكن ذرة ولا تتحرك شعرة، ولا يخفق قلب، ولا يضرب عرق، ولا تطرف عين، ولا يومئ حاجب، إلا وهو تعالى فاعله مباشرة من غير واسطة، وهذا أمر يشاهده النبي ﷺ كما يشاهد غيره من سائر المحسوسات ولا يغيب ذلك عن نظره في اليقظة ولا في المنام، لأنه ﷺ لا ينام قلبه الذي فيه هذه المشاهدة، ولا شك أن صاحب هذه المشاهدة تطيح الأسباب من نظره، ويترقى عن الإيمان بالغيب إلى الشهود والعيان، فعنده من قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] مشاهدةٌ دائمةٌ لا تغيب ويقين يناسب هذه المشاهدة، وهو أن يجزم بمعنى الآية جزماً لا يخطر معه بالبال نسبة الفعل إلى غيره تعالى، ولو كان هذا الخاطر قدر رأس النملة.

قال: ولا شك أن هذا الجزم الذي يكون على هذه الصفة تخرق به العوائد، وتنفعل به الأشياء، وهو سر اللّه تعالى الذي لا يبقى معه سبب ولا واسطة.

فصاحب هذا المقام إذا أشار إلى سقوط الأسباب، ونسبة الفعل إلى رب الأرباب كان قوله حقاً، وكلامه صدقاً.

قال: وأما صاحب الإيمان بالغيب فليس عنده في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مشاهدة، بل إنما يشاهد نسبة الأفعال إلى من ظهرت على يده، ولا يجذبه إلى معنى الآية ونسبة الفعل إليه تعالى إلا الإيمان الذي وهبه اللّه تعالى، فعنده جاذبان: أحدهما من ربه، وهو الإيمان الذي يجذبه إلى الحق، وثانيهما: من طبعه، وهو مشاهدة الفعل من الغير الذي يجذبه إلى الباطل.

فهو بين هذين الأمرين دائماً، لكن تارة يقوي الجاذب الإيماني فتجده يستحضر معنى الآية السابقة ساعة وساعتين، وتارة يقوي الجاذب الطبيعي فتجده يغفل عن معناها اليوم واليومين وفي أوقات الغفلة ينتفي اليقين الخارق للعادة.

فلهذا لم يقع ما أشار إليه النبي ﷺ لأن أولئك النفر من الصحابة رضي اللّه عنهم فاتهم اليقين الخارق وقتئذٍ، الذي اشتمل عليه باطنه ﷺ، وبحسبه خرج كلامه الحق، وقوله الصدق ﷺ.

ولما علم ﷺ العلة في عدم وقوع ما ذكره لهم، وعلم أن زوال تلك العلة ليس من طوقهم رضي اللّه عنهم وقتئذٍ أبقاهم على حالتهم وقال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» اهـ كلام الأبريز(١).

وعلى كل حال فإنه لا يقال: أخطأ ﷺ في قصة تأبير النخل، كما لا يقال: إنه ﷺ أخطأ في قوله لأبي عبيد «ناولني الذراع» في المرة الثالثة، فإن ذلك ليس من باب الخطأ بل من باب الصواب، وإرادة الإكرام، والإتحاف لأولئك النفر بأمرٍ فيه اليمن والبركة على وجه خارق للعادة، ولكن تخلف ذلك لوجود المانع والعارض.

ونظير هذا: انقطاع مدد الإكرام والبركة من ظرف السمن الذي بارك فيه النبي ﷺ لما عصرته أم مالك كما جاء في «صحيح مسلم» وغيره عن جابر رضي اللّه عنه: أن أم مالك الأنصارية كانت تهدي النبي ﷺ من عكة لها سمناً فيأتيها بنوها فيسألونها الأدم ـ وفي رواية ـ فيسألون السمن وليس عندهم شيء، فتعمد ـ أي تقصد ـ إلى الظرف الذي كانت تهدي فيه، فتجد فيه سمناً فما زال

(١) انظر الإبريز لسيدي عبد العزيز الدباغ والشمائل لشيخنا الشيخ عبد اللّه سراج الدين.

يقيم لها أدم بيتها حتى عصرته، أي عصرت الظرف فنفد السمن ـ فأتت النبي ﷺ ـ أي ذكرت له ذلك ـ فقال: عصرتيها؟ قالت: نعم، فقال: لو تركتيها ما زال ـ أي السمن ـ قائماً.

وروى مسلم عن جابر رضي اللّه عنه أن رجلاً من أهل البادية أتى النبي ﷺ يستطعمه فأطعمه شطر وسق من شعير، فما زال يأكل منه وامرأته وضيفهما ـ أي أضيافهما الذين ينزلون عندهما ـ حتى كاله ـ أي فنقص، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فقال له: لو لم تكله لأكلتم منه أي دائماً حتى يكفيكم ـ وأقام لكم ـ أي مدة الحياة من غير نقص، فالكيل العارض منع المدد الفائض.

وقد بين الإمام النووي حكمة ذلك كله حيث قال: قال العلماء: الحكمة في ذلك أن عصرها وكيله مضادة للتسليم والتوكل على رزق اللّه تعالى، ويتضمن التدبير والأخذ بالحول والقوة، وتكلف الإحاطة بأسرار حكم اللّه تعالى وفضله، فعوقب فاعله بزواله اهـ.

قال الحافظ الزرقاني: ولا يعارض هذا قوله ﷺ: «كيلوا طعامكم يبارك لكم فيه» لأنه فيمن يخشى الخيانة، أو كيلوا ما تخرجونه للنفقة لئلا يخرج أكثر من الحاجة أو أقل، أو كيلوا عند الشراء أو عند إدخاله المنزل اهـ.

سحره ﷺ لا ينافي كماله

ومن ذلك ما جاء في الأخبار الصحيحة أنه ﷺ سحر. فعن عائشة رضي اللّه عنها قالت: «سحر رسول اللّه ﷺ حتى أنه ليخيل إليه أنه فعل الشبي وما فعله». وفي رواية أخرى: «حتى كان يخيل إليه أنه كان يأتي النساء ولا يأتيهن»، الحديث.

وقد اختلف الناس في هذا الحديث اختلافاً كبيراً فمنهم من رده وطعن فيه، ومنهم من التبس عليه الأمر فقدح في العصمة النبوية.

والحق أن حديث سحره ﷺ صحيح متفق عليه وهو لا يقدح في عصمته ﷺ.

وقد نزّه اللّه الشرع والنبي عما يدخل في أمره لبْساً، وإنما السحر مرض من الأمراض وعارض من العلل يجوز عليه كأنواع الأمراض مما لا ينكر ولا يقدح في نبوته.

وأما ما ورد من أنه كان يخيل إليه أنه فعل الشيء ولا يفعله، فليس في هذا ما يدخل عليه داخلةً في شيء من تبليغه أو شريعته أو يقدح في صدقه لقيام الدليل والإجماع على عصمته من هذا، وإنما هذا فيما يجوز طُروُّه عليه في أمر دنياه التي لم يبعث بسببها، ولا فضل من أجلها وهو فيها عرضة للآفات كسائر البشر، فغير بعيدٍ أن يخيل إليه من أمورها ما لا حقيقة له ثم ينجلي عنه كما كان.

وأقرب دليل عندي في تأكيد حفظ قلبه وعقله من السحر هو انضباط أقواله في تلك الفترة وجريانها على نسقها الطبيعي بلا اختلال ولا تناقض ولا اضطراب ولا فساد، بل على الكمال والتمام والإنسجام التام، مع وجود أعدائه وترقبهم لأحواله، وحرصهم على حفظ أدنى كلمة أو حرف يستنقصون به حاله، ويشفون به غيظهم، ولو ظفروا بمثل ذلك لنفخوا فيها وطاروا بها ولكنه لم يثبت شيء من هذا وحفظ اللّه نبيه ﷺ ورد اللّه الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى اللّه المؤمنين القتال.

بل الأمر عندي على العكس، وهو أن سحره ﷺ وتأثر بعض ظاهره بذلك وسلامة قلبه وعقله واعتقاده وأقواله، أكبر دليل على كمال عصمة اللّه له، وأن نبوته محفوظة لا تتأثر بالعوارض البشرية مهما بلغت قوتها، وأنه بالرغم من تأثر بشريته بذلك إلا أن نبوته محفوظة مع أن النفس التي تحمل البشرية والنبوة واحدة وهي نفس محمد ﷺ.

مثال هذا: مثال سارق دخل إلى دار مملوءة بالدرر والجواهر وأنفس الذخائر، فاستطاع بحيلته أن يدخل إلى الدار، ولكنه لم يستطع أن يتناول شيئاً مما فيها من الكنوز بقوة قاهرة وسطوة ظاهرة، من غير حجاب ولا باب ولا حارس أو بواب، فخرج كما دخل خائباً خاسراً، فالسحر أثر على شيء من بشريَّته ﷺ، ولم يؤثر على قلبه أو عقله.

وفي هذا إشارة إلى أنه محفوظ بحفظ خاص، مرعي برعاية خاصة، ليس لأحد عليه سلطان، بل هو اللّه الواحد الديّان، عرش حقائق، ومحل دقائق، ومهبط أنوار، ومتنزل أسرار.

هل يلعن ﷺ أحداً؟

ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر، وإني قد اتخذت عندك عهداً لن تخلفنيه، فأيما مؤمن آذيته أو سببته أو جلدته فاجعلها له كفارة وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة».

وفي رواية: «فأيما أحد دعوت عليه دعوة».

وفي رواية: «ليس لها بأهل».

وفي رواية: «فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له زكاةً وصلاةً».

فقد يقول قائل: كيف يصح أن يلعن النبي ﷺ من لا يستحق اللعن، ويسبّ من لا يستحق السب، ويجلد من لا يستحق الجلد أو يفعل مثل ذلك عند الغضب وهو معصوم من هذا كله؟

فاعلم شرح اللّه صدرك أن قوله ﷺ أولاً: «ليس لها بأهل» أي عندك يا رب في باطن أمره فإن حكمه ﷺ على الظاهر، كما قال.

وللحكمة التي ذكرناها حكم ﷺ بجلده أو أدبه بسبه أو لعنه بما اقتضاه عنده حال ظاهره، ثم دعا له ﷺ لشفقته على أمته ورأفته، ورحمته للمؤمنين التي وصفه اللّه بها، وحذره أن يتقبل اللّه فيمن دعا عليه دعوته أن يجعل دعاءه وفعله له رحمة، وهو معنى قوله: «ليس لها بأهل» لا أنه ﷺ يحمله الغضب ويستفزه الضجر لأن يفعل مثل هذا بمن لا يستحقه من مسلم.

وهذا معنى صحيح، ولا يفهم من قوله: «أغضب كما يغضب البشر» أن الغضب حمله على ما لا يجب، بل يجوز أن يكون المراد بهذا أن الغضب لله حمله على معاقبته بلعنه أو سبّه وأنه مما كان يحتمل، ويجوز عفوه عنه أو كان مما خيّر بين المعاقبة فيه والعفو عنه.

وقد يحمل على أنه خرج مخرج الإشفاق وتعليم أمته الخوف والحذر من تعدي حدود اللّه.

وقد يحمل ما ورد من دعائه هنا، ومن دعواته على غير واحد في غير

موطن، على غير العزم والقصد، بل بما جرت به عادة العرب في محاوراتهم يدعون على مخاطبهم بنحو (قاتله اللّه) (وويل أمه) (ولا أب له) لمن قصد مدحه وتحسين فعله وهو مشهور في غير لسان العرب أيضاً.

وليس المراد بها الإجابة.

ومن ذلك قوله ﷺ: «ترتب يمينك» رواه الشيخان.

وقوله: «لا أشبع اللّه بطنك» قاله ﷺ لمعاوية رضي اللّه عنه فيما رواه مسلم عن ابن عباس، ولفظه: «كنت مع الصبيان فجاء رسول اللّه ﷺ فتواريت خلف الباب، فقال: اذهب فادع لي معاوية، قال: فجئته وقلت هو يأكل، فقال ثانياً: اذهب فادعه، فجئته وقلت هو يأكل، فأمرني، فجئته وقلت هو يأكل، فقال ﷺ: «لا أشبعَ اللّه بطنه»، وقوله: «عقرى حلقى» وقد قاله ﷺ لصفية بنت حييّ أم المؤمنين رضي اللّه عنها في حجة الوداع، وهو في البخاري بسنده عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: خرجنا مع رسول اللّه ﷺ للحج، فلما كانت ليلة النفر حاضت صفية فقال ﷺ: ما أراها إلا حابستكم إلخ.

وعقرى: دعاء عليها من العقر وهو عرقبة الدواب، والألف للتأنيث كسكرى، أو من العقرة، وهو رفع الصوت. وحلقى: دعاء عليها وهو وجع في حلقها.

وقد ورد في صفته في غير حديث: «أنه ﷺ لم يكن فحّاشاً» وقال أنس: «لم يكن سبّاباً ولا فاحشاً ولا لعّاناً» وكان يقول لأحدنا عند المعتبة «ما له تَرِبَ جبينه».

فيكون حمل الحديث على هذا المعنى ثم أشفق ﷺ من موافقة أمثالها إجابةً فعاهد ربه ـ كما قال في الحديث ـ أن يجعل ذلك للمقول له زكاة ورحمة وقربة.

وقد يكون ذلك إشفاقاً على المدعو عليه، وتأنيساً له لئلا يلحقه من استشعار الخوف والحذر من لعن النبي ﷺ، وتقبل دعائه ما يحمله على اليأس والقنوط.

وقد يكون ذلك سؤالاً منه لربه لمن جلده أو سبه على حق وبوجه صحيح أن يجعل ذلك كفارة لما أصابه وتمحية لما اجترم، وأن تكون عقوبته له في الدنيا سبب العفو والغفران، كما جاء في الحديث الآخر: «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة».

الحاصل

والحاصل أنه ينبغي للمسلم أن لا يسارع إلى القول بجواز وقوع الذنب منه ﷺ، لمجرد رؤيته لبعض النصوص التي فيها الإقرار منه ﷺ بالتوبة والاستغفار والرجوع إلى اللّٰه تعالى والخوف منه، فيقع في سوء الاعتقاد وفساد الرأي، وهو مرض خبيث «والعياذ باللّٰه».

وعليه أن يعلم أن درجة الأنبياء في الرفعة والعلو والمعرفة باللّٰه وسنته في عباده، وعظم سلطانه وقوة بطشه، مما يحملهم على الخوف منه جل وعلا والإشفاق من المؤاخذة بما لا يؤاخذ به غيرهم، وأنهم في تصرّفهم بأمور لم ينهوا عنها، ولا أمروا بها، ثم أوخذوا عليها، وعوتبوا بسببها، وحذروا من المؤاخذة، وأتوها على وجه التأويل أو السهو، أو تزيد من أمور الدنيا المباحة خائفون وجلون وهي ذنوب بالإضافة إلى منصبهم، ومعاص بالنسبة إلى كمال طاعتهم.

لا أنها كذنوب غيرهم ومعاصيهم، فإن الذنب مأخوذ من الشيء الدنيء الرذل.

ومنه «ذنب كل شيء» أي آخره، وأذناب الناس أرذالهم، فكأن هذه أدنى أفعالهم وأسوأ ما يجري من أحوالهم لتطهيرها وتنزيههم وعمارة بواطنهم وظواهرهم بالعمل الصالح، والكلم الطيب، والذكر الظاهر والخفي، والخشية للّٰه وإعظامه في السر والعلانية.

وغيرهم يتلوث من الكبائر والقبائح والفواحش بما تكون بالإضافة إليه هذه الهنات في حقه كالحسنات وقال بعضهم: «يؤاخذ الأنبياء بمثاقيل الذر» لمكانتهم عنده ويجاوز عن سائر الخلق لقلة مبالاته بهم في أضعاف ما أتوا به من سوء الأدب.

وهم يؤاخذون بذلك في الدنيا ليكون ذلك زيادة في درجاتهم، ويبتلون بذلك ليكون استشعارهم له سبباً لزيادة رتبتهم، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

وقال لداود: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ . . .﴾ [ص: ٢٥]، وقال بعد قول موسى:

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ . . .﴾ [الأعراف: ١١٤] وقال بعد ذكر فتنة سليمان وإنابته: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٣٦ ـ ٤٠].

وقال بعض المتكلمين: «زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كراماتٌ وقُرَب».

وأيضاً لينبّه غيرهم من البشر منهم، أو ممن ليس من درجته بمؤاخذتهم بذلك فيستشعروا الحذر ويعتقدوا المحاسبة ليلتزموا الشكر على النعم، ويعدوا الصبر على المحن بملاحظة ما وقع بأهل هذا النصاب الرفيع المعصوم فكيف بمن سواهم.

وقد وقع في نفسي فيما يتعلق بالآيات القرآنية، التي تتضمن العتاب والزجر والتهديد في خطابه ﷺ، أو يستفاد منها ما ينافي العصمة النبوية، أن هذا كله لا يحتاج إلى جواب ولا إشكال فيه، وذلك لأنه خطاب من اللّه إلى الأنبياء وهو مولاهم وسيدهم، يخاطبهم بما شاء وبالأسلوب الذي يريد، فيعاتبهم ويهددهم ويخطؤهم ويؤدبهم ويحذرهم. وهذا لا يبيح لغيرهم أن يخاطبهم بمثله أو أن يستفيد منه ما يبيح له نسبة مفهومه أو مدلوله لهم، فيستفيد مثلاً من العتاب جواز صدور المخالفة منهم، ويستفيد من قوله عفا اللّه عنك جواز صدور الخطأ، بل هذه جرأة ووقاحة وتطفل من هذا الدعي، لأن الأب قد يضرب ابنه أو يعاتبه أو يسبه ويشتمه، ولكنه لا يرضى من غيره أن يضربه، أو يفعل معه كما فعل محتجاً بأن أباه فعل معه كذلك، فهذا ما لا يرضاه الأب، واللّه سبحانه وتعالى يعامل أنبياءه بما يشاء، ويخاطبهم بما يشاء، ولكنه لا يرضى أن نعاملهم نحن بما عاملهم به، فليُنتَبه لهذه المسألة.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

[القلم : ٤]



كمال أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة

كمال رحمته ﷺ

رحمته ﷺ للعالم

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فهو ﷺ رسول الرحمة الذي أرسله اللّه تعالى رحمة لجميع العالمين، رحمة للمؤمنين ورحمة للكافرين ورحمة للمنافقين، ورحمة لجميع بني الإنسان الرجال والنساء والصبيان، ورحمة للطير والحيوان فهو رحمة عامة لجميع خلق اللّه تعالى. وأما الشفقة والرأفة والرحمة لجميع الخلق فقد قال تعالى فيه: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال بعضهم: من فضله ﷺ أن اللّه تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقد روي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً فأعطاه، ثم قال: أحسنت إليك، قال الأعرابي: لا ولا أجملت فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل ﷺ: إليه شيئاً ثم قال: أحسنت إليك قال: نعم فجزاك اللّه من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبي ﷺ: إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب ما في صدورهم عليك قال: نعم. فلما كان الغد أو العشي جاء فقال ﷺ: إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضي أكذلك قال: نعم فجزاك اللّه من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبي ﷺ: مثلي ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحبها خَلُّوا بيني وبين ناقتي فإن أرفق بها منكم وأعلم فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار، رواه أحمد.

وروي عنه أنه ﷺ قال: لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر، رواه أبو داود في الأدب.

ومن شفقته على أمته ﷺ تخفيفه وتسهيله عليهم وكراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم

بالسواك مع كل وضوء». وخبر صلاة الليل ونهيهم عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا تتعنَّت أمته، ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبي فيتجوز في صلاته[١].

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده فقال: أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وطهوراً وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة. ولما كذبه قومه أتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له: إن اللّه تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال وسلّم عليه وقال: مرني بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين قال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده ولا يشرك به شيئاً.

وروى ابن المنكدر أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ: إن اللّه تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك فقال: أؤخر عن أمتي لعل اللّه أن يتوب عليهم، فقالت عائشة رضي اللّه عنها: «ما خيّر رسول اللّه ﷺ بين أمرني إلا اختار أيسرهما». قال ابن مسعود رضي اللّه عنه: كان رسول اللّه ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

وعن عائشة أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة فجعلت تردده فقال رسول اللّه ﷺ: عليك بالرفق[٢].

ومن رحمته ﷺ العامة رحمته للمنافقين بالأمان من القتل والسبي نظراً لظاهر إسلامهم في الدنيا.

ومن رحمته ﷺ العامة رحمته للكافر برفع عذاب الاستئصال عنهم في الدنيا وذلك أن الأمم السابقة كانت إذا أرسل اللّه تعالى فيهم رسولاً فكذّبوه وكفروا به جاءهم العذاب فعمّهم، كما قص اللّه تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم كيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا يستهزؤون.

وأما كفّار هذه الأمة المحمدية فقد رفع اللّه عنهم العذاب العام الذي يستأصلهم كما استأصل وعمّ الكفار من الأمم السابقة وذلك تكرمة لهذا الرسول الكريم ﷺ الذي أرسله اللّه تعالى رحمة للعالمين.

---

(١) وكل هذا ثابت في الصحيح.
(٢) رواه مسلم في الصحيح.

رحمته ﷺ بالأهل والعيال

روى مسلم في «صحيحه» عن عمرو بن سعيد عن أنس رضي اللّه عنه قال: «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول اللّه ﷺ». قال: كان إبراهيم مسترضعاً له في عوالي المدينة فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وأنه ليدخن - أي يعلو منه الدخان - وكان ظئره قيناً، فيأخذه - أي فيأخذ النبي ﷺ ابنه إبراهيم المسترضع - فيقبله ثم يرجع. قال عمرو: فلما توفي إبراهيم قال رسول اللّه ﷺ: «إن إبراهيم ابني وإنه مات في الثدي - أي في سن رضاع الثدي - وإن له لظئرين - أي مرضعتين - تكملان رضاعه في الجنة» أي تتمان له رضاع سنتين، فإنه توفي وله ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً اهـ. من «شرح النووي» وفسّر القين في النهاية بأنه الحداد والصائغ.

ومن رحمته بأهله ﷺ: أنه كان يعاونهم في الأمور البيتية.

فقد جاء أن الأسود قال: سألت عائشة رضي اللّه عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في أهله؟ فقالت: كان في مهنة أهله، فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة، فما كان ﷺ من جبابرة الرجال، بل كثيراً ما كان يخدم نفسه بنفسه ﷺ. ففي مسند أحمد وغيره عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: كان النبي ﷺ يخيط ثوبه، ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.

رحمته ﷺ بالصبيان واليتيم والأرملة والمريض وغيرهم

روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي اللّه عنه أن النبي ﷺ قال: «إني لأدخل في الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه».

ومن رحمته ﷺ بالصبيان: أنه كان يمسح رؤوسهم ويقبلهم كما جاء في «الصحيحين» عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: قبل رسول اللّه ﷺ الحسن والحسين ابني علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً قط! فنظر إليه رسول اللّه ﷺ ثم قال: «من لا يَرحَمُ لا يُرحَم».

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: جاء أعرابي إلى رسول اللّه ﷺ فقال: إنكم تقبلون الصبيان وما نقبّلهم! فقال رسول اللّه ﷺ: أو أملك لك أن نزع اللّه الرحمة من قلبك؟! يعني إن من كان في قلبه رحمة للصبيان حملته على أن يقبلهم، ومن نزعت الرحمة من قلبه أمسك عن تقبيلهم.

وروى الشيخان والترمذي عن البراء رضي اللّه عنه قال: رأيت رسول اللّه ﷺ والحسن على عاتقه يقول ﷺ: «اللهم إني أحبه فأحبه».

وروى الترمذي عن أنس رضي اللّه عنه قال: سئل النبي ﷺ: أي أهل بيتك أحب إليك؟ قال: «الحسن والحسين» وكان يقول لفاطمة عليها السلام «أدعي لي ابني» ويضمّهما إليه رضي اللّه عنهما.

ومن رحمته بالصبيان وحبه لإدخال السرور عليهم: أنه ﷺ كان إذا أتى بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان، كما روى الطبراني عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن النبي ﷺ كان إذا أتى بباكورة الثمرة ـ أي أولها ـ وضعها على عينيه ثم على شفتيه وقال: «اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره» ثم يعطيه من يكون عنده من الصبيان، رواه ابن السني عن أبي هريرة وقال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الكبير والصغير ورجال الصغير رجال الصحيح اهـ.

ومن رحمته: دمع عينيه ﷺ لفراق ولده إبراهيم رضي اللّه عنه، فعن أنس رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رضي اللّه عنه وهو يجود بنفسه ـ أي من حالة الاحتضار ـ فجعلت عينا رسول اللّه ﷺ تذرفان ـ تدمعان ـ فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول اللّه! فقال: «يا ابن عوف إنها رحمة»، ثم أتبعها بأخرى فقال: «العين تدمع، والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون» رواه البخاري وروى بعضه مسلم.

وعن أسامة بن زيد رضي اللّه عنهما أن رسول اللّه ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو في الموت، ففاضت عينا رسول اللّه ﷺ فقال له سعد: ما هذا يا رسول اللّه! قال: «هذه رحمة جعلها اللّه تعالى في قلوب عباده وإنما يرحم اللّه من عباده الرحماء» متفق عليه.

ومن رحمته: أنه كان ﷺ لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي لهما الحاجة[١]. وكان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم[٢] وكان يحسن إلى اليتامى ويبرّهم ويوصي بكفالتهم والإحسان إليهم ويبين الفضائل المترتبة على ذلك قوله: «أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا» وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما[٣]، وإن خير بيت في المسلمين البيت الذي فيه يتيم يحسن إليه[٤].

ومن رحمته ﷺ: أنه كان إذا رأى أحد أصحابه في حالة شدة وبأس يحزن لأجل ذلك حزناً شديداً، ويرق قلبه ويبكي متأثراً من ذلك الموقف، فلقد زار سعد بن عبادة ومعه عبد الرحمن بن عوف وغيره فلما رآه بكى فبكى من معه[٥]، وقبل عثمان بن مظعون وهو ميت وهو ﷺ يبكي حتى قالت عائشة: فرأيت دموع النبي ﷺ تسيل على خد عثمان[٦]. وفي رواية: أنه قبّل بين عينيه ثم بكى طويلاً[٧].

(١) رواه النسائي.
(٢) رواه أبو يعلى والطبراني.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه ابن ماجه.
(٥) رواه الشيخان.
(٦) رواه الترمذي.
(٧) رواه ابن الجوزي.

رحمته ﷺ بالحيوان

كان ﷺ يوصي بالرحمة بالحيوان وينهى صاحبه أن يجيعه أو يدئبه ويتعبه بإدامة الحمل عليه أو إثقاله أو يحسه بما فيه نوع من التعذيب له.

وقد مر رسول اللّه ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه ـ أي ضمر من شدة الجوع ـ فقال ﷺ: «اتقوا اللّه في هذه البهائم فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»(١).

ودخل يوماً بستاناً لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل فلما رأى النبي ﷺ حن ـ الجمل ـ وذرفت عيناه، فأتاه رسول اللّه ﷺ فمسح ذفراه ـ موضع الأذنين من مؤخرة الرأس ـ فسكت الجمل، فقال ﷺ: «من رب ـ أي صاحب ـ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟» فجاء فتى من الأنصار فقال له ﷺ: «أفلا تتقي اللّه في هذه البهيمة التي ملكك اللّه إياها؟! فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه» أي تتعبه من كثرة العمل عليه واستعماله فوق طاقته(٢).

وكان ﷺ ينهى عن إرهاق الحيوان بإيقافه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورة إلى ذلك، وقد دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال: «اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً للّه منه»(٣).

ونهى رسول اللّه ﷺ عن قتل الضفدع وقال: «نقيقها تسبيح»(٤).

وقال ﷺ: «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»(٥).

ونهى عن التحريش بين البهائم وذلك بتسليط بعضها على بعض بالأذى وتهييجها بالإفساد(٦).

---

(١) رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه.
(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم في المستدرك.
(٣) رواه الإمام أحمد وأبو يعلى والطبراني.
(٤) رواه النسائي.
(٥) رواه البخاري وغيره.
(٦) رواه أبو داود والترمذي.

وكان رسول اللّه ﷺ يحذر من أن يفجع الإنسان الطيور بأولادها، ولما أخذ بعضهم فرخي حمرة وهي طائر صغير وجاءت منزعجة قال: «من فجع هذه بولديها؟ ردوا ولديها إليها» ورأى قرية نحل ـ أي مجتمع نحل ـ قد حرقها بعضهم فقال: «من حرق هذه؟ قالوا: نحن، قال: إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[١].

وكما ورد أنه ﷺ حذر من قتل الطير عبثاً لا لمنفعة أكل ونحوه بقوله: «من قتل عصفوراً عج إلى اللّه يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة»[٢].

وكما ورد أنه أوصى بالرفق في ذبح الحيوان والإحسان إليه في ذلك وقال لمن أضجع شاة وهو يحد شفرته «أتريد أن تميتها موتتين؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها!»[٣].

وكما أنه ﷺ: حذّر من اتخاذ الحيوان وكل ذي روح غرضاً، أي هدفاً للرمي[٤].

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه النسائي.
(٣) رواه الطبراني.
(٤) كما رواه الشيخان.

كمال حيائه ﷺ

الحياء خُلُقٌ يبعث على اجتناب القبح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ولذلك قال ﷺ: «استحيوا من اللّه حق الحياء» فقالوا: إنَّا لنستحي من اللّه والحمد للّه، قال: «ليس ذلك، ولكن الحياء من اللّه هو أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى» إلى تمام الحديث، وفيه بيان أن الحياء يحمل صاحبه على فعل الكمال، ويمنعه من النقصان، وقال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير». وقد كان رسول اللّه ﷺ أعظم الناس حياءً، لأنه أعظمهم إيماناً، وقد قال ﷺ: «الحياء من الإيمان» وفي «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال: «كان رسول اللّه ﷺ أشدَّ حياء من العذراء في خدرها».

وفي رواية البخاري: «وإذا كره شيئاً عرف في وجهه ﷺ» ومن المعلوم أن المرأة العذراء وهي البكر المستترة في خدرها أي في ناحية بيتها أو خيمتها تكون شديدة الحياء. فلقد كان رسول اللّه ﷺ أشد حياء منها، وقد بلغ من حيائه ﷺ أنه لم يواجه أحداً بما يكره، بل يعرض بذلك، أو يأمر بعض الصحابة أن يصارح بذلك الرجل المقصر.

روى أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس رضي اللّه عنه قال: «كان رسول اللّه ﷺ لا يواجه أحداً بوجهه بشيء يكرهه، فدخل عليه يوماً رجل وعليه أثر صفرة، فلما قام قال لأصحابه: «ولو أمرتم هذا أن يغسل هذه الصفرة».

وروى أبو داود عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: «كان رسول اللّه ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون كذا وكذا».

ومن ذلك حياؤه ﷺ من القوم الذين أطالوا الجلوس عنده بعد الأكل، فاستحيا أن يقول لهم انصرفوا حتى نزلت الآية في ذلك، كما في «صحيح البخاري» عن أنس رضي اللّه عنه أنه قال: «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عروساً بزينب فقالت لي أم سليم: لو أهدينا إلى رسول اللّه ﷺ هدية، قال

أنس فقلت لها افعلي، فعمدت إلى تمر وسمن واقط فاتخذت حيسة في برمة فأرسلت بها معي، فانطلقت بها إليه فقال: «ضعها» ثم أمرني فقال لي: «ادع رجالاً سماهم وادع لي من لقيت» ففعلت الذي أمرني، فرجعت فإذا البيت غاص بأهله، ورأيت رسول اللّه ﷺ وضع يده في تلك الحيسة، وتكلم ما شاء اللّهِ، ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه يقول لهم: «اذكروا اسم اللّهِ، وليأكل كل رجل مما يليه» حتى تصدعوا كلهم.

وفي رواية مسلم وكان النبي ﷺ شديد الحياء أي استحيا أن يقول لهم انصرفوا ثم خرج النبي ﷺ نحو الحجرات، وخرجت من إثره، فقلت: إنهم قد ذهبوا فرجع النبي ﷺ فدخل البيت وأرخى الستر وإني لفي الحجرة وهو يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والمراد أنه ﷺ يستحي حياء كرم أن يقول لهم انصرفوا وهم جلوس عنده واللّه لا يسْتحيي من بيان الحق الواجب اتباعه، وهذا لا ينافي أنه سبحانه متصف بحياء الكرم اللائق بمقام ربوبيته تعالى.

كما قال ﷺ: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذ يرفع يديه إليه أن يردهما صفراً» أي خاليتين ـ رواه الترمذي وغيره.

فباعتبار أن إطالة الجلوس كانت عنده ﷺ في بيته استحياء منهم أن يصارحهم في الأمر كرماً منه ولكن الموقف يتطلب بيان الحق في ذلك لا محالة فجاء القرآن بالبيان من الملك الديان جل وعلا.

ومن حيائه ﷺ أنه كان إذا أراد الحاجة أبعد ـ أي قصد مكاناً بعيداً منعزلاً ـ رواه ابن ماجه عن بلال بن حرث، ورمز في «الجامع الصغير» لصحته.

ومن حيائه ﷺ أيضاً أنه كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض. رواه الترمذي وأبو داود.

ومن حيائه ﷺ أنه كان إذا أراد أن يدخل المرفق «الكنيف» لبس حذاءه وغطى رأسه. رواه ابن سعد.

ومن حيائه ﷺ ما رواه الإمام الترمذي في الشمائل عن عائشة أنها قالت: ما نظرت إلى فرج رسول اللّه ﷺ، أو قالت ما رأيت فرج رسول اللّه ﷺ، وذلك لشدة حيائه وكمال وقاره وتستره كل التستر، وفي «شرح الشمائل» للشيخ القاري

والشيخ محمد بن قاسم جسوس روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «ما أتى رسول الله ﷺ أحداً من نسائه إلا مقنعاً يرخي الثوب على رأسه وما رأيت منه ولا رأى مني»[١].

وأخرج البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يغتسل من وراء الحجرات وما رأى أحد عورته قط»، قال القاري في «شرح الشمائل» إسناده حسن.

(١) قال شيخنا عبد الله سراج الدين أورده ابن الجوزي في الوفا.

كمال جوده

الكرم والجود والسخاء هو الإنفاق عن رضا فيما يعظم نفعه وخطره أو بذل المال في سبيل من سبل الخير والبر.

وقد كان الكرم من سجايا النبي عليه الصلاة والسلام فطرة وتربية إلٓهية وتوجيهاً من القرآن فكان يحض على الكرم ويشجع ويقول: «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار»(١) ويقول: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما، اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»(٢) ويقول: «إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم»(٣).

ولم يكن جوده لكسب محمدة أو اتقاء منقصة، ولم يكن للمباهاة أو الاستغلال أو لاجتذاب المادحين، بل كان في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله.

كان في حماية الدين، وفي مؤازرة الدعوة، وفي محاربة الذين يصدون عن سبيل الله.

وكان في الإنفاق على الفقراء من المسلمين، الذين فقدوا أموالهم في سبيل الله أو عجزوا عن الكسب.

وكان في رعاية اليتامى والأيامى، وكان في تحرير الأرقاء الذين كاتبوا ملاّكهم على مال، وكان في اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ليتقوى باجتذابهم الإسلام.

وكان كرم النبي ﷺ إيثاراً على نفسه وأهله، فهو يعطي أحوج ما يكون إلى ما يعطيه، ويبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل.

وكان ينفق في سبيل الله ما استطاع أن ينفق وهو يستقل ما أنفق، وكان يعطي

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه أبو داود والحاكم.

العطاء الجزل فلا يستكثر ما أعطى، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه، وما سئل شيئاً قط فقال لا.

وبلغ به الكرم أنه كان يستحي أن يرد سائله خالي اليدين معتذراً بالفاقة. جاءه رجل فسأله فقال: ما عندي شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيته[1] فقال عمر: يا رسول اللّه قد أعطيته فما كلفك اللّه ما لا تقدر عليه، فكره ﷺ قول عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول اللّه أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسم رسول اللّه ﷺ وعرف في وجهه البشر بقول الأنصاري، ثم قال ﷺ: «بهذا أمرت»، [رواه الترمذي].

وروى مسلم عن أنس رضي اللّه عنه قال: ما سئل رسول اللّه ﷺ شيئاً إلا أعطاه فجاء رجل ـ وهو صفوان بن أمية ـ فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه فقال: يا قومي أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وفي رواية من لا يخشى الفقر، وأعطى يوم حنين ﷺ أناساً من الطلقاء يتألف قلوبهم على الإسلام إذ أعطاهم مائة مائة من الإبل وكان من جملة من أعطى مالك بن عوف فامتدحه بقصيدة.

وروى الترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال: «لقد أعطاني رسول اللّه ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليّ».

وفي مغازي الواقدي أن صفوان طاف معه ﷺ يتصفح الغنائم يوم حنين إذ مر بشعب مملوء إبلاً وغنماً فأعجبه فجعل ينظر إليه فقال ﷺ: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب؟ قال: نعم، فقال: هو لك بما فيه، فقال صفوان: أشهد أنك رسول اللّه ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نفس نبي».

روى الترمذي أن النبي ﷺ حُمل إليه تسعون ألف درهم ووضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وعن أبي سعيد رضي اللّه عنه قال: «سأل ناس من الأنصار رسول اللّه ﷺ فأعطاهم ما سألوه، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه، حتى إذا نفد ما عنده قال: ما يكون عندي فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه اللّه ومن يستغن يغنه اللّه، ومن يتصبر يصبره اللّه، وما أعطى أحدٌ عطاءً هو خير له وأوسع من الصبر» [رواه الستة].

---

(١) يعني اشتر على حسابي بالدين.

روى ابن ماجه عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: ما رأيت رسول اللّه ﷺ يكل صدقته إلى غير نفسه حتى يكون هو الذي يضعها في يد السائل.

وروى ابن سعد عن زياد مولى عياش عن أبي ربيعة قال: خصلتان كان لا يكلهما رسول اللّه ﷺ لأحد: الوضوء من الليل حين يقوم، والسائل يقوم ﷺ فيعطيه بنفسه.

وفي «سنن أبي داود والبيهقي» عن عبد اللّه الهوزني قال: لقيت بلالاً فقلت يا بلال: حدثني كيف كانت نفقة رسول اللّه ﷺ؟ قال: ما كان له شيء وكنت أنا الذي ألي ذلك منه ـ أي أنا المتولي أمر ماله ﷺ ـ منذ بعثه اللّه تعالى حتى توفي، وكان عليه السلام إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً يأمرني فأنطلق أستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه. وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: كان رسول اللّه ﷺ أجود الناس وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول اللّه ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة.

كمال وفائه ﷺ

الوفاء خلق رفيع لا يتخلق به إلا من حسنت سيرته وصلحت سريرته وقد دعا إليه وحض عليه ﷺ.

ولعل من أروع مظاهر الوفاء بالعهد ما حدث في صلح الحديبية، فقد صالح النبي ﷺ المشركين يوم الحديبية على أشياء منها: أن من أتاه من المشركين رده إليهم، وفاء بالعهد الذي لم يتم توقيعه، وجعل أبو جندل يصرح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول اللّه ﷺ: «يا أبا جندل إصبر واحتسب، فإن اللّه جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً»[(١)].

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم فأرسلوا في طلبه رجلين فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا حتى بلغا ذات الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: واللّه إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً فاستله الآخر، فقال: أجل واللّه إنه لجيد لقد جربت ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول اللّه ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذعراً، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل واللّه صاحبي وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي اللّه قد واللّه أوفى اللّه ذمتك قد رددتني إليهم ثم أنجاني منهم، قال النبي ﷺ: ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم فخرج حتى أتى سيف البحر، ثم انفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير حتى اجتمعت منهم عصابة، فواللّه ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام، إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي تناشده اللّه والرحم لما أرسل إليهم فمن أتاه فهو آمن فأرسل إليهم[(٢)].

---

(١) انظر البخاري باب الصلح وسيرة ابن هشام.

(٢) رواه أبو داود.

لقد حافظ النبي ﷺ على عهده ووفى بشرطه وظهر فضل النبي ﷺ وبعد نظره.

عن عبد اللّه بن أبي الحمساء قال: بايعت النبي ﷺ ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها في مكانه فنسيت، ثم ذكرت بعد ثلاث فجئت فإذا هو في مكانه فقال: يا فتى لقد شققت عليَّ أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك[١].

وجاءت عجوز إلى النبي ﷺ فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا جثامة المزينة، قال: بل أنت حسانة المزينة، كيف كنتم بعدنا؟ قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، فلما خرجت قلت يا رسول اللّه تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان[٢].

وكان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها نصف ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول اللّه ﷺ فأجلسه بين يديه[٣]. ولا يخفى موقفه من هوازن وفيهم عماته وخالاته من الرضاعة وحواضنه، وقد قال له أحدهم: لو أنا أرضعنا للنعمان بن المنذر رجونا عطفه وأنت خير المكفولين فمنَّ عليهم وجبر خاطرهم[٤]. وهو أكبر شاهد على وفائه ومروءته.

ولقد عرف النبي ما يجب للوالدين من بر وتكريم وإيثار مهتدياً بما أمر به القرآن الكريم وبما توحي به المشاعر الطاهرة والخلق الكريم والوفاء بالجميل.

قالت أسماء بنت أبي بكر: قدمت عليّ أمي وهي مشركة حينما عاهد رسول اللّه قريشاً ـ عهد الحديبية ـ وكان أبو بكر قد طلقها في الجاهلية ومعها هدية لي، فبعثت إلى رسول اللّه أستفتيه، فقلت: إن أمي قدمت عليّ وهي راغبة أفأدخلها بيتي؟ فأرسل إليّ يقول: نعم أدخلي أمك وصليها[٥].

وجاء رجل إلى النبي يستأذن في الجهاد فسأله رسول اللّه أحي والداك؟ قال: نعم، قال: فارجع فاستأذنهما، فإن أذنا لك فجاهد وإلا فبرهما[٦]، وأمر بأن يود الابن من كان أبوه صديقاً له، لأن هذا ضرب من الوفاء للأب.

(١) رواه ابن الجوزي في الوفا.
(٢) انظر في الاستيعاب.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) انظر سيرة ابن هشام.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه البخاري.

وجاء رجل إلى النبي فقال يا رسول اللّه: إن لي مالاً وولداً وإن أبي يحتاج مالي، فقال: «أنت ومالك لأبيك إن أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم»[(١)].

ومن وفائه ﷺ وفاؤه لزوجته خديجة التي كان يذكرها بالتقدير على مسمع من السيدة عائشة فتغار منها حتى لقد قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزاً أبدلك اللّه خيراً منها؟ فغضب وقال: «لا واللّه ما أبدلني اللّه خيراً منها؛ آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني اللّه منها الولد دون غيرها من النساء»[(٢)].

وكان إذا أُتي بهدية قال: اذهبوا بها إلى بيت فلانة فإنها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة. وكان يذبح الشاة فيهديها إلى خلائل خديجة، واستأذنت عليه أخت خديجة فارتاح إليها، ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن كرم العهد من الدين. ومن وفائه ﷺ أنه قدمت حليمة السعدية عليه بعد زواجه من السيدة خديجة فاستعانت به على أعباء الدهر فكلم السيدة خديجة فمنحتها بعيراً وأربعين شاة، ثم وفدت عليه بعد غزوة حنين فلما رآها قال: مرحباً بأمي وبسط لها رداءه وأجلسها عليه.

وكانت له مرضعة أخرى اسمها ثُوَيْبَة كانت أرضعته أياماً قبل أن يصير إلى حليمة فلما كبر وعلم ذلك حفظ لها جميلها، فجعل النبي يواليها بمعروفه مدة إقامته بمكة، ولما هاجر إلى المدينة لم يغفل عن صلتها وكسوتها. ولما جيء بأخته من الرضاع ـ الشيماء ـ في سبايا هوازن وتعرفت له بسط لها رداءه وقال: «إن أحببت أقمت عندي مكرمة محببة». وها هو ذا يأمر بالوفاء للحيوان لقاء ما عمل وخدم، فقد أقبلت ليلى امرأة أبي ذر على ناقة من إبل رسول اللّه بعد غزوة ذي قرد فقالت يا رسول اللّه: إني قد نذرت للّه أن أنحرها إن نجّاني اللّه عليها فآكل من كبدها وسنامها، فتبسم رسول اللّه ﷺ ثم قال: «بئس ما جزيتها إن حملك اللّه عليها ونجاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نذر في معصية اللّه ولا فيما لا تمليكن، إنما هي ناقة من إبلي فارجعي إلى أهلك على بركة اللّه».

---

(١) رواه ابن ماجه والطبراني.

(٢) أصل الحديث في الصحيحين وله روايات كثيرة وهو في مناقبها.

كمال صبره ﷺ

قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

كان صبره ﷺ في سبيل الله تعالى يفوق صبر الصابرين، وتحمله لأنواع أذى المعاندين له يعلو تحمل العالمين، فكم لقي من سفهاء قريش وأشدائهم من الغلظة والسفاهة والجفاء والشدة؟!.

ولا ريب أن الكَلَام البذيء المسيئ، لهو كلَام في أصحاب النفوس الأبية والأخلاق الرضية، ويتأثرون به أضعاف ما يتأثر به غيرهم، وإن الأفعال المؤذية لتعمل في نفوسهم أضعاف ما تعمل في غيرهم ممن لا خلاق له ولا خلق، فما ظنك بنفسية سيدنا رسول الله ﷺ التي هي مجمع الكمال والأفضال ومصدرها؟ ومع ذلك كان يتقبل ذلك بصدر رحب.

وما ظنك بتأثره من الكلام المؤذي، والفعل المسيء إليه؟ روى الإمام أحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد أُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذي أحد، ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال».

وكان المشركون يتصدون له بالعداوة ويقابلونه بأنواع الأذى بجموعهم وجماهيرهم وبأفرادهم ونسائهم وصبيانهم، روى الإمام الطبراني عن الحارث قال: قلت لأبي: ما هذه الجماعة؟ قال: هؤلاء القوم الذين اجتمعوا على صابئ لهم، قال: فنزلنا فإذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى توحيد الله عز وجل والإيمان، وهم يردون عليه ويؤذونه حتى انتصف النهار وانصدع الناس عنه، فأقبلت امرأة قد بدا ـ أي ظهر ـ نحرها ـ أي صدرها ـ وهي تحمل قدحاً ومنديلاً، فتناوله ﷺ منها فشرب وتوضأ ثم رفع رأسه فقال: «يا بنية خمري عليك ـ أي غطي ـ نحرك ولا تخافي على أبيك، قلنا: من هذه؟ قالوا: هذه زينب بنته رضي الله عنها».

وعن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو قال: قلت له ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله ﷺ فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط،

سفَّه أحلامنا وشتم آباءنا وعاب ديننا وفرق جماعتنا وسب آلهتنا! لقد صبرنا منه على أمر عظيم.

فبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول اللّه ﷺ، فوثبوا وثبة رجل واحد فأطافوا به يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا؟ لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، قال: فيقول رسول اللّه ﷺ: نعم أنا الذي أقول ذلك، قال: فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ﷺ وقام أبو بكر دونه يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي اللّه؟ ثم انصرفوا عنه، قال: فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً بلغت منه قط. وروى الشيخان عن ابن مسعود رضي اللّه عنه قال: بينا رسول اللّه ﷺ يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور ـ أي بعير ـ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا ـ أي كرش ـ جزور ابن فلان فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبي معيط فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه على كتفه فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض.

قال ابن مسعود: وأنا قائم أنظر لو كانت لي منعة ـ أي قوة ـ أو جماعة طرحته عن ظهره ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي اللّه عنها فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه ﷺ ثم أقبلت عليهم تشتمهم، ولما مات عمه ﷺ أبو طالب اشتد إيذاء المشركين للنبي ﷺ وقابلوه بأنواع العداوة والشدائد، فتوجه ﷺ إلى الطائف لعل ثقيفاً يكونون له ردءاً وعوناً وأنصاراً على قومه في مكة، فإذا بهم يقابلونه أسوأ مقابلة ويردون عليه أقبح رد، وإنما قصدهم ـ كما قال المقريزي ـ لأنهم كانوا أخواله ولم يكن بينه وبينهم عداوة.

روى الشيخان عن السيدة عائشة رضي اللّه عنها قالت: قلت يا رسول اللّه: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل عليه السلام، فناداني فقال: إن اللّه تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوه عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن اللّه تعالى قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال قد بعثني إليك لتأمرني بأمرك، زاد الطبراني فما شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال ﷺ: «بل أرجوه أن يخرج من أصلابهم من يعبد اللّه ولا يشرك به شيئاً». وروى أبو نعيم في الدلائل عن عروة بن الزبير رضي اللّه عنهما قال: ومات أبو

طالب وازداد من البلاء على رسول اللّٰه ﷺ شدة فعمد إلى ثقيف يرجو أن يؤووه وينصروه فوجد ثلاثة نفر منهم سادة ثقيف وهم إخوة، عبد ياليل بن عمرو وخبيب بن عمرو ومسعود بن عمرو، فعرض عليهم نفسه ﷺ وشكا إليهم البلاء وما انتهك قومه منه فقال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان اللّٰه بعثك بشيء قط، وقال الآخر: واللّٰه لا أكلمك بعد مجلسك هذا كلمة واحدة أبداً لئن كنت رسولاً لأنت أعظم شرفاً وحقاً من أن أكلمك. وقال الآخر: أيعجز اللّٰهِ أن يرسل غيرك؟ وأفشوا ذلك في ثقيف ـ الذي قال لهم، واجتمعوا يستهزؤون برسول اللّٰه ﷺ وقعدوا له على صفين على طريقه، فأخذوا بأيديهم الحجارة فجعل لا يرفع رجله ولا يضعها إلا رضخوها بالحجارة، وهم في ذلك يستهزؤون ويسخرون، فلما خلص من صفيهم وقدماه تسيلان الدماء عمد ﷺ إلى حائط من كرومهم فأتى ظل حبلة من الكرم فجلس في أصلها مكروباً موجعاً تسيل قدماه الدماء.

وذكر ابن إسحاق ـ ورواه الطبراني أيضاً ـ عن عبد اللّٰه بن جعفر رضي اللّٰه عنهما: لما توفي أبو طالب خرج النبي ﷺ ماشياً إلى الطائف فدعاهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأتى ظل شجرة ـ أي من عنب ـ فصلى ركعتين ثم قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس يا أرحم الراحمين أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن غضباناً ـ وفي رواية: إن لم تكن ساخطاً ـ وفي رواية: إن لم يكن بك سخط ـ وفي رواية: إن لم يكن بك غضب علي ـ فلا أبالي غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض وأشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك ـ وفي رواية أن يحل علي غضبك أو ينزل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

كمال زهده ﷺ

كان ﷺ أزهد الناس، ويكفيك في تعريف ذلك أن فقره كان فقر اختيار لا فقر اضطرار، لأنه ﷺ فتحت عليه الفتوح، وجلبت إليه الأموال، وهو معرض عن الدنيا كل الإعراض، ينام على الحصير حتى يرى أثره في جنبه الشريف فإذا قيل له ألا نبسط تحتك ألين منه يقول: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا مثل راكب سار في يوم صائف فقال تحت شجرة ثم راح وتركها»(١).

وقد عرض اللّه عليه بطحاء مكة ذهباً فقال: لا يا رب، ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك.

وكان ﷺ يقنع باليسير من الدنيا ويقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»(٢).

تقول السيدة عائشة: ما رفع رسول اللّه ﷺ قط عشاء الغداء ولا غداء العشاء ـ ولا اتخذ من شيء زوجين ولا قميصين ولا رداءين ولا إزارين ولا من النعال.

وكان ﷺ لا يدخر شيئاً لنفسه، وما جاء أنه ادخر فهو إنما كان لأهله، وما شبع ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا (أحمد ومسلم).

وما أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه اللّه إلى أن قبض.

وكان يمر به الشهر والشهران وما يوقد في بيته نار، إنما هو التمر والماء وجاءته فاطمة بكسرة خبز، فقال: ما هذه الكسرة يا فاطمة؟ قالت: قرص خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة، فقال: «أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام».

وقد قبض ﷺ ودرعه مرهونة عند رجل يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها رزقاً لعياله.

يقول جابر: مكث رسول اللّه ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ثلاثاً لم

---

(١) قال أي استراح وقت الظهيرة من القيلولة.
(٢) أخرجه الشيخان.

يذوقوا طعاماً، قالوا يا رسول اللّه: إن ههنا كدية من الجبل، فقال رسول اللّه ﷺ: «رشوها بالماء» وفي الحديث قال جابر: فحانت مني التفاتة فإذا رسول اللّه ﷺ قد شد على بطنه حجراً[١].

وتقول السيدة عائشة: خرج رسول اللّه ﷺ ولم يملأ بطنه في يوم من طعامين. كان إذا شبع من التمر، لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير، لم يشبع من التمر[٢].

ويقول عتبة بن غزوان: لقد رأيتني وإني لسابع سبعة مع رسول اللّه ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا[٣].

وتقول السيدة عائشة: لقد مات رسول اللّه ﷺ وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين[٤].

ويقول أنس: ما أعلم أن رسول اللّه ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى لحق باللّه عز وجل، ولا رأى شاة سميطاً بعينه حتى لحق باللّه عز وجل[٥]، والرغيف المرقق الملين، والسميط: هو الذي أزيل شعره بالماء السخن وشوي بجلده.

---

(١) أخرجه الشيخان والكدية صخرة كبيرة.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات.

(٣) السمر هو شجر عظيم له شوك والحديث رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري.

كمال عفوه ﷺ

العفو عند المقدرة، مرآة تتجلى فيها أحسن صور النفس وسمو المقصد، وقد أدب القرآن الكريم النبي ﷺ بهذا الخلق الكريم من قوله سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] فتحقق ﷺ بهذا الخلق في أقواله وأفعاله ودعا إليه وحث عليه بقوله. ولا يخفى معاملته لأهل مكة والطائف ورؤساء الفتنة وزعماء الشر لما دخل مكة المكرمة فاتحاً مظفراً منصوراً، فشمل عفوه البلاد والسادة والزعماء الذين عتوا في الأرض وأسرفوا في إيذائه واضطهاده.

دخل رسول اللّه ﷺ مكة ولكن عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو ومن جمعوا من الناس أبوا إلا قتالاً، فهزموا وفروا ثم استأمنوا فأمنوا بل عُفي عنهم، بل أعطوا من غنائم هوازن تأليفاً لقلوبهم.

وهذا صفوان بن أمية العدو ابن العدو يفر إلى جدة ليبحر إلى اليمن، فيأتي عمير بن وهب لرسول اللّه فيقول: يا نبي اللّه إن صفوان بن أمية سيد قومه قد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر فأمنه قال: هو آمن، قال يا رسول اللّه: فأعطني آية يعرف بها أمنك، فأعطاه الرسول عمامته التي دخل فيها مكة، فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر، فقال يا صفوان: فداك أبي وأمي! اللّه اللّه في نفسك أن تهلكها! فهذا أمان رسول اللّه قد جئتك به، قال: إني أخافه على نفسي، قال: هو أحلم من ذاك وأكرم فرجع معه حتى قدم به على رسول اللّه ﷺ، فقال صفوان: إن هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال: صدق، قال: فاجعلني فيه بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر.

وهذا رجل آخر جاءه قبيل الفتح، وكان عاقاً مسرفاً في هجوه وإيذائه للرسول وهو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وطلب الإذن عليه، فقال: لا حاجة لي به وقد هتك عرضي! وكان مع أبي سفيان بني له، فقال: واللّه ليأذنن لي أو لأخذن بيد بني هذا لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً، فلما بلغ ذلك رسول اللّه ﷺ رق له فدخل عليه وعفا عنه فقال:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأهتدي

وفي مكة وهو طائف بالبيت أراد فضالة بن عمير أن يقتله فلما دنا منه قال: أفضالة؟ قال نعم فضالة يا رسول اللّه، قال: ما كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر اللّه عز وجل، فضحك النبي ﷺ ثم قال: أستغفر اللّه! ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: واللّه ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق اللّه شيء أحب إلي منه. ولما اطمأن الناس بعد الفتح قام رسول اللّه ﷺ على باب الكعبة فقال: لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، يا معشر قريش، إن اللّه قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ثم قال: يا معشر قريش: ما تظنون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وها هي ذي ثقيف كلها بين يديه ووفدها في المدينة وقد أكلتها العرب، وهانت على الناس، فماذا فعل بها وفي وفدها رجل مثل عبد ياليل بن عمرو بن عمير الذي طرده من الطائف؟ أما مالك بن عوف فذلك من سبق إليه عفوه، فرد إليه ماله وأولاده.

فرد الرسول سبيها واشتراه ديناً عليه لأصحابه، ليعطيه أعداءه الذين كادوا يقضون على الإسلام يوم حنين.

ومن حلمه ﷺ أن حبراً من أحبار اليهود وهو زيد بن سعنة درس صفات النبوة وعرف علاماتها في رسول اللّه ﷺ وبقيت علامتان يريد أن يخبرهما، الأولى: أن يسبق حلمه غضبه، والثانية: أنه لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، فكان زيد ينطلق ويخالط رسول اللّه ﷺ يريد أن يختبره، وفي ذات يوم جاء أعرابي يشكو لرسول اللّه ﷺ شدة العيش في إحدى القرى، وزيد يسمع فقال زيد لرسول اللّه ﷺ: أنا أشتري منك كذا كذا وسقاً بكذا وكذا، وأخرج المال وأعطى ثمانين ديناراً فدفعها إلى الرجل، واتفقا على موعد معلوم يقضيه فيه حقه ولكنه جاء قبل الموعد، يقول زيد: فدنوت من النبي ﷺ وجذبت برديه جذبة شديدة حتى سقط عن عاتقه ثم أقبلت بوجه غليظ فقلت: ألا تقضيني يا محمد، فواللّه إنكم يا بني عبد المطلب لمطل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم. فغضب عمر وقال: أي عدو اللّه أتقول هذا لرسول اللّه؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقني رأسك، ورسول اللّه ينظر إلى عمر ويبتسم لقوله، ثم قال: لأنا وهو أحوج إلى

غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر فاقض حقه وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما رعته[١].

وهنا سكنت نفس زيد واطمأنت حيث وجد العلامات التي كان يبحث عنها فذهب به عمر فقضاه دينه وزاده صواعاً من تمر، قال زيد: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قال: أنا زيد بن سعنة، قال: الحبر، قلت: الحبر، قال: فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت، وتقول له ما قلت؟ فأجاب: بأنه أراد أن يختبر عفوه ﷺ.

ومن كمال عفوه ﷺ ما رواه أنس رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه الشريف ﷺ، ثم قال الأعرابي: يا محمد إحمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك!

فسكت النبي ﷺ ثم قال: المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويقاد[٢] منك يا أعرابي ما فعلت بي، قال: لا، فسأله النبي ﷺ، ولم؟ قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة، فضحك النبي ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر.

وفي غزوة بدر فقد صفوان بن أمية أباه وأخاه، وأسر وهب ولد عمير بن وهب، فاتفق صفوان مع ابن عمه عمير، بن وهب في الحجر من البيت الحرام على اغتيال رسول الله ﷺ بشرط أن يقضي صفوان ديون عمير وأن يتولى شأن أولاده من بعده، وطلب عمير من صفوان أن يكتم ما دار بينهما لئلا يفشو الخبر ويصل إلى المدينة، وأعد صفوان سيفاً وأمر بصقله وسقاه سماً ناقعاً وأعطاه لعمير، فرحل لمهمته حتى وصل المدينة، فنزل بباب المسجد وعقل راحلته وأخذ السيف فعمد إلى رسول الله ﷺ فدخل، فقال رسول الله ﷺ له: ما أقدمك يا عمير؟ قال: قدمت على أسيري عندكم[٣]، قال ﷺ: أصدقني ما أقدمك؟ قال: ما قدمت إلا في أسيري، قال ﷺ: فماذا شرطت لصفوان بن أمية في الحجر؟ ففزع عمير وقال: ماذا شرطت له؟ قال ﷺ: تحملت له بقتلي على أن يعود بيتك، والله حائل بينك وبين ذلك، قال عمير: أشهد أنك رسول الله إن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، فأخبرك الله به آمنت بالله ورسوله، وهذا من كمال عفوه ﷺ عمن يريد قتله.

---

(١) أي في مقابلة تخويفك له.
(٢) ويقتص.
(٣) أي: قدمت لافتداء أسيري وهب.

ولما خرج ﷺ إلى حنين ضمن الناس شيبة بن عثمان بن طلحة وكان قد قتل أبوه وعمه في غزوة أحد، قال شيبة: قلت أسير مع قريش إلى هوازن بحنين فعسى إن اختلطوا أن أصيب من محمد غرة فأكون أنا الذي قمت بثأر قريش كلها!.

وكان يقول: لو لم يبق من العرب والعجم أحد إلا اتباع محمداً ما اتبعته أبداً، قال شيبة: فكنت مترصداً لما خرجت له لا يزداد الأمر في نفسي إلا قوة، ووجد الفرصة سانحة حين تفرق المسلمون عن رسول اللّه ﷺ قال: فأصلت السيف ودنوت أريد ما أريد منه، ورفعت سيفي حتى كدت أسوره، فرفع لي شواظ من نار كالبرق كاد يمحشني فوضعت يدي على بصري خوفاً عليه.

وفي رواية ابن إسحاق قال: فأردت برسول اللّه ﷺ لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشّى فؤادي فلم أطق ذلك.

قال: فناداني رسول اللّه ﷺ: يا شيبة أُدن مني، فدنوت، فمسح صدري ثم قال: اللهم أعذه من الشيطان، وقال: فواللّه لهو كان ساعتئذٍ أحب إليّ من سمعي وبصري ونفسي، وأذهب اللّه ما كان بي، ثم قال ﷺ: أُدن فقاتل: قال: فتقدمت أمامه أضرب بسيفي اللّه يعلم أني أحب أن أقيه بنفسي كل شيء ولو لقيت تلك الساعة أبي لو كان حياً لأوقعت به السيف.

كمال عدله ﷺ

المراد بالعدل إعطاء كل ذي حق حقه، بغير تفرقة بين المستحقين ومؤاخذة المسيء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره بدون إعنات أو محاباة.

وقد استقى النبي ﷺ العدل من التربية الإلٓهية والأخلاق القرآنية، وكانت فطرته السليمة مهيأة للعدل منذ شبابه، فقد اشترك في حلف تعاهدت فيه قريش على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين وهو المسمى بحلف الفضول، قال: لقد شهدت في دار عبد اللّٰه بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت، لقد كان ﷺ يتحرى العدل ويطبقه على أهله دون نظر إلى جاه أو قرابة، ولما أراد رجال من الأنصار أن يتنازلوا عمّا يخصهم من فداء العباس عم رسول اللّٰه ﷺ، ولم يرض ﷺ وقال: لا تدعون منها درهماً[(١)]. أما عفوه عن زوج زينب ابنته فما ذاك إلا لما تجلى من فقره فتدبر هذا، بخلاف العباس فإنه علم يساره فلم يطلق سراحه حتى أخذ فديته وفدية الأسرى من أقربائه، وإذا كان عفوه قد عم البرية وشمل العباد، فأقل ما في الأمر أن يكون زوج ابنته داخلاً في هذا العموم كغيره من الناس.

ومن كمال عدله ﷺ: عتابه للأنصاري صاحب الجمل بقوله: «اتق اللّٰه في هذه البهيمة فإنه شكا إليَّ أنك تجيعه وتدئبه»[(٢)]. وأمر برد فرخي الطائر الذي جاء منزعجاً. وفي هذا تتجلى روح النبي ﷺ في محاربة الظلم ولو وقع على كاهل طائر أو حيوان.

ومن كمال عدله ﷺ: أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول اللّٰه ﷺ فقالوا: ومن يجترئ عليه، إلا أسامة بن زيد رضي اللّٰه عنهما حِبّ رسول اللّٰه ﷺ.

فكلمه أسامة رضي اللّٰه عنه فقال: أتشفع في حد من حدود اللّٰه تعالى؟ ثم

---

(١) رواه البخاري.

(٢) و (٣) كما ثبت ذلك في أبي داود.

قام فاختطب ثم قال: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم اللّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»(١).

ومن عدله ﷺ: أنه بينما يقسم قسماً أقبل رجل فأكب عليه فطعنه ﷺ بعرجون كان معه فجرح وجهه ثم قال له: تعال فاستقد قال: بل عفوت عنك يا رسول اللّه(٢).

ومن عدله ﷺ ما جاء عن رجل من العرب قال: مشيت خلف رسول اللّه ﷺ يوم حنين وفي رجلي نعل كثيفة، فوطئت بها على رجله فنفحني نفحة بسوط في يده وقال: باسم اللّهِ أوجعتني، فبت لنفسي لائماً أقول، أوجعت رسول اللّه ﷺ، فبت ليلة كما يعلم اللّه فلما أصبحنا إذا رجل يقول: أين فلان؟ فقلت هذا الذي واللّه كان مسني بالأمس فانطلقت وأنا متخوف، فقال لي ﷺ: إنك وطئت رجلي بالأمس فأوجعتني فنفحتك بسوط فهذه ثمانون نعجة فخذها(٣).

ومن عدله ﷺ أنه صعد المنبر في مرض وفاته فقال: أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليستقد منه، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه، لا يقولن رجل إني أخشى الشحناء من قبل رسول اللّه ﷺ، ألا وإن الشحناء ليست من طبيعتي ولا من شأني، ألا وإن أحبكم إليّ من أخذ حقاً كان له أو حللني(٤) فلقيت اللّه وأنا طيب النفس، فقام إليه رجل فقال يا رسول اللّه: إن لي عندك ثلاثة دراهم قال: أما أنا لا نكذب أحداً ولا نستحلفه فيم صارت لك عندي؟ قال: تذكر يوم مر بك مسكين فأمرتني أن أدفعها إليه، قال: ادفعها إليه يا فضل يعني ابن عمه العباس(٥).

---

(١) أخرجه الخمسة.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي.

(٣) أخرجه ابن إسحاق.

(٤) أي جعلني في حل وسامحني.

(٥) أخرجه أبو يعلى والطبراني.

كمال تواضعه ﷺ

التواضع لغة: التذلل والخضوع، وعرفاً: خروج الإنسان عن مقتضى جاهه وعظمته وتنزله من مرتبة أمثاله، وعند المحققين أن لا يرى العبد لنفسه قدراً ولا قيمة ولا مزية، وأن يرى الحالة التي هو فيها أعظم من أن يستحقها.

قال أبو زيد رضي اللّه عنه: ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر، فقيل له: فمتى يكون متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقالاً ولا حالاً، وقال في الحكم: ليس المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه فوق ما صنع، ولكن المتواضع الذي إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع.

والتواضع تارة يكون عن شهود عظمة ربه، وهذا هو التواضع الحقيقي الذي لا يمكن ارتفاعه، وتارة يكون لرؤية العبد نقص نفسه.

والتواضع الأول هو الذي يخمد النفس ويذيبها، ويبطل أنانيتها وتنقلع به شجرة الرياسة والكبر من النفس، فلا يأخذه الزهو والغرور، والثاني يؤدي إلى ترقي العبد إلى مدارج الفضيلة، ونبينا سيدنا محمد ﷺ هو سيد المتواضعين، وله في ذلك المثل الكامل والحظ الوافر.

فمن تواضعه ﷺ ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه أنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد اللّه ورسوله». [رواه البخاري].

فقوله: «لا تطروني» أي لا تبالغوا في مدحي بالكذب كما بالغت النصارى في مدح سيدنا عيسى فجعلوه إلّهاً وابن إلّه، فإن هؤلاء إنما عميت أبصارهم عن دلائل الحدوث وشواهده. وقوله: «إنما أنا عبد فقولوا عبد اللّه ورسوله» وفي نسخة: «إنما أنا عبد اللّه»: معناه إنما أنا عبد ورسول بدليل قوله: «فقولوا عبد اللّه ورسوله»، وفي هذا القول إشارة إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] ثم لا يلزم من كونه عبد اللّه ورسوله مساواة غيره له ﷺ في العبودية للّه تعالى التي هي شهود الربوبية وعدم الغفلة عنها، لأنه ﷺ أكمل الخلق في هذا الوصف الذي هو عين الكمال الإنساني.

ومن تواضعه ﷺ: ما جاء عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له: إن لي إليك حاجة، فقال: «اجلسي في أي طريق المدينة شئت أجلس إليك». [رواه الترمذي]، وفي رواية مسلم زاد «فخلا معها في بعض الطريق حتى فرغت من حاجتها»، وزاد أنس أنه خلا بها بحيث غاب عن أبصار الناس ممن كان معه، والغرض من البعد أن لا يسمع شكواها أحد ممن حضر معها أو ممن كانوا مع رسول اللّه ﷺ. وذكر البخاري أن الأمة كانت تأخذه بيده ﷺ فتنطلق في حاجتها، وفي هذا من كمال تواضعه ما لا يخفى، وعند النسائي كان ﷺ لا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة.

ومن تواضعه ﷺ: أن اللّه تعالى خيَّره بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً، فاختار العبدية تواضعاً للّه تعالى، وهذا ثابت من حديث أبي هريرة، ولفظه جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل فقال له جبريل: هذا الملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة. فلما نزل قال: يا محمد أرسلني إليك ربك أملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟ فقال له جبريل: تواضع لربك يا محمد، فقال ﷺ: لا بل عبداً رسولاً، كذا في «الترغيب» وقال رواه ابن حبان في «صحيحه».

ومن تواضعه ﷺ: ما رواه أنس بن مالك رضي اللّه عنه قال: كان رسول اللّه ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحمار ويجيب دعوة العبد، وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف، [رواه الترمذي]. فقوله يركب الحمار أي مع قدرته على ما فوقه من المراكب وقوله على (حمار مخطوم) أي ذي خطام من حبل من ليف، والخطام بكسر الخاء هو الزمام الذي يوضع في فم الحيوان لقيادته وقوله «بحبل من ليف» والليف هو نسيج النخل الذي يكون في أصل الجريد، ومنه تصنع الحبال والفرش الخشنة، قوله: «وعليه إكاف من ليف» وإكاف بكسر الهمزة أي برذعة والبرذعة لذوات الحافر بمنزلة السرج للفرس، وفي هذا غاية التواضع.

وكان ﷺ يدنو من المريض ويجلس عند رأسه ويسأله عن حاله ويقول: كيف تجدك أو كيف أصبحت أو كيف أمسيت ويقول: لا بأس عليك طهور بإذن اللّه، وقد يضع يده على المكان الذي يألم منه المريض ويقول: باسم اللّه من كل داء يؤذيك اللّه يشفيك.

وفي «مختصر السيرة» للطبري أنه ﷺ ركب حماراً عرياً إلى قباء ومعه أبو هريرة فقال: أحملك، فقال: ما شئت يا رسول اللّه فقال: اركب فلم يقدر، فأمسكه رسول اللّه ﷺ فوقعا جميعاً ثم ركب، وقال له مثل ذلك، ففعل فوقعا ثم

ركب، وقال له مثل ذلك فقال: «أي أبو هريرة» والذي بعثك بالحق ما رميتك ثالثاً.

ومن تواضعه ﷺ: ما رواه أنس بن مالك رضي اللّه عنه أيضاً قال: حج رسول اللّه ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم فقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة»، [رواه الترمذي في الشمائل]. والرحل بفتح الراء وسكون الحاء ما يوضع على ظهر البعير للركوب عليه وهو القتب وهو للبعير كالسرج للفرس والبرذعة للحمار. وقوله رث أي بال بمعنى خلق أي قديم، قوله: «وعليه قطيفة لا تساوي أربعة دراهم، أي على الرحل كساء له لا يساوي أربعة دراهم» وبذلك يكون الراكب عليه في أعظم حالات التواضع ليناسب الحج، لأن الحج حالة تجرد وإقلاع، قوله: «فقال اللّهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة»، بأن يكون خالصاً لوجه اللّه تعالى وابتغاء مرضاته، لا ليراه الناس أو يسمعوا به أو يكرموه بإحسان أو مدح أو يعظم جاهه في قلوبهم وهو دعاء، والدعاء من عظيم تواضعه ﷺ وعده نفسه كواحد من الناس، إذ السمعة والرياء لا تتطرقان إلى المعصومين، بل تتطرقان لمن حج على المراكب النفيسة ولبس الملابس الفاخرة.

ومن تواضعه ﷺ: ما رواه أنس بن مالك رضي اللّه عنه أيضاً قال: لم يكن شخص أحب إليهم من رسول اللّه ﷺ قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك، أي لم يقوموا له لما يعلمون من أنه يكره ذلك، وذلك لكمال تواضعه وحسن معاشرته لهم فآثروا إرادته على إرادتهم، وتعليل كراهته لقيامهم له هو حبه للتواضع اعترافاً بجميل الربوبية، وأن القيام لا يكون إلا لرب العالمين، وهذا لا ينافي القيام لأهل الفضل من الصالحين، فقد ورد أيضاً أنهم قاموا لرسول اللّه ﷺ ويقال في توجيه الحديث: أنهم إذ رأوه من بعد غير قاصد لهم لم يقوموا، أو أنه إذا تكرر قيامه وعوده إليهم لم يقوموا، فلا ينافي أنهم إذا قدم عليهم أولاً قاموا وإذا انصرف عنهم قاموا.

ومن تواضعه ﷺ: ما جاء عن أنس بن مالك قال: قال رسول اللّه ﷺ: لو أهدي إليّ كراع لقبلت[1]، ولو دعيت عليه لأجبت. والكراع بضم الكاف هو ما دون الركبة أو دون الكعب من الدواب وقيل مستدق الساق من الغنم والبقر.

ومن تواضعه ﷺ: ما جاء عن عائشة رضي اللّه عنها قالت: كان ﷺ بشراً، من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، وفي رواية: يخيط ثوبه

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان وهو صحيح.

ويخصف نعله، وفي رواية أخرى يرقع ثوبه، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم، وفي رواية أخرى أيضاً: يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة أي كان يعمل في بيته ما يعمله عامة البشر[١] أي تواضعاً وإرشاداً إلى التواضع. ولا يترفع عن الأعمال العادية تكبراً كعادة الملوك، ودفعت بذلك ما رأته من اعتقاد الكفار أنه لا يليق بمنصبه أن يفعل ما يفعله غيره من العامة، وقد عددت عائشة بعض الأعمال التي كان يعملها فقالت:

«كان يفلي ثوبه» أي يفتش ثوبه ليلتقط منه نحو الشوك أو يرقع ثوبه من نحو خرق، وليس المراد بأنه كان يفتش ثوبه ليلتقط منه نحو قمل كما وهم بعضهم، لأن أجساد الأنبياء لا تغشاها الحشرات، وقالت: «كان يحلب شاته» بضم اللام ويجوز كسرها أي يأخذ منها اللبن، «وكان يخدم نفسه» أي يحضر الوضوء ويوضئ نفسه ونحو ذلك مما يلزم له، «وفي رواية يخيط ثوبه» أي يرقعه كما مر، «وكان يخصف نعله» أي يخيط ويرتق ما به من فتق.

وفي مختصر السيرة للطبري أنه ﷺ كان في سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ذبحت فقال رجل: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: عليّ جمع الحطب، فقالوا يا رسول اللّه: نكفيك العمل، قال: قد علمت أنكم تكفونني ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن اللّه يكره من عبده أن يراه متميزاً عن أصحابه.

وهذه الأحاديث ظاهرة الدلالة على غاية تواضعه ﷺ، ورغبته دائماً في المبالغة في التواضع والخضوع، وفي التقليل من زخرف الدنيا ونعيمها، وإظهارها بأنها حقيرة، وأن ما عند اللّه خير وأبقى؛ فإنه ﷺ ما كان يحب أن يمجده أصحابه، أو يطروه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فجعلوه إلّهاً أو ابن إلّه فزاغوا وضلوا. وكان يعتني بذوي الحاجات ويستمع إليهم ويعمل على قضاء حاجاتهم، ولو كان صاحب الحاجة عبداً أو امرأة، وكان أميناً على أسرار ذوي الحاجات، فلا يذيعها ولا ينشرها، وينأى عن مواطن سمع الغير لها.

وكان يكتم حاله عن أصحابه ولا يشكو حتى أنه رهن درعه عند يهودي على ثلاثين صاعاً من شعير أخذها لأهله إلى غير ذلك مما تقدم تفصيله.

(١) أكثر هذه الأحاديث رواها الترمذي في الشمائل.

كمال آدابه العامة وسمته

كان ﷺ يستعمل يده اليمنى في طعامه وطهوره وأخذه وعطائه، ويستعمل يده اليسرى لخلائه وما به من أذى، وكان إذا عطس خمر وجهه وأخفى عطسته وتلقاها بثوبه، وكان إذا جلس قد يحتبي بيديه، والاحتباء: أن يجمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها وقد يتكأ على يساره، وكان أحياناً يستلقي في المسجد واضعاً إحدى رجليه على أخرى، وكان إذا مشى كأنه ينحط من صبب ـ أي يمشي بهمة وقوة. ويقول أبو هريرة: «كنت مع رسول اللّه ﷺ في جنازة فكنت إذا مشيت سبقني وإذا هرولت سبقته، ويقول: ما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول اللّه ﷺ وكأن الأرض تطوي له، إنا لنجهد أنفسنا وإنه غير مكترث، وكان ﷺ يعجبه الفأل الحسن من القول وكان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع يا راشد يا نجيح وسمع كلمة فأعجبته فقال للقائل: أخذنا فألك من فيك[١]. وكان إذا سره أمر استنار وجهه كأنه قطعة قمر، وإذا غضب أحمر وجهه وإذا كره شيئاً عرف ذلك في وجهه، وإذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته، وكان يكره الأسماء القبيحة ويغيرها وقد جاءته امرأة اسمها عاصية فقال: أنت جميلة، وغيَّر كثيراً من أسماء الصحابة من العاصي إلى عبد اللّه.

وكان يمين رسول اللّه ﷺ: «لا ومقلب القلوب» وكان يقول أيضاً: «والذي نفسي بيده» وتارة يقول: «لا وأستغفر اللّه».

وكان إذا جلس مع أصحابه ثم أراد أن ينهض قال: «سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إلّه إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك»، ويقول: هذا كفارة ما يكون في المجلس.

وقد لبس الصوف واحتذى المخصوف ولبس خشناً وأكل شبعاً. يقول أنس فسألنا الحسن: ما الشبع؟ قال: غليظ الشعير ما كان يسيغه إلا بجرعة ماء.

وكان إذا أراد لبس ثوب جديد لبسه يوم الجمعة ويقول عند لبسه: «اللهم

---

(١) رواه أبو داود وقد رمز السيوطي لحسنه وهو له شواهد.

لك الحمد كما كسوتنيه أسألك خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له».

وكان له ﷺ خاتم من فضة نقشت فيه (محمد رسول اللّه) (محمد) في سطر (رسول) في سطر (ولفظ الجلالة) في سطر.

وكان في يده، ثم كان في يد أبي بكر من بعده، ثم كان في يد عمر، ثم كان في يد عثمان، حتى وقع منه بعد في بئر أريس[١]، واختلفت الرواية هل كان يلبسه في يمينه أو في يساره.

وكان ﷺ يخضب أحياناً بالحناء، وكان ﷺ يكثر تسريح لحيته ورأسه بالماء.

يقول أنس: كان ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع له سواكه وطهوره ومشطه، فإذا قام من الليل استاك وامتشط وكان يكثر دهن رأسه وينظر في المرآة ويقول: «الحمد للّه الذي حسَّن خَلْقي وخُلقي وزان مني ما شان من غيري، الحمد للّه الذي سوى خلقي فعدله وكرم صورة وجهي وحسنها وجعلني من المسلمين».

وكان يأخذ من طول لحيته وعرضها ويجز شاربه، وكان يحب الطيب ويقول: «حبب إلي النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٢]، وكان يتعطر بالمسك والعنبر ولكن كان العود كما تقول السيدة عائشة: هو أحب الطيب إليه.

(١) هو البئر الذي كان أمام مسجد قباء وخبره في الصحيح وقد ردم الآن.

(٢) رواه أحمد وهو حديث حسن.

آدابه في طعامه

وكان من أحب الطعام إليه الدباء والثريد والحلواء والعسل، ومن اللحم الذراع ولحم الظهر والكتف والبقل وأكل الخبز اليابس بالخل وأكل القثاء بالرطب والبطيخ بالرطب والقثاء بالملح، ومن أنواع الطعام التي أكل منها ﷺ الحيس والسمن والأقط والقديد والشواء ولحم الدجاج ولحم الحبارى وجمار النخل والتمر والرطب والعنب والخبيص وهو خليط من السمن والعسل والدقيق يطبخ على النار، وكان يجتنب ما يؤذي ريحه كالثوم ونحوه أو ما تعافه نفسه كالضب ولا يذم طعاماً أو يعيبه إن اشتهاه أكله وإلا تركه ولا يأكل الصدقة ولا يأكل متكئاً.

وكان يأكل مما يليه ويجلس على الأرض ويأكل على الأرض وإذا فرغ من طعامه ورفعت مائدته قال: «الحمد للّه حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا»، ويقول أيضاً: «الحمد للّه الذي يُطعِم ولا يُطعَم منَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا الحمد للّه الذي أطعم من الطعام وسقى من الشراب وكسا من العري وهدى من الضلالة وبصر من العمى».

وكان يُحمل إليه الماء العذب من أطراف المدينة المنورة.

وكان يختار الماء البائت لبرودته، وكان يبرد له الماء في القرب الجلدية القديمة لأنها تساعد على التبريد.

وكان يشرب في قدح له من خشب غليظ مضبب بحديد وقدح آخر من زجاج وقد يتوضأ منه.

وكان يشرب فيه اللبن والسويق والعسل.

وكان أحب الشراب إليه اللبن، ويقول إذا شربه: «اللهم بارك لنا فيه وزدنا منه»[(١)]، وفي غيره: «اللهم بارك لنا فيه وأبدلنا به ما هو خير منه». وكان أحياناً يخلط اللبن بالماء، وكان إذا شرب تنفس ثلاثاً يحمد اللّه بعد فراغ شربه، وأحياناً يحمد اللّهِ على كل نفس ويشكره عند آخرهن، وكان يشرب قاعداً وهو أكثر حاله وقد يشرب قائماً، وكان يسقي أصحابه بنفسه ثم يشرب بعدهم ويقول: ساقي القوم

(١) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والبيهقي في الشعب.

آخرهم شرباً[١]؟ وكان إذا شرب يناول من عن يمينه، وقد جلس يوماً عن يمينه غلام صغير وعن يساره كبار أصحابه فأتي بشراب فشرب منه وقال للغلام: أتأذن في أن أعطي هؤلاء فقال: لا أوثر بنصيبي منك أحداً، وكان ﷺ يسمر مع نسائه يحدثهن ويستمع إلى حديثهن قبل نومه، وكان قبل نومه يتوضأ ويكتحل في كل عين ثلاثة أميال وينام على شقه الأيمن ثم يقول: «اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت». ويقول: إن من قالهن ثم مات من ليلته مات على الفطرة[٢] فإذا استيقظ في نصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل مسح وجهه بيده ثم قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران ثم توضأ وقام يصلي.

وكان ﷺ إذا نام إنما تنام عيناه ولا ينام قلبه الشريف.

وكان ﷺ يحتجم وينصح بالحجامة ويقول: «إن أفضل ما تداويتم به الحجامة»[٣].

وكان يتداوى بالحناء فإذا أصابته قرحة أو نكبة أمر أن يوضع عليها من الحناء، وكان يحب السفر في يوم الخميس والاثنين، وإذا خرج يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل، اللهم إني أعوذ بك من الفتنة في السفر والكآبة في المنقلب، اللهم اقبض لنا الأرض وهون علينا السفر»[٤].

وإذا ركب قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾[٥] [الزخرف: ١٣]، وإذا ودع مسافراً قال له: «أستودع اللّه دينك وأمانتك وخواتيم عملك، زودك اللّه التقوى وغفر ذنبك ولقاك الخير حيث توجهت»[٦]، وإذا نزل في الطريق ليلاً قال مخاطباً تلك الأرض: «ربي وربك اللّهِ أعوذ باللّه من شرك وشر ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ باللّه من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ومن شر والد وما ولد»[٧].

---

(١) رواه أبو داود في الأشربة.
(٢) رواه البخاري.
(٣) أخرجه الشيخان.
(٤) أخرجه مسلم.
(٥) أخرجه مسلم.
(٦) أخرجه الترمذي وهو صحيح.
(٧) أخرجه أبو داود والترمذي.

وكان يصلي على راحلته في السفر ولكن صلاة النافلة لا الفريضة وكان إذا قدم من السفر قال: «آيبون تائبون لربنا حامدون[١]، فإذا دخل على أهله قال أوباً أوباً لربنا توباً لا يغادر علينا حوباً»[٢].

وكان لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحى فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس يستقبل أصحابه للسلام عليه.

وكان لا يطرق أهله ليلاً إلا إذا كان عندهم علم أو خبر عن قدومه، وكان ينهي ﷺ عن ذلك.

(١) أخرجه الشيخان.

(٢) رواه البزار وأبو يعلى.

﴿ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴾

[الضحى: ٥]



كمالُ مَنَاقِبه الحميدة وخصائصه الفريدة

كمال خصائصه
الظاهرة وكراماته الباهرة

اختص اللّه سبحانه وتعالى سيدنا محمداً ﷺ بأنواع من الفضائل والكرامات، وسنذكر أشهرها وأصحها باختصار، وقد ذكرنا بعضها مفصلاً في مواضع متفرقة من كتابنا هذا، لكنا أحببنا هنا إعادة ذكرها لتكون مجتمعة في موضع واحد.

فمنها أنه أول النبيين خلقاً وأنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد[(١)].

وأن اللّه أخذ الميثاق على النبيين آدم فمن بعده أن يمنوا به وينصروه قال اللّه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١] وأنه وقع التبشير به في الكتب السالفة، وأنه لم يقع في نسبه من لدن آدم سفاح[(٢)].

وأنه رأت أمه عند ولادته نوراً خرج منها أضاء له قصور الشام[(٣)]، وأنه ظللته الغمامة في الحر[(٤)]، وأنه مال إليه فيء الشجرة إذ سبق إليه[(٥)]، وأنه شق صدره الشريف ﷺ[(٦)]، وأنه غطه جبريل عند ابتداء الوحي ثلاث غطات، وأن اللّه تعالى ذكره في القرآن عضواً عضواً فذكر قلبه بقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] ولسانه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [النجم: ٣] وبقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان: ٥٨] وبصره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] ووجهه بقوله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤] ويده وعنقه بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البيهقي وغيره.
(٣) رواه الإمام أحمد.
(٤) رواه أبو نعيم وغيره.
(٥) رواه البيهقي.
(٦) رواه مسلم وغيره.

مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩] وظهره وصدره بقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ١ ـ ٣] وأنه اشتق اسمه من اسم اللّه المحمود، وقال حسان:

وشق له من اسمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد

وأنه سمي أحمد ولم يسم به أحد قبله[(١)].

وأنه ﷺ كان يبيت جائعاً ويصبح طاعماً يطعمه ربه ويسقيه، وأنه كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه[(٢)]، وأنه كان يرى في الليل في الظلمة كما يرى بالنور والضوء[(٣)]، وأن ريقه كان يعذب الماء الملح[(٤)]، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يبلغ صوته وسمعه ما لا يبلغ صوت غيره ولا سمعه، وأنه كان تنام عينه ولا ينام قلبه[(٥)]، وأنه ما تثاءب قط[(٦)]، وأنه ﷺ ما احتلم قط وكذلك الأنبياء[(٧)]، وأن عرقه ﷺ كان أطيب من المسك[(٨)]، وأنه إذا مشى مع الطويل طاله[(٩)].

وأن الكهنة انقطعوا عند مبعثه ﷺ كما انقطع استراق السمع.

وأنه ﷺ أتي بالبراق ليلة الإسراء مسرجاً ملجماً، وكانت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تركبه عرياناً، وأنه أسري به ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى المحل الأعلى، وأراه اللّه تعالى من آياته الكبرى وحفظ في المعراج حتى ما زاغ البصر وما طغى، وأحضر الأنبياء له عليهم الصلاة والسلام وصلى بهم وبالملائكةِ إماماً، وأطلعه على الجنة والنار وأنه رأى اللّه تعالى وجمع له بين الكلام والرؤية وكلمه تعالى في الرفيق الأعلى وكلم موسى بالجبل، وأن الملائكة تسير معه حيث سار يمشون خلف ظهره وقاتلت معه في غزوة بدر وحنين.

وأنه يجب علينا أن نصلي ونسلم عليه ﷺ لآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البيهقي.
(٤) رواه أبو نعيم.
(٥) رواه البخاري.
(٦) رواه ابن أبي شيبة وغيره وأخرج الخطبي ما تثاءب نبي قط.
(٧) رواه الطبراني.
(٨) رواه أبو نعيم وغير.
(٩) رواه البيهقي.

وأنه أوتي الكتاب العزيز وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا اشتغل بمدارسة.

وأن اللّه تعالى حفظ كتابه المنزل عليه وهو القرآن من التبديل والتحريف قال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] أي من التحريف والزيادة والنقصان، فلو حاول أحد أن يغيره بحرف أو نقطة لقال له أهل الدنيا هذا كذاب، حتى أن الشيخ المهيب لو اتفق له تغيير في حرف منه لقال الصبيان كلهم أخطأت أيها الشيخ وصوابه كذا، ولم يتفق ذلك لغيره من الكتب، فإنه لا كتاب إلا وقد دخله التصحيف والتحريف والتغيير، وسواه مع أن دواعي الملحدة واليهود والنصارى متوفرة على إبطاله وإفساده وأن كتابه يشتمل على ما اشتملت عليه جميع الكتب، وأنه تعالى يسر حفظه على متعلميه قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] فحفظه ميسر للغلمان في أقرب مدة وسائر الأمم لا يحفظ كتبها الواحد منهم فكيف بالجم الغفير، وأنه أنزل على سبعة أحرف تسهيلاً علينا وتيسيراً، وأنه آية باقية ما بقيت الدنيا، وأنه عليه الصلاة والسلام خص بآية الكرسي، وبالمفصل وبالمثاني وبالسبع الطوال، أما المفصل فآخره قل أعوذ برب الناس وفي أوله خلاف ورجح النووي أنه سورة الحجرات، والمثاني هي سورة الفاتحة(١) والسبع الطوال أولها البقرة وآخرها الأنفال.

وأنه ﷺ أُعطي مفاتيح الخزائن، قال بعضهم وهي خزائن أجناس العالم ليخرج لهم بقدر ما يطلبونه لذواتهم، فكل ما ظهر من رزق العالم فإن الاسم الإلّهي لا يعطيه إلا عن يد محمد ﷺ الذي بيده المفاتيح، كما اختص تعالى بمفاتيح الغيب فلا يعلمها إلا هو وأعطى هذا السيد الكريم منزلة الاختصاص بإعطائه مفاتيح الخزائن، وأنه ﷺ أوتي جوامع الكلم.

وأنه ﷺ بعث إلى الناس كافة.

فقد جاء في حديث جابر وغيره عنه ﷺ أنه قال: كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود. وفي رواية: إلى الناس كافة، ونصره ﷺ بالرعب مسيرة شهر، وإحلال الغنائم ولم تحل لأحد قبله، وجعل الأرض له ولأمته مسجداً وطهوراً.

وأن معجزاته ﷺ مستمرة إلى يوم القيامة، ومعجزات سائر الأنبياء انقرضت لوقتها، فلم يبق إلا خبرها والقرآن العظيم لم تزل حجته قاهرة ومعارضته ممتنعة.

---

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

وأنه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

وأنه ﷺ أكثر الأنبياء معجزة، وأن شرعه مؤبَّد إلى يوم الدين، وناسخ لجميع شرائع النبيين، وأنه ﷺ أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة، وأنه ﷺ لو أدركه الأنبياء لوجب عليهم اتباعه، وإنه ﷺ أرسل إلى الجن اتفاقاً، وأنه ﷺ أرسل إلى الملائكة في أحد القولين ورجحه السبكي، وأنه ﷺ أرسل رحمة للعالمين.

وأن اللّه تعالى خاطب جميع الأنبياء بأسمائهم في القرآن فقال: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا داود، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، ولم يخاطبه هو فيه إلا بيا أيها الرسول، ويا أيها النبي، ويا أيها المزمل، ويا أيها المدثر، وأنه ﷺ حرم على أمته نداؤه باسمه قال اللّه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] أي لا تجعلوا نداءه وتسميته كنداء بعضكم بعضاً باسمه ورفع الصوت به ولكن قولوا: يا رسول اللّه، يا نبي اللّهِ مع التوقير والتواضع وخفض الصوت، وأنه ﷺ يحرم الجهر له بالقول قال تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الحجرات: ٢] وأنه ﷺ يحرم نداؤه من وراء الحجرات قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٤، ٥] وأنه ﷺ حبيب اللّه تعالى وجمع له بين المحبة والخلة، وأنه تعالى أقسم على رسالته وبحياته وببلده وعصره. وأنه ﷺ كلم بجميع أصناف الوحي.

وأنه ﷺ هبط عليه إسرافيل ولم يهبط على نبي قبله أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: لقد هبط عليّ ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي ولا يهبط على أحد بعدي وهو إسرافيل فقال: أنا رسول ربك إليك أمرني أن أخيرك إن شئت نبياً عبداً وإن شئت نبياً ملكاً فنظرت إلى جبريل فأومأ إلي أن تواضع، فلو أني قلت نبياً ملكاً، لصارت الجبال معي ذهباً.

وأنه ﷺ سيد ولد آدم، رواه مسلم من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر»، وأنه ﷺ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، قال البيضاوي أي جميع ما فرط منك مما يصح أن تعاتب عليه، وأنه ﷺ أكرم الخلق عند اللّه فهو أفضل من كل المرسلين وجميع الملائكة المقربين.

وأنه ﷺ أسلم قرينه(١) وإن الميت يسأل عنه ﷺ في قبره.

---

(١) رواه مسلم.

وأنه ﷺ حرم نكاح أزواجه من بعده قال تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أي هن في الحرمة كالأمهات حرم نكاحهن عليهم بعده تكرمة وخصوصية، وأن أولاد بناته ﷺ ينسبون إليه قال عليه الصلاة والسلام في الحسن: «إن ابني هذا سيد وإن كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة إلا نسبه وسببه»، قال عليه الصلاة والسلام: «كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي». والنسب بالولادة والسبب بالزواج.

وأنه لا يجوز التزوج على بناته[1] لأن ذلك يؤذيه وأذيته ﷺ حرام بالاتفاق، فعن المسور بن مخرمة أن علي بن أبي طالب خطب بنت أبي جهل وعنده فاطمة بنت النبي ﷺ فلما سمعت بذلك فاطمة أتت النبي ﷺ فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك وهذا علي ناكح ابنة أبي جهل، قال المسور: فقام النبي ﷺ فسمعته حين تشهد قال: أما بعد فإني أنكحت أبا العاص بن الربيع فحدثني فصدقني وإن فاطمة بنت محمد بضعة مني وإنما أكره أن يفتنوها، وإنه والله لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد أبداً، قال: فترك علي الخطبة[2]، وفي رواية للشيخين عن المسور أيضاً: «فإن ابنتي بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها».

وأنه ﷺ لا يجتهد أحد في محرابه ﷺ يمنة ولا يسرة.

وأنه ﷺ من رآه بالمنام فقد رآه حقاً فإن الشيطان لا يتمثل به، وفي رواية مسلم: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة»، وليس لأحد أن يتكنى بكنية أبي القاسم سواء كان اسمه محمد أم لا عند الشافعي وجوزه مالك.

ومن خصائصه عليه الصلاة والسلام أنه تثبت الصحبة لمن اجتمع به لحظة، بخلاف التابعي مع الصحابي فلا تثبت إلا بطول الاجتماع معه على الصحيح عند أهل الأصول، والفرق عظم منصب النبوة ونورها، فبمجرد ما يقع بصره على الأعرابي الجلف ينطق بالحكمة، وإن أصحابه كلهم عدول قال الله تعالى خطاباً للموجودين حينئذٍ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي عدولاً. وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

(١) المقصود لأنه لا يجوز.
(٢) أخرجه الشيخان.

ومن خصائصه ﷺ أن المصلي يخاطبه بقوله: السلام عليك أيها النبي ولا يخاطب غيره، وأنه كان يجب على من دعاه وهو في الصلاة أن يجيبه، وأن الكذب عليه ليس كالكذب على غيره فمن كذب عليه لم تقبل روايته أبداً وإن تاب على المشهور عند أهل الأصول، وأنه ﷺ معصوم من الذنوب كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأنه لا يجوز عليه الجنون ولا الإغماء الطويل الزمن ولا العمى، لأنه نقص وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأن من سبَّه أو انتقصه قتل(١).

ومن خصائصه ﷺ أنه كان يخص من شاء بما شاء من الأحكام، كجعله شهادة خزيمة شهادة رجلين، فعن النعمان بن بشير رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ اشترى من أعرابي فرساً فجحده الأعرابي فجاء خزيمة فقال: يا أعرابي أنا أشهد عليك أنك بعته، فقال الأعرابي: إن شهد عليَّ خزيمة فأعطني الثمن، فقال رسول اللّه ﷺ: يا خزيمة إنك لم تشهد فكيف تشهد، قال: أنا أصدقك على خبر السماء ألا أصدقك على خبر هذا الأعرابي، فجعل رسول اللّه ﷺ شهادته بشهادة رجلين فلم يكن في الإسلام من تعدل شهادته شهادة رجلين إلا خزيمة.

ومن ذلك ترخيصه في النياحة لأم عطية، روى مسلم عنها قالت: لما نزلت هذه الآية: ﴿يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة: ١٢] قالت: كان منه النياحة فقلت: يا رسول اللّه إلا آل فلان فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية فلا بد لي من أن أسعدهم قال: إلا آل فلان. ومن ذلك ترك الإحداد لأسماء بنت عميس، أخرج ابن سعد عن أسماء بنت عميس قالت: لما أصيب جعفر بن أبي طالب قال لي رسول اللّه ﷺ تسلبي ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت(٢).

ومن ذلك الأضحية بالعناق لأبي بردة بن نيار(٣) وفي اعتبار ذلك خصوصية خلاف.

ومن ذلك إنكاح ذلك الرجل بما معه من القرآن، فقد زوج رسول اللّه ﷺ

(١) ذكره القاضي عياض في الشفاء وغيره واستدلوا له بالكتاب والسنة والإجماع. وقال الخطابي لا أعلم أحداً من المسلمين واختلف في وجوب قتله إذا كان مسلماً ومذهب المالكية يقتل حداً لا ردة ولا تقبل توبته ولا عذره إن ادعى سهواً أو غلطاً ومذهب الشافعية إن ذلك ردة تخرج من الإسلام إلى الكفر فهو مرتد كافر قطعاً.

(٢) وقوله تسلبي أي ألبسي ثوب الحداد وهو السلاب وتسلبت المرأة إذا لبسته وهو ثوب أسود تغطي به المحد رأسها.

(٣) العناق الأنثى من ولد المعز قبل استكمالها الحول.

إمرأة على سورة من القرآن ـ وفي اعتبار ذلك خصوصية خلاف ـ وقال لا تكون لأحد بعدك مهراً.

وأنه ﷺ كان يوعك كما يوعك رجلان لمضاعفة الثواب، والوعك: أذى الحمى ووجعها في البدن.

وأنه ﷺ صلى عليه الناس أفواجاً أفواجاً بغير إمام وبغير دعاء الجنازة المعروف[١] وترك بلا دفن ثلاثة أيام، وفرش له في لحده قطيفة والأمران مكروهان في حقنا.

وأنه لا يبلى جسده الشريف ﷺ وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام[٢].

وأنه ﷺ لا يورث وكذلك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يورثون قال ﷺ: إنا معاشر الأنبياء لا نورث[٣].

وإنه وكل بقبره ﷺ ملك يبلغه صلاة المصلين عليه[٤]، وصححه الحاكم بلفظ: إن للّه ملائكة سيّاحين في الأرض يبلغونني عن أمتي السلام. وعند الأصبهاني عن عمار: إن للّه ملكاً أعطاه سمع العباد كلهم فما من أحد يصلي علي إلا أبلغنيها، وإنه تعرض أعمال أمته ﷺ عليه ويستغفر لهم.

فقد ثبت أنه ليس من يوم إلا وتعرض على النبي ﷺ أعمال أمته غدوة وعشية، فيعرفهم بسيماهم وأعمالهم[٥]، وأن منبره ﷺ على حوضه كما في الحديث، وفي رواية: ومنبري على ترعة من ترع الجنة[٦]، ولم يختلف أحد من العلماء أنه على ظاهره، وأنه حق محسوس موجود فإن القدرة صالحة لا عجز فيها، وكل ما أخبر به الصادق ﷺ من أمور الغيب فالإيمان به واجب، وأن ما بين منبره وقبره ﷺ روضة من رياض الجنة[٧].

وأنه ﷺ أول من ينشق عنه القبر قال ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[٨].

---

(١) ذكره البيهقي وغيره.
(٢) رواه أبو داود وغيره.
(٣) رواه النسائي من حديث الزبير مرفوعاً وأصله في الصحيح.
(٤) رواه الإمام أحمد وغيره.
(٥) رواه ابن المبارك عن سعيد بن المسيب.
(٦) وأصل الترعة الروضة على المكان المرتفع خاصة فإن كانت في المطمئن فهي روضة.
(٧) رواه البخاري بلفظ ما بين بيتي ومنبري.
(٨) رواه مسلم.

وأنه ﷺ يحشر في سبعين ألفاً من الملائكة، وما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألف ملك يحفّون بقبره ﷺ يضربون بأجنحتهم، حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك حتى إذا انشقت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ، وهو ﷺ أول من يجوز على الصراط[١]، وأنه يحشر راكباً البراق[٢].

وأنه ﷺ يكسى في الموقف أعظم الحلل من الجنة، قال ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمّتي على تل ويكسوني ربي حلة خضراء»[٣].

وأنه ﷺ يقوم على يمين العرش مقاماً لا يقومه غيره يغبط فيه الأوّلون والآخرون[٤].

وأنه ﷺ يعطى المقام المحمود.

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه الحافظ السلفي.
(٣) رواه كعب بن مالك.
(٤) رواه ابن مسعود.

أفضليته على سائر الأنبياء

١ ـ أول ما يدل على ذلك أوليته ﷺ، ومعناها خلق نفسه قبل خلق نفوسهم، وما يدل على أوّليته ﷺ ما رواه عبد اللّه بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: إن اللّه عز وجل كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء.

ومن جملة ما كتب في الذكر وهو أم الكتاب ـ «أن محمداً خاتم النبيين» أخرجه مسلم ـ وفي رواية: «إني عند اللّه خاتم النبيين وأن آدم مجندل في طينته» [رواه أحمد والبيهقي والحاكم وقال صحيح الإسناد].

وفي رواية إنه قيل له: متى وجبت لك النبوة؟ فقال: وآدم بين الروح والجسد. [رواه الترمذي وحسنه].

وفي رواية: «كنت أوّل النبيّين في الخلق وآخرهم في البعث». قال السخاوي، رواه أبو نعيم في الدلائل وابن أبي حاتم في تفسيره وابن لال ومن طريقه عن أبي هريرة مرفوعاً وله شاهد صححه الحاكم وآخر في صحيحي ابن حبان والحاكم وثالث عند الترمذي وقال عنه حسن صحيح.

٢ ـ ومن ذلك: أنه أخذ له الميثاق على الأنبياء فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١].

فجعل الأنبياء كأتباع له وألهمهم الانقياد لو أدركوه وجب عليهم اتباعه.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي».

وقدم ذكره على الأنبياء فقال عز وجل: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

٣ ـ وخاطب كل نبي باسمه فقال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾ [ص: ٣٦]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾

[مريم: ١٢]. ولم يخاطب نبينا بالاسم تعظيماً له بل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، فلما ذكر اسمه للتعريف قرنه بذكر الرسالة قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [محمد: ٢] ولما ذكره مع الخليل ذكر الخليل باسمه وذكره باللقب فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [آل عمران: ٦٨].

٤ ـ وأخبر اللّه تعالى أن الأمم كانوا يخاطبون أنبياءهم بأسمائهم كقولهم: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣] ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢] ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ [المائدة: ١١٢]. ونهى أمته أن يخاطبوه باسمه فقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: لا تقولوا يا محمد قولوا: يا رسول اللّه.

وقد كانت الأنبياء يجادلون أممهم عن أنفسهم يقول قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠] فقال دافعاً عن نفسه: ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١] وقال قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦] فقال: ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وقال فرعون لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فقال موسى: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢].

ولكن اللّه تولى المجادلة عن نبيه ﷺ فلما قالوا هو شاعر قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩]، ولما قالوا: كاهن، قال اللّه تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤٢]، ولما قالوا: ضال، قال اللّه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢]، ولما قالوا: مجنون، قال اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]. ولما قالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١] قال في الرد عليهم: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠١، ١٠٢] وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النحل: ١٠٥]. ولما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] قال في الرد عليهم: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

٥ ـ وأقسم الحق سبحانه وتعالى بحياته وإنما يقع القسم بالمعظم ـ عن ابن عباس قال: ما خلق اللّه وما ذرأ نفساً هي أكرم من محمد ﷺ وما سمعت

الله أقسم بحياة أحد غيره فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

٦ ـ قال ابن عقيل: وأعظم من قوله لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه: ٤١] قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

٧ ـ وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ [البلد: ١، ٢]، المعنى: أقسم لا بالبلد فإن أقسمت بالبلد فلأنك فيه «انتهى».

أقول وظهر لي معنى آخر، وهو أن الحق تبارك وتعالى يقول: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾، أي إن هذا البلد ولو كان عظيماً فلا أقسم به لأنك حللت به يا محمد وأنت أعظم منه فأنا أقسم بك أنت إذ كيف أقسم بالعظيم وفيه الأعظم والأكرم.

٨ ـ وقد أشار الله تعالى إلى أحوال الأنبياء ثم ذكر التوبة عليهم، قال الله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢] وقال في حق موسى: ﴿إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ [القصص: ٣٣]، ثم قال ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [الأعراف: ١٥١] فغفر له ـ وقال في حق داود: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤]، ثم قال ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، ثم قال: ﴿وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]. وأخبر تعالى بغفران ذنب نبينا من غير أن يذكر له ذنباً فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢].

وقد كان الأنبياء يطلبون تحقيق بعض المراتب والكمالات لأنفسهم بخلاف سيدنا محمد ﷺ، فإن الله منَّ عليه بتلك المقامات وتفضل بها عليه من غير طلب، وهذا باب من العلم جليل القدر وفيه من الفضل ما شرح الله تعالى به صدري وسأورد ما ورد على قلبي من تلك الأمثلة:

فإن كان إبراهيم كسر الأصنام، فقد رمى نبينا ﷺ هبل من أعلى الكعبة ثم أشار إلى ثلاثمائة وستين صنماً فوقعت يوم الفتح كما ثبت في «الصحيح».

وإن كان هود نصر على قومه بالدبور، فقد نصر نبينا رسول الله ﷺ بالصبا فمزقت أعداءه يوم الخندق.

وإن كان لصالح ناقة، فقد سجدت الإبل لنبينا رسول الله ﷺ كما ثبت ذلك في السنة المطهرة.

وإن أعطي يوسف نصف الحسن، فقد أُعطي ﷺ ـ الحسن كله ـ كما جاء في الحديث.

وإن كان الحجر انفجر لموسى، فقد نبع الماء من بين أصابع نبينا

رسول اللّه ﷺ، وهو أعجب لأنه لا غرابة في خروج الماء من الحجارة بل الشأن في خروج الماء من بين لحم ودم.

وإن كان لموسى عليه السلام عصا، فإن خوار الجذع وحنينه أعجب من ذلك وقصة حنين الجذع ثابتة في «الصحيح»، وهو أنه ﷺ كان يخطب عند جذع جعل له، فلما بني له المنبر ترك الجذع فحن الجذع إليه حتى كان يسمع له أنين كأنين الثكلى.

وإن كانت الجبال سبّحت مع داود، فقد ثبت أن الحصا سبّحت في كف نبينا ﷺ.

وإن كان سليمان أُعطيَ ملك الدنيا، فقد جيء لنبينا ﷺ بمفاتيح خزائن الأرض فأباها.

وإن كانت الريح سخّرت لسليمان غدوّها شهر ورواحها شهر، فنبينا ﷺ سار إلى بيت المقدس مسيرة شهر في بعض ليلة، وسار الرعب بين يديه مسيرة شهر، كما قال في الحديث الصحيح: «نصرت بالرعب مسيرة شهر وعرج به مسيرة خمسين ألف سنة إلى العرش».

وإن كان سليمان فهم كلام الطير، فقد فهم نبينا ﷺ كلام البعير الذي جاء يشتكي صاحبه، وفهم كلام الحجر لما سلم عليه وغير ذلك.

وإن كانت الجن سخّرت لسليمان، فقد جاءت إلى نبينا ﷺ طائفة من الجن مؤمنة به كما ثبت ذلك في القرآن.

وقد كان سليمان يصفد من عصاه منهم، فلما تفلت عفريت على نبينا ﷺ تمكّن منه وأسره ثم أطلقه وقال: لولا أن أخي سليمان قال ربِّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من العالمين لربطته في سارية من سواري المسجد يلعب به الصبيان أو كما قال وهو في «الصحيح».

وقد كانت الجن أعواناً لسليمان يخدمونه، ونبينا ﷺ أعوانه الملائكة يقاتلون بين يديه ويدفعون أعداءه كما ثبت ذلك في بدر وحنين.

وإن كان عيسى يخبر بالغيوب، فقد ثبت عنه ﷺ كثير من ذلك مع كثير من الناس.

كمال تفضيله في الآخرة بأوليات ليست لغيره

هو أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول من يؤذن له بالسجود، وأول من ينظر إلى رب العالمين والخلق محجوبون عن رؤيته إذ ذاك، وأول الأنبياء يقضي بين أمته، وأولهم إجازة على الصراط بأمته، وأول داخل إلى الجنة وأمته أول الأمم دخولاً إليها، وزاده من لطائف التحف ونفائس الطرف ما لا يحد ولا يعد.

فمن ذلك أنه يبعث راكباً، وتخصيصه بالمقام المحمود، ولواء الحمد تحته آدم فمن دونه من الأنبياء، واختصاصه أيضاً بالسجود للّه تعالى أمام العرش وما يفتحه اللّه عليه في سجوده من التحميد والثناء عليه ما لم يفتحه على أحد قبله ولا يفتحه على أحد بعده زيادة في كرامته وقربه، وكلام اللّه له يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع، ولا كرامة فوق هذا إلا النظر إليه تعالى.

ومن ذلك تكراره الشفاعة وسجوده ثانية وثالثة وتجديد الثناء عليه سبحانه بما يفتح اللّه عليه من ذلك وكلام اللّه تعالى له في كل سجدة، يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك وسل تعط واشفع تشفع.

ومن ذلك: قيامه عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيره يغبطه فيه الأولون والآخرون، وشهادته بين الأنبياء وأممهم بأنهم بلغوهم وسؤالهم منه الشفاعة ليريحهم من غمهم وعرقهم وطول وقوفهم وشفاعته في أقوام قد أمر بهم إلى النار، ومنها الحوض الذي ليس في الموقف أكثر أوانياً منه، وأن المؤمنين كلهم لا يدخلون الجنة إلا بشفاعته.

ومنها أنه يشفع في رفع درجات أقوام لا تبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة إلى غير ذلك مما يزيده اللّه تعالى به جلالة وتعظيماً وتبجيلاً وتكريماً على رؤوس الأشهاد من الأولين والآخرين والملائكة أجمعين، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم.

فأما تفضيله ﷺ بأولية انشقاق القبر المقدس عنه وغيرها مما تقدم ذكرها فإليك بعض نصوص الأحاديث الواردة في ذلك.

فروى مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأنا أول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع».

وفي حديث أبي سعيد قال رسول اللّه ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدي لواء الحمد ولا فخر وما من نبي يومئذٍ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» رواه الترمذي وقال حسن صحيح.

وعن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم أبو بكر ثم عمر ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي ثم أنتظر أهل مكة حتى نحشر بين الحرمين»، رواه أبو حاتم، وقال الترمذي حسن صحيح ومعنى نحشر نجتمع.

وعن أنس قال: قال رسول اللّه ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا شفيعهم إذا حبسوا وأنا مبشرهم إذا أيسوا، الكرامة والمفاتيح يومئذٍ بيدي ولواء الحمد يومئذٍ بيدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي يطوف عليَّ (بتشديد الياء) ألف خادم كأنهم بيض مكنون أو لؤلؤ منثور» رواه الدارمي والترمذي وقال غريب.

وفي حديث رواه صاحب كتاب حادي الأرواح العلامة ابن القيم أن رسول اللّه ﷺ يبعث يوم القيامة وبلال بين يديه ينادي بالأذان.

وأخرج الحاكم والطبراني من حديث أبي هريرة أن رسول اللّه ﷺ قال: «تبعث الأنبياء على الدواب وأبعث على البراق ويبعث بلال على ناقة من نوق الجنة ينادي بالأذان محضاً وبالشهادة حقاً، حتى إذا قال أشهد أن محمداً رسول اللّه شهد له المؤمنون من الأولين والآخرين»، وفي رواية: «فإذا سمعت الأنبياء وأممها أشهد أن محمداً رسول اللّه قالوا: نحن نشهد على ذلك».

وعن كعب الأحبار أنه دخل على عائشة رضي اللّه عنها فذكروا رسول اللّه ﷺ فقال كعب: ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفاً من الملائكة حتى يحفون بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلّون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط سبعون ألف ملك يحفون بالقبر ويضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ سبعون ألفاً بالليل وسبعون ألفاً بالنهار، حتى إذا انشقّت عنه الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك

المقام غيري»، رواه الترمذي وقال حسن صحيح، وفي رواية كعب حلة خضراء.

وأخرج البيهقي: أول من يكسى من الجنة إبراهيم يكسى حلة من الجنة ويؤتى بكرسي فيطرح عن يمين العرش ثم يؤتى بي فأكسى حلة من الجنة لا يقوم لها البشر، وفيه أنه يجلس على الكرسي عن يمين العرش.

وفي حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص عند الشيخين: «حوضي مسيرة شهر ماؤه أبيض من اللبن ورائحته أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه شربة لا يظمأ أبداً».

وفي رواية مسلم، «وزواياه سواء طوله كعرضه»، وزاد في حديث أمامة: «ولم يسود وجهه أبداً»، وزاد في حديث أنس «ومن لم يشرب منه لم يرو أبداً»، رواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وفي حديث ثوبان عند الترمذي وصححه الحاكم «أكثر الناس عليه وروداً، فقراء المهاجرين». قال القرطبي في «التذكرة»: ذهب صاحب القوت وغيره إلى أن الحوض يكون بعد الصراط وذهب آخرون إلى العكس.

وفي حديث أبي ذر ما رواه مسلم «أن الحوض يشجب فيه ميزابان من الجنة».

وعن أنس قال: سألت رسول اللّه ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: أنا فاعل إن شاء اللّه، قلت: فأين أطلبك، قال: أول ما تطلبني على الصراط، قلت: فإن لم ألقك على الصراط قال: فاطلبني عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك عند الميزان قال: فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطئ هذه الثلاثة مواطن، رواه الترمذي وحسنه.

قال القرطبي في المفهم: مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أنه تعالى قد خص نبينا محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه في الأحاديث الصحيحة الشهيرة التي يحصل بمجموعها العلم القطعي إذ روى ذلك عنه ﷺ من الصحابة نيف على ثلاثين، منهم في «الصحيحين» ما يزيد على العشرين وفي غيرهما بقية ذلك كما صح نقله واشتهرت روايته ثم رواه عن الصحابة المذكورين من التابعين أمثالهم ومن بعدهم أضعاف أضعافهم وهلم جرا. واجتمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف.

وفي رواية مسلم من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: ترد عليّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل عن إبله، قالوا يا رسول اللّه: تعرفنا قال: نعم لكم سيماء ليست لأحد غيركم تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء.

وفي حديث أنس أنه ﷺ قال: «لحوضيَ أربعة أركان الأول بيد أبي بكر الصديق، والثاني بيد عمر الفاروق، والثالث بيد عثمان ذي النورين، والرابع بيد

علي بن أبي طالب، فمن كان محباً لأبي بكر مبغضاً لعمر لا يسقيه أبو بكر، ومن كان محباً لعلي مبغضاً لعثمان لا يسقيه عليّ» رواه أبو سعيد النيسابوري.

وأما تفضيله ﷺ بالشفاعة والمقام المحمود فقد قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

واتفق المفسرون على أن كلمة (عسى) من اللّه واجب وقد اختلف في تفسير المقام المحمود على أقوال أوّلها ورجحه الفخر الرازي وأجمع عليه المفسرون كما قاله الواحدي أنه مقام الشفاعة ووردت الأخبار الصحيحة في تقرير هذا المعنى كما في البخاري من حديث ابن عمر، قال سئل رسول اللّه ﷺ عن المقام المحمود فقال: هو الشفاعة. وفيه أيضاً عنه قال رسول اللّه ﷺ: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثى أي جماعات كل أمة تتبع نبيها يقولون: يا فلان اشفع لنا حتى تنتهي الشفاعة إليّ فذلك المقام المحمود ومما يؤيد هذا الدعاء المشهور «وابعثه مقاماً محموداً يغبطه فيه الأولون والآخرون».

القول الثاني: قال حذيفة: يجمع اللّه الناس في صعيد واحد فلا تكلم نفس فأول مدعوٌ محمد ﷺ فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك والمهتدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك ولا ملجأ منك إلاّ إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت، قال: فهذا هو المراد من قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] رواه الطبراني قال ابن منده حديث مجمع على صحة إسناده وثقه رجاله.

القول الثالث: مقام تحمد عاقبته، فإن قلت: إذا قلنا بالمشهور أن المراد بالمقام المحمود الشفاعة، فأيّ شفاعة هي، فالجواب أن الشفاعة التي وردت في الأحادِيث في المقام المحمود نوعان:

النوع الأول: العامة في فصل القضاء، **والثاني**: في الشفاعة في إخراج المذنبين من النار، لكن الذي يتجه رد هذه الأقوال كلها إلى الشفاعة العامة فإن إعطاءه لواء الحمد وثناءه على ربه وكلامه بين يديه هي صفات للمقام المحمود الذي يشفع فيه ليقضي بين الخلق، وأما الشفاعة في إخراج المذنبين من النار فمن توابع ذلك، وقد جاءت الأحاديث التي بلغ مجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين فعن أم حبيبة رضي اللّه عنها قالت: قال رسول اللّه ﷺ: أُريت ما تلقى أمتي من بعدي وسفك بعضهم دماء بعض فأحزنني وسبق لهم من اللّه ما سبق للأمم فسألت اللّه أن يؤتيني فيهم شفاعةً يوم القيامة ففعل.

وفي حديث أبي هريرة: لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أخبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة، وفي رواية أنس: فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي. وهذا من مزيد شفقته ﷺ علينا وحسن تصرفه حيث جعل دعوته المجابة في أهم أوقات حاجاتنا جزاه اللّه عنا أحسن الجزاء.

وقد قال النووي الشفاعات خمس:

الأولى: في الإراحة من هول الموقف.

الثانية: في إدخال قوم الجنة بغير حساب.

الثالثة: في إدخال قوم حوسبوا واستحقوا العذاب أن لا يعذبوا.

الرابعة: في إخراج من أدخل النار من العصاة.

الخامسة: في رفع الدرجات في الجنة.

والمختص به ﷺ الأولى والثانية.

وأما تفضيله بأنه أول من يقرع باب الجنة وأول من يدخلها ففي «صحيح مسلم» في كتاب الإيمان عن أنس قال: قال ﷺ: أنا أكثر الناس تابعاً يوم القيامة وأنا أول من يقرع باب الجنة.

وفي «الصحيح» أيضاً: يقول ﷺ: آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت فأقول: محمد فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك.

وهذه الأوّلية تنالها الأمة المحمدية أيضاً إكراماً لنبيها ﷺ، فهم أيضاً أول من يدخل الجنة من الأمم كما جاء في «صحيح مسلم»: قال ﷺ: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة».

وعند الطبراني في «الأوسط» والدارقطني عن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن الجنة حرمت على الأنبياء كلهم حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي».

وأما تفضيله بالكوثر فهو ثابت في «الصحيح» قال ﷺ: «أتدرون ما الكوثر قلنا اللّه ورسوله أعلم قال: إنه نهر وعدنيه ربي وقد سمي بالكوثر لكثرة مائه وعظم قدره وخيره»، قال الحافظ ابن كثير ـ قد تواتر يعني حديث الكوثر من طريق يفيد القطع ـ عن كثير من أئمة الحديث.

وأما تفضيله ﷺ في الجنة بالوسيلة والدرجة الرفيعة والفضيلة روى مسلم من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللّه ﷺ قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ صلاة واحدة صلى اللّه عليه

بها عشراً ثم سلوا اللّه لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة».

والوسيلة درجة عند اللّهِ عَلَم على أعلى منزلة في الجنة، وهي منزلة رسول اللّه ﷺ وداره في الجنة وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش.

ولما كان رسول اللّه ﷺ أعظم الخلق عبودية لربّه وأعلمهم به وأشدّهم له خشية وأعظمهم له محبة كانت منزلته أقرب المنازل إلى اللّه تعالى وهي أعلى درجة في الجنة، وأمر ﷺ أمته أن يسألوها له لينالوا بهذا الدعاء الزلفى وزيادة الإيمان.

كمال فضله الثابت بكتاب الله(١)

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تتضمن عظم قدره، ورفعة ذكره، وجليل مرتبته، وعلو درجته، وتشريف منزلته ﷺ، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وهذا إخبار بمنزلة النبي ﷺ في الملأ الأعلى بأنه يثنى عليه عند الملائكة، وإن الملائكة تصلّي عليه، ثم أمر العالم السفلي بالصلاة والتسلم عليه فيجتمع الثناء عليه من الله وأهل العالمين العلوي والسفلي.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

وفي هذه الآية منقبة ظاهرة له ﷺ، إذ عبرت عن ذلك بلفظ الماضي ولم يقل سنعطيك ليدل على أن هذا الإعطاء حصل في الزمان الماضي، ولا شك أن من كان في الزمان الماضي عزيزاً مرعي الجانب أشرف ممن سيصير كذلك كأنه سبحانه وتعالى يقول يا محمد قد هيأنا أسباب سعادتك قبل دخولك في هذا الوجود، فكيف أمرك بعد وجودك واشتغالك بعبوديتنا، يا أيها العبد الكريم، إنا لم نعطك هذا الفضل العظيم لأجل طاعتك، وإنما اخترناك بمجرد فضلنا وإحساننا من غير موجب.

ومن ذلك أنه تعالى أقسم على ما أنعم به عليه وأظهره من قدره العلي بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ [الشرح: ١].

ومن ذلك إخباره تعالى بالعفو عنه ملاطفة قبل ذكر العتاب في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣].

ومن ذلك أخباره تعالى بتمني أهل النار طاعته ﷺ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٦].

---

(١) وقد ورد كثير من مسائل هذا الفصل في مواطن متعددة من هذا الكتاب. ولكنا أحببنا جمعها في موضع واحد خاص بها.

ومن ذلك أن اللّه سبحانه وتعالى وصفه بالشهادة وشهد له بالرسالة في قوله جل وعلا حكاية عن إبراهيم وإسماعيل عند بناء البيت: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩] فاستجاب اللّهِ دعاءهما وبعث من أهل مكة منهم رسولاً بهذه الصفة. وقد أجمع المفسرون على أنه ﷺ هو المراد بهذه الآية ويؤيد ذلك قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى»، قالوا وأراد بالدعوة هذه الآية وبشارة عيسى هي ما ذكر في سورة الصف ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

ومن ذلك أن اللّه امتنّ على المؤمنين ببعث هذا النبي منهم فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فليس للّه منة على المؤمنين أعظم من إرساله محمداً ﷺ يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم. وإنما كانت النعمة على هذه الأمة بإرساله أعظم النعم لأن النعمة به ﷺ تمت بها مصالح الدنيا والآخرة وكمل بسببها دين اللّه الذي رضيه لعباده.

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وفي وقوله جل ذكره: **﴿واللّه يشهد إنك لرسوله﴾**.

وفي قوله: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

ومن ذلك أن اللّه أخبر أنه ﷺ مبعوث لكافة الخلق بقوله:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨].

ومن ذلك أن اللّه تعالى أخبر أنه جعله كله رحمة فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وسماه بإسمين من أسمائه فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] قال ابن عباس: فهو رحمة للبر والفاجر لأن كل نبي إذا كذب أهلك اللّه من كذبه. أما نبينا ﷺ فهو رحمة للمؤمنين بالهداية، ورحمة للمنافق بالأمان من القتل ورحمة للكافر بتأخير العذاب، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومن ذلك أن اللّه تعالى أخبر أن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعده ﷺ ولا نبي بقوله جل ذكره: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن ذلك أن اللّه تعالى أخبر أن الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل اشتملت على التنويه برسالته ﷺ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومن ذلك أن اللّه تعالى وصفه في القرآن بأنه بلغ أكمل درجات الأخلاق بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وإلى هذا أشارت عائشة رضي اللّه عنها بقولها: «كان خلقه القرآن»، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، فترجمت رضي اللّه عنها لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: «كان خلقه القرآن».

ومن ذلك أنه سبحانه وتعالى أقسم بالضحى على ما أنعم به عليه وأظهره من قدره العلي لديه بقوله: ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ١ ـ ٤].

وكان هذا في مقابلة قول أعدائه «ودع محمداً ربه» وذلك لما انقطع الوحي عنه فترة، فجاءت هذه الآيات متضمنة هذه الفضائل والمنح الربانية والتي نفى فيها سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع الترك، والقلى البغض أي ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أبغضك منذ أحبك ﴿وَلَلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾ وهذا يعم أحواله ﷺ ويدل على أن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها كما أن الدار الآخرة هي خير له مما قبلها ثم وعده ﷺ بما تقرّ به عينه وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى ونشر دعوته وإعلاء كلمته على أعدائه في مدة حياته وأيام خلفائه ومن بعدهم، وما يعطيه في موقف القيامة من الشفاعة والمقام المحمود، وما يعطيه في الجنة من الوسيلة والدرجة الرفيعة والكوثر. وبالجملة فقد دلت هذه الآية على أنه تعالى يعطيه ﷺ كل ما يرضيه. وقد جاء في «الصحيح» أن اللّه تعالى قال له: إنّا لن نخزيك في أمّتك. وفي ذلك يقول بعضهم:

قرأنا في الضحى ولسوف يعطي فسر قلوبنا ذاك العطاء

وحاشا يا رسول الله ترضى وفينا من يُعذّب أو يساء

ثم ذكّره سبحانه بنعمه عليه وأمره أن يقابلها بما يليق بها من الشكر فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦] إلى آخر السورة.

ومن ذلك أنه تعالى أقسم على تصديقه وتنزيهه عن الهوى في نطقه بقوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۞ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۞ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٣] فأقسم تعالى بالنجم على براءة رسوله مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي. وتأمل قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل محمداً تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله، وإنهم لا يعرفونه بكذب ولا غيٍّ ولا ضلالٍ ولا ينقمون عليه أمراً واحداً، وقد نبّه تعالى على هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩] ثم نزه نطق رسوله ﷺ عن أن يصدر عن هوى فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياها ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه ﷺ الوحي والقرآن فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل ولا شك أن مدح المعلم مدح للمتعلم، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] ثم قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۞ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١٠، ١١] فأخبر سبحانه عن تصديق فؤاده ﷺ لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به فكذب فؤاده بصره بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد.

ومن ذلك أن الله تعالى وصف حقيقة تلقي النبي ﷺ وكيفية أخذه له وبيّن سنده في ذلك قوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ۞ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۞ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۞ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٩] كما قال في النجم ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ فيمنع بقوته الشياطين أن يدنوا منه وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أي متمكن المنزلة، وهذه العندية عندية الإكرام والتشريف والتعظيم ﴿مُطَاعٍ﴾ في ملائكة الله تعالى المقربين يصدرون عن أمره ويرجعون إلى رأيه ﴿ثَمَّ﴾ هناك ﴿أَمِينٍ﴾ على وحي الله ورسالته فقد عصمه الله من الخيانة والزلل فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن وأنه سماع محمد ﷺ من جبريل وسماع جبريل من رب العالمين، فناهيك بهذا السند علوّاً وجلالة فقد تولى الله تزكيته بنفسه، ثم نزه رسوله محمداً ﷺ وزكاه مما يقول فيه أعداؤه فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢] وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه وإن قالوا بألسنتهم خلافه فهم يعلمون أنهم كاذبون ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل عليه السلام بقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ

﴿بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج يرى بالعيان ويدرك بالبصر ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤] قال ابن عباس ليس ببخيل بما أنزل الله، وأجمع المفسرون على أن الغيب ههنا القرآن والوحي وقرئ: «بظنين» ومعناه المتهم والمعنى: ما هذا الرسول وهو محمد ﷺ على القرآن بمتهم بل هو أمين فيه لا يزيد ولا ينقص منه.

ومن ذلك أن الله تعالى أقسم به فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢] وأقسم ببلده فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: ١، ٢] ـ والبلد هي أم القرى وأقسم بعصره فقال: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١، ٢].

ومن ذلك أن الله تعالى وصفه بالنور والسراج المنير ﷺ فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥] وأمر بطاعته واتباع سنته فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأنفال: ٢٠] فجعل طاعته طاعة رسوله وقرن طاعته بطاعته وجعل بيعته بيعته فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن ذلك أن الله تعالى في كتابه العزيز أمر بالأدب معه ﷺ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١٠] أي: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله تعالى على لسانه. وانظر أدب الصديق رضي الله عنه معه عليه الصلاة والسلام في الصلاة لما تقدم بين يديه كيف تأخر فقال: ما كان لابن أبي قحافة أن يتقدم بين يدي رسول الله ﷺ، وكيف أورثه الله مقامه والإمامة بعده؟

وقال الضحاك: لا تقضوا أمراً دون رسول الله ﷺ، وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر ولا تنهوا حتى ينهى.

فمن الأدب أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي ولا أذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى ويأذن كما أمر الله تعالى بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته وبعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم.

ومن الأدب معه ﷺ أن لا ترفع الأصوات فوق صوته كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] وأفاد أنه ينبغي أن لا يتكلم المؤمن عنده ﷺ كما يتكلم العبد عند سيده، أي بل يكون صوته دون صوته مع سيده، وإذا كان رفع الأصوات

فوق صوته ﷺ موجباً لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به ﷺ؟ وروي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: والله يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار ـ أي الكلام الخفي الذي يراد كتمه ـ وإن عمر رضي الله عنه كان إذا حدثه حدثه كأخي السراري ما كان يسمع النبي ﷺ حديثه بعد هذه الآية حتى يستفهمه.

وروي أن أبا جعفر أمير المؤمنين ناظر مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله عز وجل أدّب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣] وذم قوماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤] ـ وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً ـ فاستكان لها أبو جعفر.

ومن الأدب معه ﷺ أن لا يجعل دعاءه كدعاء بعضنا بعضاً قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ وفيه قولان للمفسرين:

أحدهما: لا تدعوه باسمه كما يدعو بعضكم بعضاً بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مع التوقير والتواضع.

والثاني: إن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم منزلة دعاء بعضكم بعضاً، إن شاء المدعو أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من إجابته ولم يسعكم التخلف عنها البتة، فإن المبادرة إلى إجابته واجبة والمراجعة بغير إذنه محرمة.

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع مع خطبة أو جهاد أو رباط لم يذهب أحد مذهباً في حاجة له حتى يستأذنه كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُۚ﴾ [النور: ٦٢].

ومن الأدب معه ﷺ أنه لا يستشكل قوله، بل تستشكل الآراء بقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال مخالف تسميه أصحابه معقولاً نعم هو مجهول وعن الصواب معزول ولا يتوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد. فكل هذا من قلة الأدب معه وهو عين الجرأة عليه ﷺ، ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له، والانقياد لأمره وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل على أن يتقدم عليه آراء الرجال، فيوحد التحكيم والتسليم والانقياد للرسول كما وحد المرسل بالعبادة فهما توحيدان لا نجاة إلا بهما.

والقرآن مملوء بالآيات المرشدة إلى الأدب معه ﷺ[1] لما قال المشركون: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الحجر: ٦] أجاب تعالى عنه عدوه بنفسه من غير واسطة فقال: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ * مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ١، ٢].

ولما قالوا: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سبأ: ٨] أجاب تعالى عنه فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

ولما قالوا: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ﴾ [الرعد: ٤٣] أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿يسٓ * وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾.

ولما قالوا: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٦] أجاب تعالى عنه فقال: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧] فصدقه ثم ذكر وعيد خصمائه فقال: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ [الصافات: ٣٨].

ولما قالوا: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ [يس: ٦٩].

ولما حكى الله عنهم قولهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ﴾ [الفرقان: ٤] أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا﴾ [الفرقان: ٤] وقال رداً لقولهم أساطير الأولين: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الفرقان: ٦].

ولما قالوا يلقيه إليه الشيطان قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠].

ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١] أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

ولما قال الوليد بن المغيرة: ﴿فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٤، ٢٥] أجاب تعالى عنه فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢] تسلية له عليه الصلاة والسلام.

ولما قالوا: محمد قلاه ربه، أجاب الله تعالى عنه فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣].

ولما قالوا: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]

---

(١) تقدم طرف من هذا البحث في فصل فضل النبي في القرآن وأعدناه بزيادة لمناسبة أخرى.

أجاب اللّه تعالى عنه فقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

ولما حسدته أعداء اللّه اليهود على كثرة النكاح والزوجات وقالوا: «ما همته إلا النكاح» أجاب اللّه تعالى عنه فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤].

ولما استبعدوا أن يبعث اللّه رسولاً من البشر بقولهم الذي حكاه اللّه تعالى عنهم ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] وجهلوا أن التجانس يورث التآنس، وأن التخالف يورث التباين.

أجاب اللّه تعالى عنه فقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الأحزاب: ٩٥] أي لو كانوا ملائكة لوجب أن يكون رسولهم من الملائكة لكن لما كان أهل الأرض من البشر وجب أن يكون رسولهم من البشر.

كمال أحواله في العبادة

كانت عبادات النبي ﷺ دائمة مستمرة متواصلة في الليل والنهار. سئلت السيدة عائشة رضي اللّه عنها: كيف كان عمل رسول اللّه ﷺ؟ هل كان يخص شيئاً من الأيام - أي ويترك العمل في أيام - فقالت: لا، كان عمله ديمة وأيكم يستطيع ما كان رسول اللّه ﷺ يستطيع[١]؟! ولم يدع رسول اللّه ﷺ نوافله وتطوعاته طيلة عمره كما جاء عن أم سلمة، قالت: ما مات رسول اللّه ﷺ حتى كان أكثر صلاته - أي التطوع - وهو جالس وكان أحب العمل إليه ما داوم عليه العبد، وإن كان شيئاً يسيراً[٢]، وكان له ﷺ أكمل ذوق الحلاوة في العبادة وألذ راحة ونعيم بها.

وقد كان يقول ﷺ: قم يا بلال أرحنا بالصلاة[٣] ويقول ﷺ: وجعلت قرة عيني في الصلاة[٤] وكان منهاجه ﷺ في العبادة: أنه إذا عمل عملاً أثبته وداوم عليه.

كما جاء عن عائشة رضي اللّه عنها أن رسول اللّه ﷺ قال: «أكلفوا من العمل ما تطيقون فإن اللّه لا يمل حتى تملوا، وإن أحب العمل إلى اللّه أدوَمُه وإن قل، وكان ﷺ إذا عمل عملاً أثبته»[٥].

وكان ﷺ يواظب على قيام الليل، وكان أغلب قيامه لصلاة الليل في أول النصف الثاني من الليل، تقول السيدة عائشة، كان ينام أول الليل ويحيي آخره[٦].

وهذا القيام بعد هذا النوم حكم له النبي ﷺ بأنه أحب القيام بقوله: «وأحب القيام إلى اللّه قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»[٧] وذلك ليستريح من نصب القيام فإنه بعد القيام يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم بخلاف السهر إلى الصباح.

---

(١) رواه أبو داود.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٣) رواه أحمد وغيره.

(٤) رواه أحمد وغيره.

(٥) رواه أبو داود.

(٦) رواه الشيخان.

(٧) رواه الشيخان.

وفيه من الحكمة أيضا: استقبال صلاة الصبح وإذكار النهار بنشاط وإقبال، وهذا بالنسبة للصلاة أيضاً أقرب إلى عدم الرياء لأن من نام السدس الأخير أصبح ظاهر اللون سليم الصدر، فهذا أقرب إلى إخفاء عمله في الليل كما ذكر ذلك الحافظ في «الفتح»، وبذلك يكون المتهجد قد نال فضائل تجليات الرب عز وجل في الثلث الثاني والثلث الأخير.

وكانت له أوراد وقراءات قبل أن ينام، فقد جاء إنه كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل ـ أي سورة الإسراء ـ والزمر(١).

وجاء أنه: كان لا ينام حتى يقرأ: الـمّ تنزيل السجدة، وتبارك الذي بيده الملك(٢)، وجاء أنه كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد وقال فيهن: آية أفضل من ألف آية(٣).

وكان ﷺ يواظب على صلاة الضحى وكان تارة يصليها ركعتين وهو أقلها وتارة أربعاً وهو الأغلب وتارة ستاً وتارة ثمانية وتارة اثنتي عشرة ركعة وذلك أفضلها وأكثرها.

وكان إذا صلى الفجر تربع في مجلسه يذكر اللّه حتى تطلع الشمس(٤)، وكانت له نوافل مطلقة بعد المغرب، فتارة يصلي من بعد المغرب إلى العشاء(٥) وتارة يصلي بعد المغرب ست ركعات ويقول: إن من واظب عليها غفرت له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر(٦). ويقول: من صلّى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيما بينهن بسوء عدلن بعبادة ثنتي عشرة سنة(٧).

وكان يكثر من الدعاء ويحث عليه، وكان إذا دعا يرفع يديه حذو منكبيه مشيراً بباطن كفيه نحو السماء تارة إن كان الدعاء بنحو تحصيل شيء، وبظاهرهما إلى السماء تارة إن دعا بنحو دفع بلاء(٨)، وكان يبالغ في رفع يديه في الاستسقاء، وفي مواقف الإستغاثة باللّه عز وجل، والاستنصار على الأعداء، وكان إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطّهما حتى يمسح بهما وجهه(٩)، وكان

(١) رواه الترمذي وأحمد.
(٢) رواه الترمذي والنسائي.
(٣) رواه أحمد وأصحاب السنن.
(٤) رواه مسلم.
(٥) قال المنذر رواه النسائي بإسناد جيد.
(٦) رواه الطبراني.
(٧) رواه ابن ماجه والترمذي وقال غريب انظر الترغيب.
(٨) رواه أبو داود.
(٩) رواه الترمذي والحاكم.

يستقبل القبلة في دعائه[١]، وكان يعجبه أن يدعو ثلاثاً[٢]، ويستغفر ثلاثاً وكان يستحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك[٣]. المراد بجوامع الدعاء ما جمع مع وَجَازته خيري الدنيا والآخرة. فمن جوامع أدعيته: اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار[٤].

ومن جوامع أدعيته: «اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

ومنها أنه كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق»[٥] وقد ذكرت كتب السنن والآثار الكثير من أدعيته الجامعة والتي كان يقولها في المناسبات المختلفة والأزمنة والأحوال.

وكان ﷺ يكثر من التسبيح في الليل والنهار، يقول ربيعة بن كعب: كنت أخدمه نهاري فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول اللّه ﷺ فبت عنده فلا أزال أسمعه يقول: سبحان اللّه سبحان ربي حتى تغلبني عيني فأنام[٦].

وكان ﷺ يكثر من الاستغفار في الليل والنهار في الصلوات ووراء الصلوات، وفي سائر مجالسه وأحواله ويقول: واللّه إني لأستغفر اللّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة[٧] ويقول ابن عمر: كنا نعد لرسول اللّه ﷺ في المجلس الواحد: «رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، مائة مرة»[٨]، وفي رواية: «إنك أنت التواب الغفور».

وكان تارة يقول: «أستغفر اللّه الذي لا إلّه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه مائة مرة في مجلس واحد»[٩]، وكان ﷺ يكثر من الصيام فيتابع الصوم أحياناً حتى يقول القائل: لا يفطر، ويترك ذلك أحياناً حتى يقول القائل: لا يصوم.

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) رواه أبو داود والحاكم.
(٤) رواه الشيخان.
(٥) رواه أبو داود.
(٦) رواه الطبراني.
(٧) رواه البخاري.
(٨) رواه أبو داود وابن حبان وصححه والترمذي.
(٩) أخرجه النسائي بسند جيد.

وكان يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وكان يصوم الاثنين والخميس ويتحرى صيامهما ويقول: إنهما تعرض فيهما الأعمال فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم.

وكان ﷺ يعظم يوم مولده الشريف وهو يوم الاثنين فيصومه ويقول: «ذلك يوم ولدت فيه» كما رواه مسلم في «صحيحه».

وكان يعتني بصيام أكثر شهر شعبان، وكان يواصل الصيام أحياناً، وإذا دخل شهر رمضان اجتهد في قيامه أكثر من غيره، ثم اجتهد في عشره الأخير أكثر وأكثر بالاعتكاف وإحياء كل الليل.

كمال خشيته من الله

كان رسول اللّه ﷺ أشد الناس خشية من اللّه تعالى، وذلك لأنه قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. وهو أعلم العلماء كما جاء في الحديث.

ففي «الصحيحين» عن عائشة رضي اللّه عنها أنها قالت: صنع رسول اللّه ﷺ شيئاً ترخّص فيه، وتنزّه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ فواللّه إني لأعلمهم بالله، وأشدهم له خشية.

وفي هذا الحديث بيان منه ﷺ وإعلان أفضليته على جميع العباد بالعلم باللّه تعالى والخشية من اللّه تعالى، وإن اللّه تعالى قد أعطاه أفضل وأكمل مقام في المعرفة والخشية.

يقول أنس رضي اللّه عنه قال: خطبنا رسول اللّه ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، فقال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، ثم قال: عرضت علي الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً.

فما أتى على أصحاب رسول اللّه ﷺ يوم أشد منه، غطوا رؤوسهم ولهم خنين.

وفي هذا دليل على عظيم خوفه من اللّه تعالى وكثرة بكائه من خشية اللّه تعالى.

ومن كمال خشيته ﷺ أنه كان ﷺ دائم الانكسار والتواضع لربه تعالى في سائر مواقفه الكريمة ومشاهده العظيمة في صلواته وسائر عباداته وسائر شؤونه وقضاياه.

وقد بلغ من خشوعه في صلاته أنه سمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل، ويقول عليٌّ رضي اللّه عنه: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول اللّه ﷺ تحت شجرة يبكي وهو يصلي حتى أصبح، ولما دخل مكة يوم الفتح دخلها خاشعاً لربه تعالى، وصلى اللّه عليه أفضل وأشرف صلاته وعلى آله وصحبه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾

[التوبة : ٧٣]



كمالُ حكمته السياسية وقيادته الحربية

كمال حكمته
في تصريف الأمور السياسية

في سيرة نبينا وسيدنا محمد ﷺ صور واضحة تدل على كمال حكمته وعظيم سياسيته في تصريف الأمور بحل المشاكل، ومواجهة المواقف، وعقد العقود، وإبرام العهود، وحسن التخلص، وبعد النظر، مما يحقق حصول المصالح الظاهرة والباطنة، وجلب المنفعة، ودرء المفسدة، وسد الذرائع، ووضع الأمور في نصابها، والنجاح الذي لم يؤته أحد قبله، ذلك النجاح المقطوع النظير الذي لم يبدل من حاله ناسكاً متعبداً، وزاهداً متواضعاً، وبرّاً رحيماً. والحق الذي لا مراء فيه أن في حياته، وقيادته للأمة، وتولي الحكم، وأدائه الرسالة، الدليل الأكبر الذي أرانا بالفعل لا بالقول ماذا يجب أن يكون به الحاكم في كل المناسبات والأحوال.

لقد جاء ﷺ إلى المدينة والأوس والخزرج فيها حديثو عهد بواقعة بعاث، والعداوة القديمة بينهما تثير الأحداث الجديدة، واليهود يذكون نار الفتنة ويخشون سوء المنقلب، وأصحابه الذين هاجروا إلى المدينة ليس لهم حول ولا قوة، إلا حول اللاجئ المستظل بجوار القوم الذين لا يحبون أهلهم وعشيرتهم.

فكان مركزه بذلك على جانب عظيم من الدقة، ولكنه تناول الموقف بحكمته وحسن تدبيره وكمال عقله، مما برهن على أنه أهل لكل جليل في الأمر. فشرع في الحال ببناء المسجد وفيه كانت الأسس التي وضعها لصلاح الدين والدنيا، وأصبح مكاناً للعبادة ومركزاً للقيادة ومنه تصدر الدعوة إلى اللّه، وفيه يتربى المؤمنون على أكمل الخلال في أشرف الأحوال، وفيه توضع جميع الخطط والتدابير الإدارية والسياسية والعسكرية، وفيه تستقبل الوفود ويلقى العلم.

ومن سياسته ﷺ الرشيدة في حياته الأولى في المدينة أنه لما رأى عدم تجانس أفراد المجتمع لاختلاف عقائدهم، شرع في وضع نظام يضمن حقوق الجميع ويكفل حرية العقيدة وحرمة الدماء والأموال والأعراض تجعلهم جميعاً مكلفين بالدفاع عن البلاد أمام أية اعتداءات عليه متكافلين في الحرب والسلم، وسطر ذلك في صحيفة جاء فيها:

بسم اللّه الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين

والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم إنهم أمة واحدة من دون الناس.

ثم تقرر أن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، ثم تقرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بني عوف. ثم تذكر الصحيفة: أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. إلى أن تقول: وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار وآثم، وإنه لا تُجارُ حرمة إلا بإذن أهلها، وإن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى اللّه عز وجل وإلى محمد رسول اللّه ﷺ.

بهذه الصحيفة انقادت إلى النبي سلطة يثرب الزمنية دون قصد، فقد اقتضت العهود أن تنص على الحكم في حالة الخلاف، ولم يكن إلا هو ليحكم ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الأساسي لدولة الإسلام.

فقضى رسول اللّه ﷺ على الفوضى والإباحة للقوة، وجعل مرجع إقامة الحدود إلى اللّه، أي إلى شريعته وإلى رسوله منفذ هذه الشريعة، وكانت إلى ذلك الحين تتولاها القوة الغاشمة وحدها، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبريء.

من مواقفه السياسية الرائعة الرشيدة: أنه حصلت فتنة بين رجل من الأنصار وأجير لعمر بن الخطاب، وذلك في غزوة بني المصطلق، فاستنصر الأنصاري بالأنصار، واستنصر الأجير بالمهاجرين، وكادت تقع حروب ضروس أراد أن يشعلها ابن أبيّ بن سلول رأس المنافقين، فقام وقد استغل الموقف وعنده زيد بن أرقم غلام بالغ يقول أوَقد فعلوها؟ قد كاثرونا وناقرونا في بلادنا ما مثلنا معهم إلا كما قال الأول «سمّن كلبك يأكلك» واللّه لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذل، فنقل ابن أرقم مقالة ابن أبي بن سلول لرسول اللّه ﷺ فقال عمر: مر به يا رسول اللّه من يقتله، فقال السيد الحكيم: «فكيف يا عمر إذا تحدث الناس إن محمداً يقتل أصحابه» ولكنه اكتفى بأن أمر بالرحيل، فرحل الرسول بالجيش في وقت لم يكن يرحل فيه وسار بهم يومهم ذلك حتى أمسى وليلهم حتى أصبح، سار يومهم التالي حتى آذتهم الشمس وأعياهم الجهد ونال منهم التعب ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياماً.

وكان الغرض النبوي الحكيم من موالاة السر ليلاً ونهاراً، أن لا يشغلوا أنفسهم بما وقع من إثارة الفتنة وزعزعة القلوب، وبذلك وقاهم اللّه شرها نتيجة

لهذه السياسة الرائعة الحكيمة، ولما علم عبد اللّه ابنه وكان من خيار المسلمين بما قال أبوه جاء إلى رسول اللّه ﷺ، وقال: إنه بلغني أنك تريد قتل عبد اللّه بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمرني وأنا آتيك برأسه، فواللّه لقد علمت الخزرج ما كان بها أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار، ترى ماذا يكون جواب الرسول الحكيم والرؤوف الرحيم الخبير بطبائع النفوس؟ يقول في هدوء ورفق «لا يا عبد اللّه بل تترفق بأبيك ونحسن صحبته ما دام معنا».

ولقد كان لهذه السياسة أثرها البعيد في درء الشرور، فقد كان ابن أُبي المنافق كلما أحدث حدثاً أقبل عليه قومه يعاتبوه ويعنفونه ويأخذونه بما صنع ويذكرونه بقول رسول اللّه ﷺ.

ولقد أراد الرسول الكريم في هذا أن يبين لعمر رضي اللّه عنه عمق سياسته المتئدة المتزنة، فقال: «كيف ترى يا عمر أما واللّه لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته وقلبهم يفيض بالحب والتقدير لرسول اللّه: واللّه لقد علمت لأمر رسول اللّه أعظم بركة من أمري».

ومن مواقفه ﷺ الحميدة التي تدل على سياسته الرشيدة موقفه يوم الحديبية وموافقته على شروط الصلح التي كان في ظاهرها ضيم وذلة، ولذلك تأثر بعضهم، ومنهم سيدنا عمر رضي اللّه عنه، ذلك لأن المسلمين لم يكونوا قد تنبهوا للحكمة الجليلة والسياسة الرشيدة التي كان ينظر ﷺ إليها، ولكن ما إن مضت فترة من الزمان حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة وعظيم ما انطوت عليه من خير.

ومن أهم تلك الخيرات حفظ المستضعفين في مكة من المسلمين، وحقن دمائهم لاختلاطهم بالكفار.

ومن فوائده أيضاً إسلام كثير من كفار قريش باختلاطهم بالمسلمين، ومجيئهم إلى المدينة معقل الإيمان والإسلام، وسماعهم من المؤمنين أقواله عليه الصلاة والسلام، ومعجزاته الظاهرة، وحسن سيرته، وإعلام نبوته الباهرة، إلى غير ذلك مما جعلهم يدخلون في دين اللّه أفواجاً، وعلم المسلمون بعد ذلك أن صدهم عن البيت ورجوعهم كان في الظاهر هضماً، وفي الباطن عزاً لهم وقوة، فأذل اللّه المشركين من حيث أرادوا العزة وقهروا من حيث أرادوا الغلبة.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

كمال شجاعته ﷺ

الشجاعة: فضيلة من أسمى الفضائل، وإن شئت فقل إنها حارسة الفضائل والذائدة عنها كل ما يريد أن يمسها، ولقد خص ربنا سبحانه وتعالى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام بالحظ الأوفر من هذه الشجاعة، كما اختصهم من جميع الأخلاق الفاضلة بأعظم نصيب.

وإنما اختصهم بذلك القدر الذي لا يسامى من الشجاعة جرياً على عادته الحكيمة، أنه إذا أراد أن يقيم مخلوقاً في عمل هيأه وأعده لهذا العمل، وآتاه من القوة ما به يستطيع أن يقوم به، وعمل الأنبياء الذي أقامهم تعالى فيه هو دعوة الخلق إلى الحق، وهذه الدعوة لا تكون إلا بمواجهة النبي أمته بما جاء به وطلبه منهم أن يخضعوا له وينبذوا ما هم عليه نبذاً لا رجوع معه إليه أبداً.

ومن أحب أن يعرف مقدار شجاعة الأنبياء، فليقرأ ما جاء في القرآن الكريم متعلقاً بذلك، فهذا سيدنا هود ﷺ ـ يحكي عنه رب العزة قوله لقومه: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥].

وهذا سيدنا موسى لما قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] يقول في شجاعة: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

فالأنبياء أشجع الناس وهو ﷺ من الأنبياء، فهو إذاً مثلهم أشجع الناس بل هو أشجع الأنبياء، لأنه أرسل إلى الناس كافة، وقد كان الأنبياء قبله يرسلون إلى أقوامهم خاصة.

والحكمة الإلّهية تأبى أن تسوي في الشجاعة من يقف أمام طائفة من الناس بمن يقف أمام كل الناس.

وقد كان عليه الصلاة والسلام من الشجاعة والإقدام والثبات أمام الأهوال في أشدها بالمكانة العليا التي لا يدانيه فيها أحد ولا يعلم مقدار سموها إلا من وهبها جلت كلمته، ولهذا حضر النبي ﷺ ما حضر من الغزوات في كل حياته الجهادية، وما حفظ عنه مرة أنه هم بالتأخر عن مقامه قدماً أو أصبعاً، الأمر الذي جعله بين أصحابه ملء العيون والصدور قائداً مطاعاً يبتدر الصغير منهم والكبير إشارته، لا

لأنه رسول اللّه فقط، بل ولما كانوا يرون منه من الشجاعة التي كانوا يرون أنفسهم بالنسبة لها عدماً صرفاً، وفيهم الأبطال الذين كانت تضرب بشجاعتهم الأمثال، وها هو ذا سيدنا علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه يعترف بهذه الحقيقة في صراحة تامة إذ يقول: إنّا كنا إذا اشتد البأس واحمرت الحدق أتينا برسول اللّه ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، رواه أحمد والطبراني والنسائي.

فمن ذلك ما يحكيه سيدنا جابر رضي اللّه عنه إذ يقول: كنا مع النبي ﷺ بذات الرقاع فلما أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ معلق بالشجرة فاخترطه فقال له: تخافني، فقال له: لا، قال: من يمنعك مني، قال: اللّه، رواه البخاري ومسلم.

ومن ذلك ما كان منه ﷺ مع أبيّ بن خلف في غزوة أحد إذ شد ذلك اللعين وهو على فرسه على رسول اللّه ﷺ، فاعترضه رجال من المسلمين فقال النبي ﷺ: هكذا أي خلوا طريقه، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ثم استقبله النبي ﷺ فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه مراراً، فرجع إلى قومه يقول: قتلني محمد وهم يقولون: لا بأس بك، فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال أقتلك؟ واللّه لو بصق علي لقتلني، رواه عبد الرزاق وابن سعد والبيهقي.

ومن ذلك ما رواه الشيخان عن سيدنا أنس رضي اللّه عنه أنه قال: كان رسول اللّه ﷺ أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق الناس قبل الصوت فتلقاهم رسول اللّه ﷺ راجعاً على فرس لأبي طلحة عرى والسيف في عنقه وهو يقول: لا تراعوا.

ومن مواقفه ﷺ المشهورة الضخمة، وكل مواقفه ﷺ ـ ضخمة ـ موقفه يوم حنين، روى البخاري ومسلم وحكى القرآن أن أصحابه رضي اللّه عنهم إلا القليل منهم ولوا عنه يومئذٍ مدبرين رضي اللّه عنهم، واتفقا[١] على أنه ﷺ كان راكباً بغلة، ولفظ مسلم من رواية العباس رضي اللّه عنه، فلما التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين فطفق رسول اللّه ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول اللّه ﷺ أكفها أن لا تسرع.

واتفقا[٢] على أنه ﷺ رمى وجوه الكفار بكف من تراب، ولفظ مسلم عن

---

(١) أي البخاري ومسلم.
(٢) أي البخاري ومسلم.

سيدنا سلمة بن الأكوع رضي اللّه عنه أنه ﷺ نزل عن بغلته وقبض قبضة من تراب فقال: شاهت الوجوه ورمى بتلك القبضة وجوههم فما خلق اللّه منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم اللّه عز وجل.

وفي رواية أخرى لمسلم عن سيدنا العباس: فواللّه ما هو إلا أن رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلاً وأمرهم مدبراً، وفي رواية أخرى لمسلم أنه قال عند رمي تلك الحصيات: انهزموا ورب الكعبة انهزموا ورب الكعبة.

واتفقا على أنه كان يقول في ذلك الوقت الحرج:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

واتفقا على أن أعداءهم كانوا رماة، وحكى القرآن أن العاقبة كانت للمؤمنين، واتفقا على أن ذلك كان بعد أن عاد أصحابه إليه ﷺ بنداء عمه العباس بأمره ﷺ.

كمال قيادته الحربية

والناظر في سيرته ﷺ، في غزواته ومعاملاته لأعدائه يرى مواقف كثيرة تدل على عظيم قيادته، وكمال معرفته وخبرته بأساليب الحروب وحسن تعرفه وإدارته للجيوش، مع أنه لم يتعلم الفنون الحربية ولا الهندسة العسكرية في مدرسة أو كلية، وتتجلى تلك الصور في المعارك الحربية التي خاضها، وفي الخطط الدفاعية التي رسمها، والنظم الحربية التي سنها. لقد انتصر على قلة جيشه في مواقع كثيرة، ودخل مكة مصدر الهجوم ومنبع المؤامرات فاتحاً، وقضى على اليهود وتتبعهم حتى قضى على نفوذهم بعدما غدروا كثيراً بمعاهداته، ولم يكفوا عن المؤامرات والمكايد، ولم تكن سياسته سياسة اعتداء وقهر وظلم وإنما كانت سياسة دفاع ومقاومة وعدل.

وبذلك جمع اللّٰه له بين كمال الأخلاق وحسن السياسة وتصريف الأمور ووضعها في مواضعها.

ومن مواقفه ﷺ الجليلة التي تدل على براعته العسكرية وقيادته الحربية ورعايته بنفسه تنظيم الصفوف واستعراض الجنود، فقد كان يوم بدر يعدل صفوف أصحابه بنفسه وفي يده قدح يعدل به القوم، فكان يقول لهذا تقدم ويشير للآخر تأخر، وحدث أنه كان أثناء ترتيبه وتعديله مر بسواد بن غزيّة وهو خارج عن الصف فطعنه في بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد، فقال يا رسول اللّٰه: أوجعتني وقد بعثك اللّٰه بالحق والعدل فأقدني[1]، قال: فكشف رسول اللّٰه ﷺ عن بطنه وقال: استقد، قال: فاعتنقه فقبل بطنه فقال: ما حملك على هذا يا سواد، قال يا رسول اللّٰه: حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يسم جلدي جلدك، فدعا له بخير.

وفي يوم أحد استعرض الجيش فقَبِلَ أقواماً ورد آخرين فقد عرض عليه أسامة بن زيد وعبد اللّٰه بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري وغيرهم فردهم كلهم.

وفي يوم أحد كان ينظم صفوف أصحابه ويرتب أجنحتهم، ويضع الحامية

(١) أي طلب القود وهو القصاص.

اللازمة في مؤخرة المسلمين، ويأمر الرماة ألا يغادروا مكانهم مهما وجدوا من أمر إخوانهم المقاتلين حتى يتلقوا الأوامر منه ﷺ، فكان في مقدمة المخططين لفنون القتال وطرائقه، آخذاً بالأسباب التي تساعد على خذلان الأعداء وهزيمتهم بإيقاع الفتنة بينهم وتشتيت شملهم وكسر ظهرهم والتضييق عليهم.

ومن ذلك موافقته ﷺ على ما أشار به الحباب بن المنذر؛ وذلك أن النبي ﷺ لما جاء بدراً نزل عند أقرب ماء هناك فقال الحباب: يا رسول اللّه أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه اللّه ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال يا رسول اللّه: فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ماءه من القلب، ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء فنشرب ولا يشربون، فقال رسول اللّه ﷺ: لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول اللّه ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.

ومن مواقفه القيادة المشهورة في هذا الميدان إرساله من يخذل بين صفوف أعدائه مخادعة لهم، كما حصل في يوم الأحزاب حين أتاه نعيم بن مسعود الأشجعي رضي اللّه تعالى عنه فقال: إني أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت، فقال ﷺ: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة، فاذهب فشتت جموع العدو وألق بينهم بدهائك.

فخرج حتى أتى بني قريظة وهم طائفة من اليهود وكان لهم نديماً فقال: قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم، قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان قد جاؤوا من مكة، وتجمعوا على جانب المدينة المنورة، لمحاربة النبي ﷺ وأصحابه، وتحالفت معهم بنو قريظة من اليهود المقيمين في المدينة على ذلك، ليسوا كأنتم ـ أي مثلكم ـ البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون تحولوا منه إلى غيره بغيره ـ أي بغير بلدكم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم، وخلوا بينكم وبينه ـ أي محمد وأصحابه ـ ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلابكم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه، فقالوا لنعيم: لقد أشرت بالرأي، ثم أتى نعيم بن مسعود قريشاً، فقال لأبي سفيان ومن معه: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر رأيت حقاً علي أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموه عني، قالوا: نفعل، فقال نعيم:

إن يهود ندموا على ما صنعوا، وأرسلوا إلى محمد إنا قد ندمنا على ما فعلنا، أيرضيك أن نأخذ من أشراف قريش وغطفان رجالاً نضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم محمد، نعم، قال نعيم: فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً.

ثم إن نعيماً أتى غطفان فقال: إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهموني ـ أي بل أنا مصدق عندكم ـ فقالوا: صدقت وما أنت عندنا بمتهم، قال نعيم، فاكتموا عني، قالوا: نفعل، فقال لهم مثل ما قال لقريش.

وكان من صنع اللّه لرسوله ﷺ أن أبا سفيان ورؤوس غطفان أرسلوا إلى يهود من بني قريظة عكرمة في نفر من القبيلتين، إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر ـ أي الإبل والخيل ـ فاغدوا للقتال، حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه، فأرسلوا ـ أي يهود بني قريظة إليهم ـ إلى قريش وغطفان: إن اليوم يوم السبت لا نعلم فيه شيئاً وكان قد أحدث فيه ـ أي في السبت ـ بعضنا حدثاً، فأصابه ما لم يخف عليكم ـ أي مسخوا ـ ولسنا بمقاتلين معكم حتى تعطونا من رجالكم ويكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإنا نخشى إن اشتد عليكم القتال، أن ترجعوا إلى بلادكم ـ مكة وما حولها وتتركونا والرجل ـ أي محمداً ـ ولا طاقة لنا به. فقالت قريش وغطفان: واللّه إن الذي حدثكم نعيم به لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة، إنا واللّه لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم وخذّل اللّه بينهم، وبعث اللّه عليهم الريح في ليال شديدة البرد، فأكفأت قدورهم، وطرحت أبنيتهم، وهزمهم شر هزيمة.

تعميته الأمور على أعدائه بالتلبيس عليهم

فقد كان ﷺ يلبس أمور الحرب على أعدائه ويعميها عنهم كيلا يتفطنوا لها ويستعدوا للدفع أو يزيدوا في الجمع، وفي ذلك حقن للدماء.

يقول كعب بن مالك: لم يكن رسول اللّه ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة أي غزوة تبوك: الحديث(١).

وفي غزوة بدر قام بنفسه يتحسس أخبار قريش، فركب هو وأبو بكر رضي اللّه عنه حتى وقفا على شيخ من العرب، فسألاه عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال ﷺ: إذا أخبرتنا أخبرناك، فقال الشيخ: أذاك بذاك؟ قال: نعم، قال الشيخ: بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به رسول اللّه ﷺ، وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به قريش.

فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ قال رسول اللّه ﷺ: نحن من ماء ثم انصرفا عنه قال الشيخ: ما «من ماء» أمن العراق؟.

ومن مواقفه ﷺ السياسية الحكيمة أنه لما نقضت قريش صلح الحديبية أرسلت أبا سفيان إلى المدينة يسأل النبي ﷺ تجديد العهد وزيادة المدة فقال: يا محمد إني كنت غائباً في صلح الحديبية فجئت لأجدد العهد فقال ﷺ: فلذلك جئت؟ قال: نعم، فقال: هل كن من حدث؟ فقال أبو سفيان: معاذ اللّه نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل، فقال ﷺ: فنحن على ذلك.

فانظر إلى هذه السياسة النبوية الرشيدة لم يعاتبه ﷺ على نقض العهد ولم يتوعده بالحرب حتى لا تتهيأ نفوسهم للتفكير في حرب ولا يعدون العدة لذلك.

ولذلك فإنهم ما أحسوا إلا والنبي ﷺ قريب من مكة مع جيوشه.

---

(١) رواه الشيخان.

اهتمامه بمعرفة حالة الأعداء وعددهم واستعدادهم وأخبارهم قبل لقائهم

ففي غزوة بدر أيضاً بعث ﷺ عليّاً والزبير وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له، فوجدوا سقاة لقريش فأتوا باثنين منهم، فأخذ ﷺ يسألهما بنفسه فقال لهما: أخبراني عن قريش قالا: هم واللّه وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، قال: كم هم؟ قالا: كثير، قال: ما عدتهم؟ قالا: لا ندري قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً ويوماً عشراً، فقال ﷺ: القوم ما بين تسعمائة وألف، ثم قال لهما: فمن فيهم من أشراف قريش؟ قال: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام، وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد، وأبو جهل، وأمية بن خلف، والنضر بن الحارث، حتى عد جماعة من كبرائهم، فأقبل رسول اللّه ﷺ على الناس فقال: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

وفي غزوة حنين وقبل أن تدور المعركة وجه ﷺ عبد اللّه بن أبي حدرد الأسلمي، وأمره أن يدخل معهم ويقيم حتى يعلم خبرهم ويأتيه به، فانطلق فدخل عسكرهم فطاف بهم وجاء بخبرهم ومما سمعه من مالك أنه يقول لأصحابه: إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقى قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم، فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم، ثم صفوا، ثم تكون الحملة منكم، واكسروا جفون سيوفكم فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون، واحملوا حملة رجل واحد، اعلموا أن الغلبة لمن حمل أولاً، فأقبل عبد اللّه حتى أتى رسول اللّه ﷺ فأخبره الخبر.

وفي يوم الأحزاب أرسل رسول اللّه ﷺ حذيفة ليكتشف خبر الأعداء، وقد تحدث حذيفة بنفسه عن تلك المهمة الخطيرة التي قام بها، فقال: كنا مع رسول اللّه ﷺ بالخندق، فقال ﷺ: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع؟ يشرط له رسول اللّه ﷺ الرجعة أسال اللّه تعالى أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد، فلما لم يقم أحد

دعاني رسول اللّه ﷺ، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال: يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا، قال: فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود اللّه تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه، قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان بن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم واللّه ما أصبحتم بدار مقام ولقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره ولقينا من شدة الريح ما ترون ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث فواللّه ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول اللّه ﷺ إليَّ[1] أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول اللّه ﷺ وهو قائم يصلي فأخبرته الخبر، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم.

وهذه القصة التي ذهب لكشفها سيدنا حذيفة بن اليمان غير قصة سيدنا الزبير، فإنها كانت لكشف خبر بني قريظة هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين ووافقوا قريشاً على محاربة المسلمين؟ فروى البخاري وغيره عن جابر أنه عليه الصلاة والسلام قال يوم الأحزاب: من يأتيني بخبر القوم؟ يعني بني قريظة كما بينه الواقدي، فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟ فقال الزبير: أنا، ثم قال: إن لكل نبيّ حوارياً وإن حواريي الزبير.

(١) إليّ بتشديد الياء.

أخذه بالتهديد والتخويف لأعدائه قبل لقائه بهم

ومن سياسته ﷺ في ذلك أنه لما وصل إلى وادي فاطمة أمر أن يوقد كل مسلم ناراً لتراها قريش فترعب من كثرتها، فأوقدوا عشرة آلاف نار، حتى أن أبا سفيان لما أبصر هذه النار الكثيرة دخل قلبه الرعب، وقال: ما هذه النيران لكأنها نيران عرفة، وكان قد جرت عادتهم بإيقاد النيران الكثيرة ليلة عرفة.

وكان قد خرج في تلك الليلة أبو سفيان وبديل بن ورقاء، يتحسسان الأخبار فأثر فيهما ذلك المنظر تأثيراً عجيباً، وصارا يتحدثان عن ذلك باهتمام وخوف وانزعاج مما كان له الأثر الكبير في استجابة أبي سفيان وطلبه الأمان من رسول اللّه ﷺ لأهل مكة.

ثم كان ﷺ من عظيم سياسته في هذه الغزوة أيضاً أن أعلن أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فكان في هذا منه غاية السياسة والحكمة.

ثم تجلت سياسته ﷺ أيضاً في أمره للعباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الجبل حتى تمر به جنود اللّه فيراها ففعل، فمرت القبائل على رايتها كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ قال العباس: فأقول: سليم، قال: ما لي ولسليم ثم تمرّ به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألني عنها فإذا أخبرته بهم قال: مالي ولبني فلان حتى مر به رسول اللّه ﷺ في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها، قال: سبحان اللّه يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت هذا رسول اللّه ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة.

ومن ذلك ما فعله ﷺ مع بني النضير لما تحصنوا في حصونهم فحاصرهم ﷺ وأمر بقطع نخيلهم وإتلافها بالإحراق بالنار والذي أتلفه ﷺ إنما هو البعض وترك الباقي، وقد نزل القرآن مصوباً ما أقدم عليه ﷺ من ذلك قطعاً وإبقاء وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٥].

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ﴾

[آل عمران: ١٥٩]



كمال خُلُقِه في سياسة وتربية الأمَّة وكريم معاشرته لهم عامة ولأهله وأصحابه خاصّة

أكمل حديث في الشمائل

من أكمل ما جاء في وصفه حديث الحسين عن أبيه علي بن أبي طالب رضي اللّه عنهما، إذ تحدث فيه عن جملة من أحواله، وفيما يتعلق بمعاملة الخَلْق ومعاشرتهم، يقول علي رضي اللّه عنه في الحديث المشهور في الشمائل:

وكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم، والأمة[(١)] من مسألتهم عنه وأخبارهم بالذي ينبغي لهم ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يستطيع أبلاغها فإنه: من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ثبت اللّه قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره يدخلون رواداً[(٢)] ولا يفترقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة ـ يعني على الخير.

قال الحسين رضي اللّه عنه: فسألت أبي ـ علياً رضي اللّه تعالى عنه مخرجه، كيف كان يصنع فيه؟ قال: كان رسول اللّه ﷺ يخزن لسانه إلا فيما يعنيه[(٣)]، ويؤلفهم ولا ينفرهم[(٤)]، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم[(٥)]، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بشره وخلقه[(٦)]، ويتفقد

---

(١) يتشاغل بهم ـ أي يكون مشغولاً بإجابة طلباتهم وأسئلتهم وقضاء حاجاتهم، يشغلهم أي يشغلهم فيما يصلحهم وينفعهم.
والمقصود أنه ما كان ﷺ يترك جزءاً من الزمن فارغاً عما ينفع الأمة ويصلح أمرها، وما كان يترك أصحابه في فراغ من الوقت وبطالة من العمل بل كان ﷺ يشغلهم بما يصلحهم وينفعهم ويصلح الأمة وينفعها.

(٢) الرواد: بضم فتشديد جمع رائد وهو الطالب والمراد أن الناس يدخلون عليه ﷺ طالبين نفعهم في دينهم ودنياهم فلا يخرجون من عنده ﷺ ألا وهم مكرمون ظفرون.

(٣) أي فلا يتكلم ﷺ إلا فيما يعنيه.

(٤) أي يؤلف الناس بكريم معاشرته وحسن مقابلته ولا ينفرهم عنه بغلظة أو فظاظة أو كلمات مؤذية.

(٥) أي أنه يكرم كريم القوم بما يناسبه من التكريم والحفاوة ويجعله والياً عليهم وأميراً مدبراً لأمورهم، وهذا من تمام حسن نظره ﷺ وحكمة تدبيره وتنظيمه وإعطائه المراتب حقها.

(٦) أي يحذر الناس الذين هم حديثو عهد بالإسلام ولم يخبرهم ولم يجربهم في مهام الأمور ويحترس منهم ولكنه لا يطوي عنهم بشره وحسن مقابلته وطلاقة وجهه ﷺ.

أصحابه ويسأل الناس عما في الناس[١] ويحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه. معتدل الأمر غير مختلف[٢] لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا، لكل حال عنده عتاد[٣] لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه[٤].

الذين يلونه من الناس خيارهم أفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

وقال الحسين: فسألته ـ أي علياً رضي اللّه عنه ـ عن مجلسه ﷺ كيف كان؟ فقال: كان رسول اللّه ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر اللّه تعالى، ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها.

وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك.

يعطي كل جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف[٥].

ومن سأله حاجة لم يردّه إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه بسطه وخلقه فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم[٦]، ولا تثنى فلتاته[٧]، متعادلين بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى متواضعين، يوقرون فيه الكبير، ويرحمون فيه الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

(١) أي أنه ﷺ كان يتفقد أصحابه خاصة كما وأنه يبحث عن أحوال الأمة عامة فيسأل الناس الذين عندهم معرفة بأحوال الناس عما في الناس من الأحوال السارة أو المكروهة وعما في الناس من سعة وضيق وشدة ورخاء وفرح وترح فيفرح لفرحهم ويسر لما يسرهم ويحزن لما يحزنهم ويسعى في رفع المكاره والمساوئ عنهم.

(٢) أي أن جميع أفعاله ﷺ وأقواله على غاية من الاعتدال.

(٣) أي لل حال من الأحوال عنده عدة أعدها لتلك الحالة وهيأ لكل أمر من الأمور.

(٤) أي المقربوزن عنده ﷺ من الناس خيار الناس وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأكثرهم خيراً ونفعاً للأمة في دينها ودنياها وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة.

(٥) صابره أي غلب جليسه ومفاوضه في الصبر على المجالسة مهما طالت المكالمة ولا يعاجله ﷺ بالقيام عن المجلس أو بقطع كلامه ولا يظهر له الملل والسآمة.

(٦) الابن: بفتح الهمزة هو العيب. والحرم: جمع حرمة وهي ما يحترم ولا يحل انتهاكه ـ والمعنى ـ أن مجلسه ﷺ لا تعاب فيه حرم الناس ولا تنتهك بقذف أو غيبة ونحوهما بل مجلسه ﷺ مصون عن كل قول قبيح وعن كل فعل سيئ.

(٧) الفلتات: جمع فلتة، وهي ما يبدر من الرجل من سقطة أو هفوة، والمعنى أنه لا فلتات في مجلسه ﷺ أصلاً فلا يصدر من جلسائه ﷺ زلات في مجلسه حتى تذاع بل المجلس حصين بالأدب والكمال.

وقال الحسين: وسألت أبي ـ علياً رضي اللّه عنه ـ عن سيرة النبي ﷺ في جلسائه؟ فقال: كان رسول اللّه ﷺ دائم البشر سهل الخلق لين الجانب[١] ليس بفظ[٢] ولا غليظ[٣] ولا صخّاب[٤] ولا فحّاش[٥] ولا عيّاب[٦] ولا مشّاح[٧]. وفي نسخة صحيحة: ولا مداح[٨] ولا مزاح.

يتغافل عما لا يشتهي[٩] ولا يؤيس منه راجية[١٠] ولا يخيب فيه، قد ترك نفسه من ثلاث: المراء، والإكثار، وما لا يعنيه. وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً، ولا يعيبه، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث، ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم[١١] يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته حتى إن كان أصحابه ليستجلبونهم[١٢] ويقول: إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه[١٣]، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ[١٤] ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام.

ومن كمال أدبه ﷺ في معاملة الخلق تغافله عن سفه المبطلين وقبوله ظواهر أقوالهم وإن كانت تنم عن قبح نواياهم وسوء مقاصدهم.

ومن ذلك أن جماعة من اليهود استأذنوا على رسول اللّه ﷺ فقالوا: السام

---

(١) أي كثير اللطف سريع العطف.
(٢) أي ليس هو ﷺ بسيئ الخلق.
(٣) أي ليس بالجافي الطبع الشديد القاسي.
(٤) أي لا يرفع صوته بالصياح.
(٥) أي لا يتكلم بكلام قبيح.
(٦) أي لا يعيب إنساناً ولا حيواناً ولا طعاماً.
(٧) المشاحة هي المتضايقة في الأشياء.
(٨) أي ليس مبالغاً في مدح شيء من مباحات الدنيا.
(٩) يتغافل أي يظهر الغفلة والإعراض عما لا يستحسنه من الأقوال والأفعال التي تصدر من بعض الجلساء تلطفاً ورفقاً بالجلساء.
(١٠) أي من رجاه في أمر لم يقطع رجاءه ولم يجعله آيساً.
(١١) أي أن الذي يتقدم في الكلام أولاً من أهل المجلس هو أولهم مجيئاً.
(١٢) أي إنه كان الصحابة ليستجلبون الغرباء ويرغبون في حضورهم مجلس النبي ﷺ ليستفيدوا بسبب أسئلتهم.
(١٣) أي فأعينوا صاحب الحاجة على حاجته حتى يصل إليها.
(١٤) أي مقارب في مدحه غير مفرط ولا مفرط.

عليكم، فقالت عائشة: بل عليكم السام واللعنة، فقال ﷺ يا عائشة: إن اللّٰه يحب الرفق في الأمر كله، قالت: ألم تسمع ما قالوا، قال: قد قلت: وعليكم، رواه مسلم في «صحيحه»[1].

فهو ﷺ يعلم أنهم يقصدون معنى آخر غير السلام وهو «السام» أي الموت أو السلام بكسر السين وهي الحجارة، ولكنه أجرى ذلك على ظاهره منهم مع حفظ كرامة المسلمين بقوله في الجواب «وعليكم».

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٤٦.

كريم عشرته
مع الأهل وذوي القربى

كان ﷺ كريم العشرة مع زوجاته وسائر أهله يلاطفهن ويمازحهن ويعاملهن بالود والإحسان، وقد حث ذلك بقوله: «خيركم خيركم لأهله[١] وأنا خيركم لأهلي» وقوله: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله»[٢].

وسئلت السيدة عائشة كيف كان ﷺ إذا خلا في بيته فقالت: «كان ألين الناس بسّاماً ضحّاكاً»[٣].

ومن كريم معاشرته لأهله ما جاء في «الصحيح» عن السيدة عائشة رضي اللّه عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ وكان صواحبي يلعبن معي، فكان النبي ﷺ إذا دخل ينقمعن منه أي تغيبن ودخلن في بيت أو من وراء ستر فيسرِّبهن ـ أي فيرسلهن واحدة واحدة إلي فيلعبن معي. قال في المشارق: البنات هي اللعب والصور التي يلعب بها الصبيان، قلت: وهي التي تسمى اليوم بعرائس الأطفال.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: استدل بهذا الحديث على جواز اتخاذ صور البنات من اللعب لأجل لعب البنات بهن، وخص ذلك من عموم النهي عن اتخاذ الصور، وبه جزم عياض ونقله عن الجمهور وأنهم أجازوا بيع اللعب للبنات لتدريبهن في صغرهن على أمر بيوتهن وأولادهن، وذهب بعضهم إلى أنه منسوخ.

وروى أحمد عن عائشة أن النبي ﷺ دخل عليها وهي تلعب بالبنات ومعها جواد فقال: ما هذا يا عائشة قالت: هذا خيل سليمان، قالت: فجعل يضحك من قولها، قال الإمام أحمد غريب.

وفي «الصحيح» أنها كانت في متاع عائشة لما تزوجها ﷺ. قال ابن حزم كما نقله السفاريني: وجائز للصبيان خاصة اللعب بالصور ولا يجوز لغيرهم، والصور محرمة إلا هذه وإلا ما كان رقماً في ثوب[٤].

---

(١) (٢) رواهما الترمذي.

(٣) رواه ابن سعد.

(٤) انظر شرح منظومة الأدب للسفاريني.

ومن كريم عشرته ﷺ مع أهله ما جاء عن السائب بن يزيد: أن امرأة جاءت إلى رسول اللّه ﷺ فقال: «يا عائشة تعرفين هذه»، قالت: لا يا نبي اللّه، قال: «هذه قينة بني فلان تحبين أن تغنيك فغنتها»(١).

فانظر إلى هذه المعاملة النبوية الكريمة، فإنه ﷺ يستدعي من عائشة أن تغنيها ولم تسأله هي ذلك وإنما ابتدأها به.

ومن كريم عشرته ﷺ مع أهله أنه كان يسابق زوجته عائشة وقد سابقها مرة فسبقته هي حتى إذا ما مضت فترة قال لها: تعالي أسابقك، تقول السيدة عائشة وكنت بدنت وسمنت، فسبقني وجعل يضحك ﷺ ويقول هذه بتلك.

وكان ﷺ في مهنة أهله(٢) أي يعاونهم في أمورهم البيتية.

وكان يستمع إلى حديث زوجاته بالملح والفكاهات تأنيساً لهن وملاطفة، فقد جلس يوماً يستمع لقصة إحدى عشرة امرأة تعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً، فأخذت كل واحدة تصف أحوال زوجها من خير وشر، وكانت التي تحكيها له زوجه السيدة عائشة رضي اللّه عنها وهو يستمع باهتمام وعناية(٣).

ولا يخفى إكرامه ﷺ لمرضعته حليمة السعدية وأخته بالرضاع الشيماء، وبسببهما أكرم بني سعد كلهم، فكانت أبرك امرأة على قومها.

---

(١) رواه أحمد وأبو داود.

(٢) رواه البخاري.

(٣) القصة رواها الشيخان.

كريم عشرته
مع الناس في الحديث

كان ﷺ يصغي كل الإصغاء إلى من يحدثه أو يسأله ويقبل عليه ويلاطفه.

يقول أنس: ما رأيت رجلاً إلتقم أُذُنَ النبي ﷺ - يعني يكلّمه سراً - فينحّي رأسه عنه حتى يكون الرجل هو الذي ينحّي[(١)].

ويقول عمرو بن العاص: كان ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على شر القوم يتألفه بذلك[(٢)].

«في المقابلة».

وكان إذا قابل أحداً وصافحه لا ينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسله[(٣)]، وكان أطلق الناس وجهاً، وأكثرهم تبسماً، وإذا أقبل عليه قادم رحب به، وقد قال لعمار لما قدم عليه: مرحباً بالطيب المطيب[(٤)]، وإذا سلم عليه مسلم رد التحية بأحسن منها وإذا قدم عليه قادم رحّب به أجمل ترحيب، وإذا جلس إليه أصحابه يسألهم عن أحوالهم بقوله كيف أنت؟ كيف أصبحت فإذا قال بخير أحمد اللّه قال له ﷺ: جعلك اللّه بخير، وإذا دخل عليه كريم قوم أو عزيز أكرمه وبسط له رداءه وكساءه، وقد جاءه يوماً جرير البجلي وكان المجلس غاصّاً بأهله من أصحابه فلم يجد مكاناً فقعد على الباب، فنزع رسول اللّه ﷺ رداءه وألقاه إليه فأخذه جرير فألقاه على وجهه جعل يقبله ويبكي ورمى به إلى النبي ﷺ، وقال: ما كنت لأجلس على ثوبك أكرمك اللّه كما أكرمتني، فنظر ﷺ يميناً وشمالاً وقال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه[(٥)].

وكان يقدم كبير القوم في الكلام والسؤال ويقول: كبر كبر[(٦)].

وكان ﷺ يبسط لجلسائه بساط الإنطلاق الشرعي المباح القال والحال دون

---

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه الطبراني وإسناده حسن كذا في المجمع.
(٣) رواه البزار والطبراني كما في المجمع.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه العسكري بسند ضعيف كذا في المقاصد.
(٦) رواه البخاري.

أن يقبضهم بحاله أو يكبتهم بقاله، فإذا تحدثوا بأمر شاركهم ما لم يكن إثماً. يقول خارجة بن زيد: كنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا[١].

ويقول جابر بن سمرة وكانوا يتحدثون في أمر الجاهلية فيضحكون ويبتسم ﷺ[٢].

وكان ﷺ يمزح مع أصحابه لإدخال السرور عليهم، ومن ذلك أنه جاءه رجل يستحمله ـ أي يطلب منه دابة ـ فقال له ﷺ: إني حاملك على ولد الناقة، فقال يا رسول اللّه: ما أصنع بولد الناقة، فقال ﷺ: وهل يلد الإبل إلا النوق[٣].

وكان ﷺ يمزح مع رجل من البادية اسمه زاهر ويقول: إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه[٤].

وروى ابن بكار عن زيد بن أسلم: أن امرأة يقال لها أم أيمن الحبشية جاءت إلى رسول اللّه ﷺ فقالت: إن زوجي يدعوك فقال: من هو؟ أهو الذي بعينه بياض؟ فقالت: ما بعينه بياض، فقال: بلى بعينيه فقالت: لا واللّه فقال ﷺ: ما من أحد إلا بعينيه بياض ـ أي البياض المحيط بالحدقة.

ومن ذلك أن عجوزاً أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول اللّه أدع اللّه أن يدخلني الجنة فقال: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز، قال: فذهبت وهي تبكي فقال ﷺ: «أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن اللّه تعالى يقول: عرباً أتراباً»[٥] ومعنى قوله أتراباً أي متساويات في سن واحدة.

وكان ﷺ كثيراً ما يبتسم في وجوه أصحابه حين يلقاهم وفي حديثه إليهم تلطفاً بهم ومؤانسة لهم.

تقول أم الدرداء: كان أبو الدرداء إذا حدّث حديثاً تبسم فقلت: لا يقول الناس إنك أحمق ـ أي بسبب تبسمك في كلامك فقال أبو الدرداء: ما رأيت أو سمعت رسول اللّه ﷺ يحدث حديثاً إلا تبسم، فكان أبو الدرداء إذا حدّث حديثاً تبسم اتباعاً لرسول اللّه ﷺ[٦].

---

(١) قال شيخنا عبد اللّه سراج الدين في كتابه عن الشمائل المحمدية رواه الترمذي والطبراني بسند حسن.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الترمذي وأبو داود وأحمد.
(٤) رواه الترمذي.
(٥) رواه الترمذي.
(٦) التراتيب الإدارية ١/ ٣٩.

وكان عبد اللّه الملقب بين الصحابة بحمار كان يضحك رسول اللّه ﷺ وكان يهدي لرسول اللّه ﷺ العكة من السمن أو العسل ثم يجيء بصاحبها فيقول أعطه الثمن. قال شيخنا الكتاني في التراتيب ترجم له في الإصابة وترجم لسويبط بن حرملة العبدري وذكر قضايا من أفعاله، فذكر أن النبي ﷺ ضحك هو وأصحابه منها حولاً كاملاً.

ومن كريم عشرته لأصحابه ما جاء في الحديث: أن الحبشة جاؤوا بحرابهم يلعبون في المسجد، فكان المصطفى ﷺ يريهم لعائشة وهي متكئةً على منكبه[١]، وفي رواية، كانت الحبشة يرقصون ويقولون محمد عبد صالح[٢].

قلت وقد ثبت أن بعض كبار الصحابة حجل بين يديه ﷺ وهو ينظر: والحجل: هو رقص على هيئة مخصوصة.

روى ابن سعد أن النبي ﷺ قال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقِي فقام جعفر فحجل حول رسول اللّه ﷺ - أي دار. وفي رواية أنه قال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا فقام الثلاثة كلهم فحجلوا حوله وبين يديه[٣].

وفي رواية عند أبي داود فقام جعفر فحجل وقام زيد فحجل، قال العراقي وسنده حسن، قال الحافظ السيوطي وذلك من لذة الخطاب ولم ينكر عليه ﷺ.

قلت: وقد أخرج البيهقي عن المطلب بن عبد اللّه أن رسول اللّه ﷺ قال: ألهوا والعبوا فإني أكره أن أرى في دينكم غلظة.

وأخرج الحاكم عن عائشة رفعته هل كان معكم من لهوٍ فإن الأنصار يحبّون اللهو، وفي هذا دليل لطلب ترويح النفس إذا سئمت، وجلاها إذا صدأت باللهو واللعب المباح، وقد كان أكثر ضحكه ﷺ هو التبسم.

وكان ﷺ يلاطف الصبيان ويسلم عليهم ويمسح رؤوسهم[٤]، وكان أحياناً يصف[٥] عبد اللّه وعبيد اللّه وكثير بني العباس ثم يقول: من سبق إليّ فله كذا وكذا، قال: فيسبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره ﷺ فيلتزمهم ويقبلهم[٦].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أحمد والمسند انظر الفتح.
(٣) انظر تخريج أحاديث الإحياء للعراقي ٢/١٤٩.
(٤) قال شيخنا عبد اللّه سراج الدين رواه ابن حبان في زوائده.
(٥) أي يجعلهم في صف واحد.
(٦) رواه أحمد في المسند بإسناد حسن.

وكان إذا رجع من سفر تلقاه الصبيان من أهل بيته فرحاً به لما يعلمون من لطفه وشفقته، فكان يحمل هذا على يديه وهذا يردفه خلفه ﷺ.

وكان ﷺ أشدّ الناس وقاراً وأعظمهم أدباً وأرفعهم فخامة وكرامة. يقول خارجة بن زيد: كان ﷺ أوقر الناس في مجلسه لا يكاد يخرج شيئاً من أطرافه[١]، ومعنى أنه ما كان يخرج شيئاً من أطرافه ـ أي من بزاق فمه أو مخاط أنفه أو قطع ظفره.

في المعاملة

كان ﷺ يكافئ الإكرام بأفضل إكرام وقد قام بنفسه يخدم وفد النجاشي لما جاؤوه. فقال له أصحابه: نحن نكفيك ـ أي نكفيك القيام بضيافتهم وإكرامهم ـ فقال ﷺ: «إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم»[٢].

وكان ﷺ لا يضيع الإحسان ولا ينكر الجميل والمعروف لإنسان عمل معه معروفاً أو صنع معه جميلاً يذكره له ويقابله بما هو أحسن وأكرم وأجمل وقد أكرم قبيلة هوازن عفا عنهم لإكرامهم له بالرضاع وأكرم أخته الشيماء بنت حليمة لما وفدت لأنها أكرمته بحضانتها له.

وكان يكرم أصدقاءه وأقارب زوجة السيدة خديجة لمعروفها وإحسانها الذي لا ينساه بل كان يشكر على أقل من ذلك، فقد رأى أبو أيوب على لحيته ﷺ ريشة فابتدر فأخذها فقال له ﷺ: نزع اللّه عنك ما تكره[٣] ورأى عمرو بن أخطب الأنصاري شعرة في القدح ـ أي قدح الماء ـ الذي سيشربه ﷺ فابتدر فأخذها وأزالها من القدح فقال له: اللهم جمله، قال الراوي: فرأيت عمراً وهو ابن تسعين سنة وليس في لحيته شعرة بيضاء[٤].

وفي يوم بدر نهى ﷺ عن قتل أبي البختري بن هشام، وهذا في مقابلة إكرامه للمسلمين بمكة، وذبه عن رسول اللّه ﷺ وعدم إيذائه له، بل كان يبعث لبني هاشم لما كانوا في الشعب بالأطعمة الكثيرة، ولما لامه أبو جهل قال أبو سفيان: دعوه كريم وصل رحمه، وقد سعى في نقض الصحيفة التي كتبتها قريش في منابذته ﷺ.

وكان ﷺ يتفقد أصحابه وقد مر في وصفه قول هند بن أبي هالة: وكان ﷺ يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، والمعنى أنه كان يسأل عنهم حال غيبتهم عنه.

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل.

(٣) رواه الطبراني كذا في المجمع وفيه أنه كان يطوف بين الصفا والمروة.

(٤) رواه أحمد والطبراني.

ويقول أنس: كان ﷺ إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له وإن كان شاهداً ـ أي حاضراً ـ في البلد زاره، وإن كان مريضاً عاده(١).

وكان ﷺ يزور أصحابه ليكرمهم وليدخل السرور عليهم، وكان يكثر زيارة الأنصار(٢) وقد يصلي في بيت من يزوره(٣) لتنالهم بركته فيتبركون بموضع صلاته.

وكان يزور ضعفاء المسلمين ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم(٤).

ويبشرهم بما يجبر خاطرهم وينسيهم ما هم فيه من فقر وضيق فيقول لهم: أبشروا يا صعاليك ـ أي فقراء ـ المهاجرين بالنور التام يوم القيامة تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذلك خمسمائة سنة.

وكان ﷺ في معاشرته للناس شديد الحياء والتواضع، واسع الصدر، حليماً كريماً، عفوّاً رحيماً، صابراً يفوق صبره صبر الصابرين، أعدل خلق اللّه في حقوق اللّه وحقوق الخلق، يحفظ الود ويحسن العهد، ويوفي بالوعد وإن شق ذلك عليه، ويتحمل جفوة الأعرابي ويلاطفه ويقابل غلظته بلطيف المقال والحال.

وكان ﷺ في طريقة معاشرته لأصحابه ومعاملته لهم يشعرهم بتمام الثقة بأنفسهم، والاعتداد بأنفسهم وذلك بمشاورتهم.

ويحث على هذا المبدأ السامي بقوله: المستشار مؤتمن(٥) وقوله: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار(٦).

ويقول أبو هريرة: ما رأيت أحداً أكثر مشاورة لأصحابه من النبي ﷺ.

وقد شاور ﷺ أصحابه في عدة أمور منها في يوم بدر للقاء قريش.

ومنها أنه شاورهم في المكان الذي ينزلون فيه يوم بدر، وشاورهم في أحد هل يخرج أو يقعد فأشار أكثرهم بالخروج فخرج، وشاورهم يوم الخندق في المصالحة، وقال في قصة الإفك: أشيروا عليّ، وإذا أشاروا برأي حسن أخذه وعمل بمقتضاه، وأعلن ذلك صوبه وحسنه تكريماً لصاحبه، وتنشيطاً لهمته، وتقديراً لموقفه في مواضع الخبرة.

---

(١) رواه أبو يعلى كذا في المجمع.

(٢) رواه أحمد ونحوه عند الترمذي وحسنه.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) رواه الحاكم وأبو يعلى.

(٥) رواه الإمام أحمد وأصله في السنن.

(٦) رواه الطبراني في الأوسط وله شواهد كثيرة تقوي ضعفه.

جبره للخاطر

من كمال أدبه ﷺ في معاملة الخلق جبره للخاطر وتطييبه للنفوس.

ومواقفه ﷺ في ذلك مشهورة، ومن مواقفه في ذلك قوله ﷺ: لولا الهجرة لكنت أمرأً من الأنصار، رواه البخاري بسنده عن أبي هريرة في كتاب فضائل الصحابة.

والمعنى لانتسبت إلى دارهم المدينة أو لتسميت باسمهم وانتسبت إليهم كما كانوا يتناسبون بالحلف، لكن خصوصية الهجرة سبقت فمنعت من ذلك وهي أعلى وأشرف فلا تتبدل بغيرها، ومعلوم أن مراده بذلك تألفهم واستطابة نفوسهم والثناء عليهم في دينهم وجبر خواطرهم، وليس المراد الانتقال عن نسب آبائه لأنه يمتنع قطعاً لا سيما ونسبه عليه الصلاة والسلام أشرف الأنساب.

ومن ذلك موقفه ﷺ من الأنصار لما أعطى غيرهم وتركهم فقال لهم ما جبر خواطرهم وأدخل عليهم سروراً عظيماً لا يقدر قدره.

قال: أو لا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم وترجعوا برسول اللّه ﷺ إلى بيوتكم، لوسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعبهم، رواه البخاري في المناقب.

ومن ذلك قوله لرجل من الأنصار طلب من النبي ﷺ أن يستعمله فكأنه لم يتحصل على ذلك المطلوب فقال له: إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، رواه البخاري في المناقب، ومعنى قوله ستلقون بعدي أثرة أي عدم عناية.

ومن ذلك أن النبي ﷺ لما دخل مكة في عمرة القضاء فتبعتهم ابنة حمزة تقول: يا عم يا عم، فتناولها علي رضي اللّه عنه فأخذ بيدها فقال لفاطمة رضي اللّه عنها: دونك ابنة عمك احمليها.

قال: فاختصم فيها عليٌّ وزيد وجعفر فقال علي: أنا أحق بها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي فقضى بها النبي ﷺ لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي: أنت مني وأنا منك، وقال

لجعفر: أشبهت خَلْقِي وخُلُقِي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، رواه البخاري في كتاب الصلح، فحكم لجعفر وأرضى الرجلين.

وجاء في رواية أخرى ما يفيد أن للحديث سبباً آخر وهو ما رواه أسامة بن زيد عن أبيه قال: اجتمع علي وجعفر وزيد بن حارثة فقال جعفر: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، وقال علي: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، وقال زيد: أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ نسأله، قال أسامة فجاؤوا يستأذنونه فقال: أخرج فانظر من هؤلاء فقلت: هذا جعفر وعلي وزيد. ما أقول أبي[١]، فقال: ائذن لهم فدخلوا فقالوا: يا رسول الله من أحب إليك؟ قال: فاطمة، قالوا: نسألك عن الرجال فقال: أما أنت يا جعفر فأشبه خلقك خلقي وأشبه خلقي خلقك وإنك مني وشجرتي، وأما أنت يا علي فختني وأبو ولدي وأنا منك وأنت مني، وأما أنت يا زيد فمولاي ومني وإلي وأحب القوم إلي: (أخرجه أحمد كذا في ذخائر العقبى) فأنت تراه ﷺ قد جبر خواطر الجميع وأدخل عليهم السرور.

ومن ذلك قوله ﷺ: سلمان منا أهل البيت، وهو حديث رواه الطبراني والحاكم وسنده ضعيف (كذا في كشف الخفا ١/ ٤٦٠).

(١) يقول أسامة إني لم أقل جاء أبي بل قلت (زيد) باسمه.

حسن طريقته في العتاب والتأديب

العتاب طريق من طرق التأديب والتهذيب، وقد كان ﷺ يستعمله إذا اقتضت الحاجة ذلك كتربية أو تنبيه ولكنه ﷺ كان يسلك في العتاب طرقاً مختلفة وأساليب متعددة يراعي فيها الأحوال والمقتضيات، فتراه يعتب تارة بالإشارة، وحيناً بالعبارة، وحيناً آخر بالمخاصمة، وقد يكون أيضاً بالإعراض، وقد يكون بالهجر والترك، وقد يكون بما يظهر على وجهه الشريف من آثار الغضب.

ومن ذلك أنه ﷺ رأى يوماً عبد اللّه بن عمر وقد لبس ثوبين معصفرين، ولما كان ذلك منهياً عنه قال له ﷺ: «أمك أمرتك بهذا»، [رواه مسلم].

فاكتفى ﷺ بهذا النوع من العتاب لأنه كان كافياً في إصلاح الأمر وبيان المعروف، ولذلك فإنه ثبت أن ابن عمر لما رجع إلى بيته ما كان منه إلا أن أحرق الثوبين.

وقد يشتد ﷺ في العتاب لا لأن المعاتب محتاج إلى ذلك أو أنه لا ينتفع إلا بأسلوب الشدة، ولكن لملاحظة معنى آخر من المعاني السامية، وذلك كما وقع في معاتبة معاذ بن جبل رضي اللّه عنه فإن معاذاً صلى يوماً في مسجد قومه إماماً فأطال الصلاة جداً وكان في المصلين ذو حاجة فقطع الصلاة وانصرف، فلمّا علم معاذ عنه قال إنه منافق ـ معلوم أن مثل هذا الوصف في ذلك العهد كان خطيراً جداً لأنه يعني الكفر، فما كان من الرجل إلا أن جاء وهو في قلق وانزعاج واضطراب يشكو معاذاً في تطويل الصلاة وفي اتهامه له بالنفاق، فعاتب ﷺ معاذاً عتاباً شديداً بقوله: أفتَّانٌ[1] أنت يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ، أفتان أنت يا معاذ، وكان ذلك جبراً لخاطر الرجل واهتماماً بشكواه وإلا فإن تطويل الصلاة يكفي فيه مجرد البيان بأن من أم فليخفف خصوصاً مع مثل معاذ وهو من أعلم الناس بالحلال والحرام.

ومن هذا الباب عتابه ﷺ بشدة لأبي ذر رضي اللّه عنه، فإن أبا ذر قال لعبده: يا ابن السوداء فشكاه إلى حضرة المصطفى ﷺ فما كان منه ﷺ إلا أن قال

(١) أفتان أنت؟ بتشديد التاء من الفتنة.

له: إنك امرؤ فيك جاهلية أعيرته بأمه، وهذا عتاب شديد في حق أبي ذر، وقد يكون أقل من ذلك كافياً، ولكنه ﷺ لاحظ حال ذلك الخادم الذي جاء شاكياً، وقد أمن في ظل الإسلام الذي لا يفرق بين الألوان والأجناس فأراد ﷺ أن يجبر خاطره ويرضي نفسه ويشعره باهتمامه بحاله وشكواه.

ومن طرقه ﷺ في التأديب السجن ولم يكن للنبي ﷺ سجن مخصوص معد مهيأ لذلك وكذلك في عهد أبي بكر رضي الله عنه، وإنما كان معنى السجن تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان في بيت أو مسجد.

فقد روى أبو داود بسنده أن النبي ﷺ حبس رجلاً في تهمة، في «الصحيح» أنه ﷺ حبس ثمامة بن أثال بربطه في سارية من سواري المسجد.

وفي السيرة الحلبية أنه ﷺ حبس بني قريظة بالمدينة في دار بنت الحارث امرأة من الأنصار ثم قتلهم.

وقد يتولى نفس الخصم أو وكيله عليه ملازمة الشخص الذي يستحق الحبس، فقد روى أبو داود وابن ماجه عن الهرماس بن حبيب عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ بغريم لي فقال لي: الزمه ثم قال لي: يا أخا بني تميم ما تريد أن تفعل بأسيرك وهذا كان هو الحبس على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر، ثم اشترى عمر رضي الله عنه داراً بمكة وجعلها سجناً[(١)].

ومن طرقه ﷺ في التأديب الضرب، فقد جلد من قتل عبده متعمداً[(٢)] وجلد مسطح بن أثاثة ومن تكلم في قصة الأفك وخبر ذلك مشهور[(٣)].

ومن طرقه ﷺ في التأديب التأديب بالنفي، وقد ثبت أنه نفى الحكم بن أبي العاص إلى الطائف[(٤)] وأمر بذلك فقال: البكر بالكبر جلد مائة وتغريب عام، وقضى على الأجير الذي زنى بالجلد والتغريب، وكذا حكم على المخنث الذي كان يدخل على النساء.

ومن طرقه ﷺ في التأديب الهجران وثبت ذلك من قصة كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم كعب وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع فهجرهم ﷺ ولم يكلمهم وأمر بهجرهم.

---

(١) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطي ترجمة عمر رضي الله عنه.
(٢) انظر أقضية الرسول ﷺ لابن الطلاع.
(٣) انظر ترجمته في الإصابة والاستيعاب.
(٤) انظر ترجمته في الاستيعاب والإصابة.

وقد قاسوا من هجر المصطفى وأصحابه لهم ما أخبر عنه القرآن بقوله: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

قوله تعالى: بما رحبت ـ أي مع رحبها ـ أي سعتها فلا يجدون مكاناً يطمئنون إليه قلقاً وجزعاً تمثيل لحيرتهم في أمرهم، وضاقت عليهم أنفسهم وقلوبهم للغم والوحشة بتأخير توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس.

وفي حديث كعب حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي بالتي أعرف وفي رواية: وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالحيطان التي تعرف وهذا يجده الحزين والمهموم في كل شيء حتى قد يجده في نفسه وفي رواية حتى وجلوا أشد الوجل وصاروا مثل الرهبان.

وثبت أنه ﷺ عذب بقطع الأيدي والأرجل وسمل الأعين وذلك في قصة العرنيين الشهيرة الصحيحة التي رواها البخاري عن أنس قال: قدم أناس من عكل وعرينة فاجتووا المدينة أي استوخموها فأمر لهم الرسول ﷺ بلقاح وأن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ وساقوا النعم، فجاء الخبر في أول النهار فقمنا في آثارهم فلما ارتفع النهار جيئ بهم فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وألقوا في الحرة «أرض ذات حجارة سوداء» يستسقون فلا يسقون، وفي رواية حتى ماتوا، وعند ابن أبي عوانة من رواية عقيل عن أنس فيه فصلب اثنين وقطع اثنين وسمل اثنين فإن كان محفوظاً فعقوبتهم كانت موزعة.

وأخرج مسلم عن أنس قال: إنما سمل النبي ﷺ أعين العرنيين لأنهم سملوا أعين الرعاء وإلى هذه الرواية أشار البخاري في كتاب الجهاد بتبويبه باب إذا أحرق المشرك المسلم هل يحرق؟

وثبت أنه ﷺ باشر القتل بيده الشريفة فقتل أبيّ بن خلف وذلك أنه عليه السلام تناول الحربة من يد الحرث بن الصمة فأخذها عليه الصلاة والسلام فطعنه طعنة في عنقه وقع بها عن فرسه فكسر ضلعاً من أضلاعه فمات.

وذكر الحافظ البابلي في سيرته أنه عليه السلام لم يقتل بيده إلا هذا نقله الزرقاني على المواهب.

وثبت أنه عذب ﷺ بالإحراق والهدم، روى ابن هشام عن عبد اللّه بن حاتم عن أبيه قال: بلغ رسول اللّه ﷺ أن أناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم

اليهودي يثبطون الناس عن تبوك فبعث ﷺ طلحة بن عبد اللّه في نفر وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل.

وفي غزوة تبوك جاءه عليه السلام خبر مسجد الضرار من السماء فأرسل جماعة من أصحابه وأمرهم أن يهدموه ويحرقوه فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدي العجلاني فقال: انطلق إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدمه وأحرقه فخرجا فحرقاه وهدماه.

وقد قطع النبي ﷺ نخل بني النضير وأحرق قراهم.

كمال تربيته للأمة
وعنايته ﷺ بتعليم القرآن

اعتنى النبي ﷺ بتعليم القرآن عناية عظيمة خصوصاً بالنسبة للصبيان الصغار، ولا شك أن في ذلك فائدة كبرى وهي لأجل أن يتوجه الصغار إلى اعتقاد أن اللّه تعالى هو ربهم، وأن هذا كلامه تعالى، ولأجل أن تسري روح القرآن في قلوبهم ونوره في أفكارهم ومداركهم وحواسهم، ولأجل أن يتلقن الطفل عقائد القرآن منذ الصغر، وأن ينشأ ويشب على محبة القرآن والتعلق به والائتمار بأوامره والانتهاء عن مناهيه والتخلق بأخلاقه والسير على مناهجه.

ولذلك اعتنى المربون في هذه الأمة بتعليم الصبيان القرآن، وذلك أصل من أصول الإسلام فينشؤون على الفطرة ويسبق إلى قلوبهم أنوار الحكمة قبل تمكن الأهواء منها وسادها بأكدار المعصية والضلال كما قال القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وكان ﷺ يشترط على وفود الأعراب بعد إسلامهم قراءة القرآن بينهم وتعليمهم أمر الدين وإقامة المؤذنين.

وفي اعتناء الصحابة رضي اللّه عنهم والسلف الصالح بعدهم بتعليم الصبيان لما كان عليه المصطفى ﷺ استجابة كاملة لأمره ومسارعة صادقة لاكتساب الخيرات والبركات التي ضمنها بإذن اللّه لمن فعل ذلك إذ قال لهم: «من علّم ابنه القرآن نظراً غفر له ومن علمه إياه ظاهراً ـ أي عن ظهر قلب ـ بعثه اللّه على صورة القمر ليلة البدر ويقال لابنه: إقرأ؛ فكلما قرأ آيةً رفع اللّه عز وجل الأب بها درجة إلى آخر ما معه من القرآن».

رواه الطبراني عن أنس، قال الهيثمي: وفيه من لم أعرفه. . . وقال: «ما من رجل يعلم ولده القرآن في الدنيا إلا توج أبوه يوم القيامة بتاج في الجنة يعرفه به أهل الجنة بتعليم ولده القرآن في الدنيا» رواه الطبراني عن أبي هريرة. وفي رواية عند الإمام أحمد: أنه يكسي والده حلتين لا تقوم لهما الدنيا ـ أي لا يقدر بهما الدنيا ـ فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، وفي رواية الطبراني: بتعليم ولدكما.

وقال ابن خلدون في المقدمة في فضل تعليم الوِلْدان: اعلم أن تعليم الوِلْدان القرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم بما يسبق فيه القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده من آيات القرآن، وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبني عليه ما يحصل بعد من الملكات، ثم قال: اختصت العوائد الإسلامية بتقدم دراسة القرآن إيثاراً للتبرك وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع فيفوته القرآن.

والقرآن الكريم هو أوسع دائرة للمعارف تناولها البشر، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وهو الديوان العظيم الذي استخرج أهل الإسلام واستنبطوا منه جميع العلوم كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال ﷺ: ستكون فتن، قيل: ما المخرج منها يا رسول الله، قال: كتاب الله فيه نبأ ما بعدكم وخبر ما قبلكم وحكم ما بينكم ـ رواه الترمذي.

بل هو أول موسوعة ودائرة معارف عرفها البشر وقد اعترف بذلك.

وأول من قرأ في مدرسة القرآن وتربى بهديه واهتدى بتربيته واتخذه هجيراه الصحابة الكرام الذين أقبلوا على تعلم القرآن وتعليمه مستجيبين لقوله ﷺ: «تعلموا القرآن فاقرؤوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به ـ أي في الليل ـ كمثل جراب محشوٌ مسكاً يفوح ريحه في كل مكان» وقوله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلّمه» رواه البخاري، وفي رواية: «إن أفضلكم».

وقد كان ﷺ يعلمهم مع القرآن آداب حامل القرآن الكريم ليعرف حقه فيعظمه ويحترمه فكان يقول لهم: «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه، لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله» رواه الحاكم وصحح إسناده.

تفسير القرآن

ومما كان يعتني به في حلقة العلم النبوية تفسير كتاب اللّه العظيم، فقد كان المصطفى ﷺ يفسر لهم بنفسه بعض آيات القرآن الكريم وهو الذي يقول لهم: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يتعلمون كتاب اللّهِ ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم اللّه فيمن عنده» رواه مسلم في «صحيحه».

قال القاري في «شرح المشكاة»: التدارس قراءة بعضهم على بعض تصحيحاً لألفاظه أو كشفاً لمعانيه.

وقد ذكر السيوطي في الإتقان أنه عليه السلام بيّن لأصحابه جميع تفسير القرآن أو غالبه... ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجه عن عمر قال: مِنْ آخر ما نزل آية الكلالة، وإن رسول اللّه ﷺ قبض قبل أن يفسرها فدل فحوى الكلام على أنه كان عليه السلام يفسر لهم كل ما نزل، وأنه لم يفسر لهم هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها وإلا لم يكن لتخصيصها وجه.

وأما ما أخرجه البزار عن عائشة قالت: ما كان رسول اللّه ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات علمه إياهن جبريل فهو حديث منكر كما قال الحافظ ابن كثير. وأوله ابن جرير وغيره على أنها أشارت إلى آيات مشكلات أشكلن عليه فسأل اللّه عنهن فأنزل إليه على لسان جبريل.

التاريخ والأخبار

ومما اعتنى به ﷺ وعلمه أصحابه ذكر الوقائع التاريخية وأخبار الأمم السالفة.

وقد اتخذ لذلك وقتاً امتثالاً لأمر اللّه إذ يقول:

﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] والمعنى: وذكرهم بوقائع اللّه التي وقعت للأمم السالفة فتسلكوا مسلك أهل الرشد، لأن التاريخ يبحث عن أصول الأمم الخالية مع ضبط أشخاصهم وأخبارهم وعلومهم وآثارهم وعوائدهم وسقوطهم ونهضتهم وهو مما يتنافس فيه العقلاء ويتفاخر به الملوك وتسمو إلى معرفته حتى السوقة.

وقد أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في القرآن عما دار بين الأنبياء والأمم، وأرشدنا إلى تعاقب أدوار الزمان والتحول والنفارة والذبول والعمار والدمار، إما كل يوم مع يوم مع عدم التكلف، وإما يوماً بعد يوم فيكون يوم الترك لأجل الراحة ليقبل على الثاني بنشاط، وإما يوماً في الجمعة، ويختلف باختلاف الأحوال والأشخاص. والضابط الحاجة مع مراعاة وجود النشاط «كذا في فتح الباري».

وهذه السنة المحمودة أعظم عامل لتشويق النفوس إلى مجالس العلم والتذكير وإقبالهم عليها برغبة وتعلق.

الكتابة

وقد اعتُنِي بالكتابة في العهد النبوي الشريف اعتناء كبيراً، فكان عبد اللّه بن سعيد بن العاص يعلم الناس الكتابة بالمدينة بأمر رسول اللّه ﷺ. «كذا في الاستيعاب».

وقال عبادة بن الصامت: علّمت ناساً من أهل الصفة كتابة القرآن «كذا في سنن أبي داود».

قال في «المطالع النصرية في الأصول الخطية» لأبي الوفاء نصر الهوريني المصري: لم تكثر الكتابة العربية إلا بعد الهجرة النبوية بأكثر من سنة، وذلك أنه لما أسرت الأنصار سبعين رجلاً من صناديد قريش وغيرهم في غزوة بدر السنة الثانية من الهجرة جعلوا على كل واحد من الأسرى فداء من المال، ومن عجز عن الافتداء فعليه أن يعلم الكتابة لغيره من صبيان المدينة فلا يطلقونهم إلا بعد تعليمهم، فبذلك كثرت الكتابة وصارت تنتشر في كل ناحية فتحها الإسلام.

وجاء في السيرة أن الواحد من المشركين كان يتعلم منه عشرة من الغلمان الكتابة ويخلى سبيله.

منهجه ﷺ في التعليم

وقد اتخذ ﷺ في طريقة تعليمه الناس ودعوتهم إلى الخير طريقة القرآن الكريم من قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي هذه الآية الكريمة صورة متكاملة للدعوة العديدة لكل أصناف الناس، والمنهج السليم الذي ترسمه الآية الكريمة يتفق مع أنواع الناس ويختلف باختلاف أوصافهم وأنواعهم، فمنهم: الخواص الطالبون للحقائق.

ومنهم: العوام.

ومنهم: المعاندون.

ولكل صنف من هؤلاء أسلوب معين، وطريقة يدعوه بها ويعلمها على أساسها، فهو يخاطب الناس على قدر عقولهم، ومقاله دائماً وأبداً يكون مطابقاً لمقتضى الحال، فهو يتمشى مع كل طائفة بالبيان الذي يتناسب معها ويخاطبها بلسانها.

وقد منح اللّه سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عظمة ومهابة، وجعل لقوله من المحبة والقبول في قلوب الناس ما لا يحتاج مع ذلك إلى شيء.

يقول القاضي عياض: ألقى اللّه عز وجل على كلامه المحبة وغشاه بالقبول وجمع له بين المهابة والحلاوة وهو من استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ولا زلت له قدم ولا بادت له حجة اهـ.

وإذا نظرنا إلى هؤلاء، وجدنا أن الآية اختصت كل صنف منهم بطريقة معينة.

فالصنف الأول: وهم الخواص تتكون دعوتهم وتعليمهم بالحكمة أي المقالة المحكمة الصحيحة والدليل الموضح للحق المزيل للشبهة لأنهم لا يقتنعون إلا بوضوح الدليل الذي يزيل شبههم ويحكم لهم القول يهتدون إلى سبيل ربهم.

أما **الصنف الثاني**: وهم العوام فدعوتهم وتعليمهم بالموعظة الحسنة أي الخطاب المقنع والعبرة النافعة على وجه لا يخفى عليهم أنه ينصحهم ويقصد ما ينفعهم، فهم ليسوا في حاجة إلى إحكام في القول لأنهم عوام وليسوا في حاجة إلى دليل لأنهم لا شبهة عندهم.

وأما **الصنف الثالث**: وهم المعاندون، فدعوتهم وتعليمهم بأن يجادلهم بالتي هي أحسن، بالطريقة الحسنة من الرفق واختيار الوجه الأيسر واستعمال المقدمات المشهورة تسكيناً لشغبهم وإطفاء للهب صدورهم حتى يفيؤوا إلى أمر اللّه.

وقد يكون تعليم الرسول ﷺ للمسلمين عن طريق سؤال يتوجه به أحدهم إليه فيجيبه، وذلك كما في حديث البر والإثم، عن النواس بن سمعان رضي اللّه عنه قال: سألت رسول اللّه ﷺ عن البر والإثم فقال: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس». وعلى نفس هذا المنهج كانت النساء يسألن رسول اللّه ﷺ فيجيبهن.

وبهذا ترى أن المنهج النبوي في التعليم وضع ضمن خطته الرشيدة اهتمامه بتعليم المرأة كما اهتم بالرجل، وفي هذا حرص من الإسلام على تربية المرأة وتهذيبها وصقلها وتثقيفها بالثقافة الدينية التي تساعدها على القيام برسالتها.

وقد يكون تعليم النبي ﷺ للمسلمين عن طريق سؤال يطرحه هو ليجيب عنه لا ليطلب من أحد إجابته وإنما ليشوق السامع ويحضر في قلبه وذهنه التطلع إلى هذا الأمر الذي سيلقيه ويهتم به أيضاً اهتماماً.

عن معاذ بن جبل رضي اللّه عنه قال قال رسول اللّه ﷺ: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه، قلت: بلى يا رسول اللّه، قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد».

فهذه الطريقة التي سلكها النبي ﷺ في تعليمه تتسم بالتشويق في الأسلوب الذي أخذه مع هذا الصحابي الجليل، فأشار إلى أسس السعادة في الدنيا والآخرة وهي: الإسلام والصلاة والجهاد.

ونحن نرى أن هذه الطريقة في التعليم ـ أعني طريقة إلقاء السؤال هي التي اقتبسها رجال التربية، فيلقي الواحد منهم المسألة العلمية على طريقة سؤال ثم يتولى هو الإجابة عنه، كما أنه صلوات اللّه وسلامه عليه أيضاً يلقي المسألة لا ليجيب عنها وإنما ليختبر بها علم أصحابه وذكاءهم.

عن ابن عمر رضي اللّه عنهما قال: قال رسول اللّه ﷺ: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المؤمن فحدثوني ما هي؟» فوقع الناس في شجر البوادي.. قال عبد اللّه: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول اللّه، قال: «هي النخلة».

وكان يخشى إذا استمر في التوجيه والتعليم أن يتسرب الملل إلى أصحابه أو

يأخذ التعب طريقه إليهم فكان يعطيهم فرصة الراحة والاستجمام والتشويق لتتمكن معلوماتهم فيها في التثبيت والتذكير، ولهذه الطريقة الرشيدة تدين مؤسسات التربية اليوم التي استمدت نظمها الناجحة من هذا المنهج النبوي الحكيم.

عن ابن مسعود قال: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا.

كما كان من حكمته عليه الصلاة والسلام أنه يخاطب الناس على قدر عقولهم وبما يتواءم مع مداركهم ويتناسب مع فطرهم وأساليبهم وليسوق موعظته الحسنة في سماحة ويسر.

كان صلوات اللّه وسلامه عليه يخاطب الناس بلهجاتهم، عن عاصم الأشعري قال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «ليس من أمبر امصيام في امسفر»، يريد ليس من البر الصيام في السفر وهي لغة الأشعريين، يبدلون اللام ميماً.

ومن أجل إقرار تلك التعاليم كذلك كان إذا تكلم كرر القول ثلاثاً ليفهم عنه.

كما كان في كل أوامره، وفي كل نواهيه منتهجاً المنهج التربوي الصحيح كما علّمه ربه، وكما جاء بذلك القرآن، فهو لا يأمر بكل الأوامر دفعة ولا ينهى عن كل النواهي دفعة، وإنما يتبع في كل هذا وذاك التدريج حتى لا يملّ الناس، وحتى لا يستثقلوا تعاليمه.

منها: هو ذا حين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن زوده بالتوجيه الكافي وأمره أن يسير على سنن التدريج معهم.

ومن كل ما سبق يتضح أن المنهج النبوي في التعليم اتخذ طرقاً كثيرة متنوعة وجه بها الناس إلى طريق النور والكمال وأرسى على ضوئها أسس الحياة الطيبة، فتضافر المجتمع الإسلامي بكل أشكاله على تلقي الشريعة، مسترشداً بآداب نبيه المعلم وتعاليم رسوله القائد صلوات اللّه وسلامه عليه حتى تحقق على أيدي المسليمن آنئذٍ الفتح المبين، وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس.

ولنا في رسول اللّه أسوة حسنة وفي أصحابه قدوة طيبة فعلى منهجه نسير، وبهداه نقتدي حتى يفتح اللّه علينا بركات من السماء والأرض.

وبهذا نرى أيضاً أن المنهج النبوي في التعليم لم يترك شيئاً من شؤون الدنيا والدين إلا عني به، وأولاه اهتماماً بالغاً، ووضع القواعد السليمة التي عليها قامت خير أمة، وتكونت الدولة الإسلامية الكبرى التي نشرت العلم والحضارة بين أرجاء الدنيا بأسرها من أقصاها إلى أقصاها.

كمال طريقته في التعليم والإرشاد

من هديه ﷺ في منهج تعليمه أن ينتقل بالحاضر من صورة واقعية محسوسة إلى صورة ذهنية علمية تتعلق بالإيمان أو الأخلاق أو السلوك.

وهذا أكبر سبيلٍ لتثبيت النظرية العلمية وتجسيدها أمام الناظر. ومثال ذلك: أنه رأى امرأة من السبي وقد اندفعت وراء طفلها ناسية حالتها فأخذته ووضعته على ثديها وكأنها ليس بها شيء، فقال: أرأيتم رحمة هذه الأم بولدها أو فرحها بولدها، قالوا: نعم، قال: فاللّه أرحم بعبده أو أفرح بتوبة عبده من فرح هذه الأم بولدها.

ومن ذلك أيضاً ما جاء عن جابر رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ مر في السوق والناس عن جانبيه فمر بجدي أسكٍّ[1] ـ أي صغير الأذن ـ ميْتٍ فتناوله فأخذ بأُذنه، ثم قال: أيكم يحب أن يكون له هذا بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء وما نصنع به، ثم قال: أتحبون أنه لكم ـ أي بلا شيء ـ فقالوا: واللّه لو كان حياً كان عيباً إنه أسك فكيف وهو ميت، فقال ﷺ: فواللّه إن الدنيا أهون على اللّه من هذا عليكم، رواه مسلم.

وهكذا جعل ﷺ من ذلك الجدي الميت المعيب درساً عملياً وموعظة نبوية في بيان قيمة الدنيا وحقيقتها، وإنها لا تستحق هذا التكالب والحرص الشديد والتحاسد والتباغض، فينتقل من قضية الجدي المحسوسة إلى قضية ذهنية علمية.

وقد كان ﷺ يستعمل الوسائل التعليمية الممكنة لتقريب الحقيقة وتصويرها، وذلك برسم صورتها وإبراز شكلها أمام المشاهد.

فقد كان يتحدث يوماً عن الأمل وطوله وكثرته وأن الإنسان ينتهي من هذه الحياة وآماله لا تزال ورغباته كالجبال ولكن الموت محيط به من حيث لا يدري فلا يشعر إلا وقد نزل به فقطع عليه آماله وأفسد أحواله.

وقد استعمل ﷺ في تقريب هذه الحقيقة رسماً على الأرض ليصورها

(١) جدي: بفتح الجيم وسكون الدال ـ أسك بفتح الهمزة والسين وتشديد الكاف.

للمشاهدين كما جاء في الحديث عن عبد اللّه بن عمر ـ رواه البخاري. حدثنا صدقة بن الفضل أخبرنا يحيى عن سفيان قال: حدثني أبي عن منذر عن ربيع بن خيثم عن عبد اللّه رضي اللّه عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً وخط خطاً في الوسط خارجاً منه وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبيه الذي في الوسط وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به أو قد أحاط به وهذا الذي هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وأن أخطأه هذا نهشه هذا.

ومن منهجه ﷺ في تعليمه وتربيته استعماله الكناية في التعبير عما يستهجن باختيار الألفاظ المألوفة المقبولة المعروفة التي تؤدي المقصود وتفي بالمراد من غير تصريح مع إمكان فهماً المطلوب فهما كاملاً كما لو صرح به في لفظه الأصلي.

مثال ذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: سبعة يظلهم اللّه تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله؛ وذكر منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف اللّه.

فانظر كيف كنى عن المراد بقوله «دعته امرأة» ومعلوم أن المقصود إنها دعته وطلبته إلى فعل الفاحشة.

ومن ذلك قوله ﷺ للمرأة التي طلقها زوجها الثاني لكنه لم يدخل بها دخولاً كاملاً فجاءت تسأله هل تحل لزوجها الأول، فقال لها: لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك ـ أي يتم الجماع كاملاً وكنى عنه بالعسيلة وعن تمام الاتصال بالذواق.

ومن ذلك قوله ﷺ فيما يوجب الغسل وإن مجرد الاتصال ولو بلا إنزال يوجب ذلك: «إذا جلس بين شعبها الأربع وجهدها فقد وجب الغسل».

ومن ذلك قوله ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة» فانظر كيف كنى عن الفرج بقوله: «ما بين رجليه».

ومن أسلوبه ﷺ في التعليم التدرج في إعطاء المعلومات والانتقال بالمستفيد من مسألة إلى مسألة حتى يصل به إلى ما يناسب حاله ويحل مشكلته التي وقع فيها، كل ذلك بصدر رحب وخلق كريم وحلم عظيم دون ملل وسآمة.

يصور هذا المعنى الحديث الآتي:

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هلكت يا رسول اللّه، قال: ما أهلكك، قال: وقعت على امرأتي في رمضان، قال: هل

تجد ما تعتق رقبة، قال: لا، قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين، قال: لا، قال: فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً، قال: لا، قال: ثم جلس فأتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر، فقال: تصدق بهذا، قال: أعلى أفقر منا؟؟ فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: اذهب فأطعمه أهلك، رواه مسلم.

وبهذا لا ينصرف المستفيد إلا وقد وقف على حقيقة واضحة لا شك فيها ولا ريب راضياً قرير العين، وقد وقع في حسه أنه عضو في المجتمع وأن الأمة مسؤولة عنه تهتم بأحواله وتعيش معه في مشاكله وتشاركه في قضاياه، ولو أفاده ﷺ بالحكم الشرعي جملة واحدة بأن قال له: إن عليك أن تعتق رقبة فإن لم تجد تصوم شهرين متتابعين، فإن لم تجد فتطعم ستين مسكيناً؛ لو أفاده بهذه الطريقة لما كان في ذلك حرج أو نقص لكنه ﷺ فرغ نفسه وتوجه بكليته وأخذ يسأله: هل عندك رقبة، قال لا، هل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين، وهكذا تدرج معه في الحكم حتى وصل به إلى ما يوافقه من الجواب.

ومن أسمى الطرق التربوية النبوية أنه ﷺ كان يولي السائل عنايةً ورعايةً خاصةً وتقديراً واحتراماً وإكراماً وإعظاماً فيكسبه بذلك ثقة كبيرةً وشعوراً بالطمأنينة الكاملة بحيث لا تمنعه هيبة النبي العلمية من إلقاء السؤال على أي كيفية ولا تصده رتبته ﷺ عن التعبير بما في مكنونات الضمير ملقياً بقياده ساعياً في طلب رشاده، وأنظار حضرة المربي الكامل ﷺ تحوطه من كل جانب، وتحميه من كل منتقد أو عائب.

ويصور هذا الحديث الآتي هذا المعنى أكمل صورة ومنه استخرجنا هذه النظرية، فعن جابر بن عبد اللّه قال: جاء أعرابي إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه ثيابنا في الجنة ننسجها بأيدينا، فضحك القوم، فقال رسول اللّه ﷺ: مم تضحكون، من جاهل يسأل عالماً، لا يا أعرابي ولكنها تشقق عنها ثمار الجنة - لم يروه عن مجالد إلا ابنه إسماعيل، ولا يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد[١].

فأنت ترى أنه ﷺ عاتبهم لما رأى ضحكهم على سؤاله وبين لهم أن لا وجه لانتقاصه وانتقاد سؤاله وأن الجاهل ينبغي أن يعطى من الاهتمام والتقدير ما يجذبه إلى السؤال والبحث ويشجعه على المراجعة بثقة وثبات دون حياء أو خوف، وكم منع الحياء والخوف من انتقاد الغير من الوصول إلى حقائق ومعارف سامية.

ومن ذلك ما جاء في الحديث أن أعرابياً عرض لرسول اللّه ﷺ وهو في سفر

(١) رواه الطبراني في المعجم الصغير ص٤٧.

فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها ثم قال: يا رسول اللّه أو يا محمد أخبرني بما يقربني من الجنة وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي ﷺ ثم نظر إلى أصحابه ثم قال: لقد وفق أو لقد هدي قال: كيف قلت، قال: فأعاد، فقال النبي ﷺ: تعبد اللّه لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم ـ دع الناقة ـ رواه مسلم في «الصحيح»، انظره في باب «الإيمان الذي يدخل الجنة».

فأنت ترى أنه ﷺ اهتم بسؤاله ثم أمر أصحابه بملاحظة ذلك ووجه أنظارهم إلى الاهتمام به ثم أمر السائل بإعادة السؤال ثم دعا له بالتوفيق والهدى.

ومن منهجه ﷺ في تعليمه تقريب الحقائق المغيبة في صورة مجسدة ملموسة فيحسها السامع وكأنه ينظر إليها بعينه، وبذلك تنطبع في النفس وترسخ في الذهن ثم يكون التأثير بها أبلغ وأقوى.

فمن ذلك قوله في الحديث: من يسأل الناس تكثّراً فإنما يسأل جمراً فليستقل أو ليستكثر ـ رواه مسلم.

فهذا الذي يسأل الناس تكثراً في الواقع هو لا يسأل جمراً ولكنه يؤول في الآخرة إلى جمر عقاباً له على فعله، ولكنه جسد هذه الحقيقة بهذه الصورة القريبة إلى المشاهدة المحسوسة عند السامع ليكون ذلك أبلغ في زجره وتحذيره فيتصور عند سؤاله أنه إنما يمسك النار.

ومن هذا القبيل قوله وقد رأى خاتماً من ذهب في يد أحد الصحابة فقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده.

ومنه قوله في الذي يأكل في أواني الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم.

ومنه قوله في الذي يسابق الإمام أن وجهه وجه حمار والعياذ باللّه.

ومن هذا القبيل ما جاء عن أبي هريرة: أن رسول اللّه ﷺ قال: «أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد ثلاث خلفات عظام سمان قلنا: نعم، قال: فثلاث آيات يقرأ بها أحدكم في صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان». أخرجه مسلم ومعنى ـ الخلفة ـ الناقة العشراء.

وما جاء عن عقبة بن عامر رضي اللّه عنه، قال: خرج النبي ﷺ ونحن في الصفة، فقال: «إيّكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو قال: إلى العقيق فيأتي بناقتين كوماوين في غير إثم ولا قطيعة رحم، قلنا: كلنا يا رسول اللّه يحب ذلك، قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب اللّه تعالى فهو

خير له من ناقتين، وثلاث خير من ثلاث، وأربع خير من أربع ومن أعدادهن من الإبل». أخرجه مسلم وأبو داود ومعنى «الكوماء» الناقة العظيمة السنام.

«تيسير الوصول في فضل القرآن: ١/ ٨٤».

ومن ذلك قوله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط عن بعيره وقد أضله في أرض فلاة» متفق عليه، وفي رواية لمسلم: «لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك» أخطأ من شدة الفرح.

يشبه الرسول ﷺ قبول الله لتوبة العبد التائب ورضاه ورحمته الواسعة بعباده، وشفقته عليهم برجل في أرض جدباء مهلكة ضاع منه بعيره الذي عزم اجتياز تلك الفلاة به ثم وجده وقد أشرف على الهلاك، ويئس من النجاة، تشجيعاً للناس على التوبة ودفعاً لما يصرف عنها وفتحاً لباب الرجاء أما العباد فالله تعالى مع قدرته العظيمة، وعزه الكبير رؤوف رحيم يشجع العباد على التوبة ويكرمهم بقبولها ويوجههم إلى ما فيه النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة.

وفي الحديث كناية عن إحسان الله تعالى إلى عبده التائب وتجاوزه عن سيئاته لأن العاصي إذا وقع في المعصية صار في قبضة الشيطان وأسره، فأشرف على الهلاك، فإذا وفقه الله للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية وتخلص من قبضة الشيطان، فأقبل الله عليه بمغفرته ورحمته، فالتمثيل إنما هو لحال العبد التائب وما يتحصل له بسبب التوبة من النجاة والفوز.

ولقد بلغ من روعة التصوير أن اشتملت الصورة على كل مؤثراتها أخذاً بلب السامع، وتحريكاً لخياله وأحساسيه، وأفكاره لتنتج الأثر المطلوب والصورة هنا هي صورة رجل في صحراء مقفرة معه زاده من الطعام والماء ومركبه من الإبل. فضاع كل ذلك بغتة وأعياه البحث حتى يئس من استرداد شيء من ذلك، لقد أحاطت به كل صور اليأس، وتمثل في نفسه اليأس من النجاة، وبين التعجب والألم واليأس والاستسلام للموت والهلاك، إذ براحلته عليها طعامه وشرابه، فقام كالمأخوذ ممسكاً بها حتى لا تهرب منه، صائحاً من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، فأخطأ من شدة الفرح هذا الرجل بفرحته التي لا تضارع، وسروره الذي لا يمكن تحديده، ليس أشد حرصاً على الحياة، وقبولاً للراحلة وتلقياً للنجاة من

قبول الله لتوبة عبده المؤمن وإقباله عليه، لأن عودة الراحلة فيها حياته الدنيوية، وعودته فيها حياته الأخروية وهي التي طلبها الله منه ودعاه إلى الحفاظ عليها والاستمساك بها.

ويؤخذ من الحديث: جواز ضرب المثل بما يصل إلى الإفهام من الأمور المحسوسة.

وفيه: الإرشاد إلى دوام المراقبة واستمرار محاسبة الإنسان لنفسه ووجوب المبادرة بالتوبة ورجاء قبولها من الله تعالى.

وفيه: رحمة المولى عز وجل وجهل الإنسان وغفلته.

وفيه: أن العسر مع اليسر، والفرج مع الكرب، وأنه لا يأس من رحمة الله.

وفيه: أن الحرص على الدين يجب أن يكون أقوى من الحرص على الدنيا.

وفيه: تقريب الله للمؤمنين، وإبعاده للكافرين.

وفيه: قبول الخطأ والسماح فيما لا يقصد الإنسان وقوعه.

أما قوله في الحديث: لله أفرح فالفرح في حق العباد: انشراح الصدر بلذة عاجلة وأكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنية فلهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] وقال عز وجل: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦].

والفرح في حق الله: مجاز عن الرضا: أي أرضى بالتوبة وأقبل بها. والمقصود بيان سرعة قبول الله توبة عبده التائب وإقباله عليه، فالمراد لازم الفرح: وهو الرضا والقبول.

أما قوله في أرض فلاة: الفلاة: الأرض الواسعة التي لا ماء فيها ولا زرع والتي هي مظنة الهلاك.

أما قوله على راحلته، فالراحلة: البعير الذي يصلح للارتحال.

توجيه الهمم إلى العوالي

ومن منهجه ﷺ في التربية والتعليم توجيه الهمم إلى عوالي الأمور ومعالي المقاصد، وتصوير المعاني الجليلة الراقية في إطار المفاهيم الشائعة، وذلك كقوله ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس»، رواه أحمد والشيخان.

فالمفهوم الشائع عند الناس عن الغنى أنه متاع الدنيا وهو كثرة العرض، لكنه ﷺ ينبهنا إلى ما هو أعلى من ذلك في تصور معنى الغنى، وهو غنى النفس، يعني ليس الغنى المحمود ما حصل عن كثرة العرض والمتاع، لأن كثيراً ممن وسع اللّه عليه لا ينتفع بما أوتي بل هو متجرد في الازدياد ولا يبالي من أين يأتيه فكأنه فقير لشدة حرصه، فالحريص فقير دائماً ولكن الغنى المحمود المعتبر عند أهل الكمال غنى القلب، وفي رواية النفس، أي استغناؤها بما قسم لها وقناعتها ورضاها به بغير إلحاح في طلب ولا إلحاف في سؤال ومن كفته نفسه عن المطامع قرت وعظمت وحصل لها من الحظوة والنزاهة والشرف والمدح أكثر من الغنى الذي يناله من كان فقير النفس فإنه يورطه في رذائل الأمور وخسائس الأفعال لدناءة همته فيصغر في العيون ويحتقر في النفوس ويصير أذل من كل ذليل، والحاصل أن من رضي بالمقسوم فكأنه واجد أبداً، ومن اتصف بفقر النفس فكأنه فاقد أبداً يأسف على ما فات ويهتم بما هو آت.

فمن أراد غنى النفس فليحقق في نفسه أنه تعالى المعطي المانع فيرضى بقضائه ويشكر على نعمائه ويفزع إليه في كشف ضرائه، وأنشد بعضهم من قصيدة:

وعند مليكك فابغ العلو ... وبالوحدة اليوم فاستأنس
فإنّ الغنى في قلوب الرجا ... ل وإن التعزز في الأنفس
وكم قد ترى من أخي عسرة ... غني وذي ثروة مفلس
ومن قائم شخصه ميت ... على أنه بعد لم يرمس

ومن ذلك قوله ﷺ: «ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»، رواه أحمد والبخاري.

فالمفهوم الشائع أن الواصل لأرحامه هو الذي يجازيهم بمثل فعلهم إن صلة

فصلة، وإن قطعاً فقطع. ولكن النبي ﷺ يضع هنا للواصل مفهوماً أعلى من المفهوم الظاهر عند الناس وهو أن الواصل الذي ينال ثواب صلة الأرحام ويفوز بفضلها العام هو الذي يبادر إلى مواصلتهم دون مراقبة ما يقابل ذلك مما جرت عادة الناس عليه وقد أشار إلى هذا المعنى بقوله: «ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» وهو بهذا ينبه على أن من كافأ من أحسن إليه لا يعد واصلاً للرحم وإنما الواصل الذي يقطعه قريبه فيواصل هو، وهذا إشارة إلى الرتبة العلية في ذلك وإلا فلو لم يقطعه أحد من قرابته واستمر هو على مواصلاتهم عد واصلاً.

ومن ذلك قوله ﷺ: «أخسر الناس صفقة رجل أخلق يديه في آماله، ولم تساعده الأيام على أمنيته فخرج من الدنيا بغير زاد وقدم على الله تعالى بغير حجة»، رواه البخاري في تاريخه عن عامر بن ربيعة وهي مما بيض له الديلمي.

فالخسران في الأصل انتقاص رأس المال، وقد استعمله ﷺ فيما هو أعم من ذلك كالإيمان والعبادة وهو بهذا يوجه الأنظار إلى اعتبار الخسارة فيما هو أعلى من المال وأغلى من الجاه.

والمعنى: أن أشد الناس خسارة رجل أتعب نفسه بالكد والجهد في السعي لبلوغ آماله، ولكن الأيام لم تساعده على حصول مطلوبه من المال والمناصب والجاه ونحوها، بل عاكسته وخذلته، فهو لا يزال يتشبث بالطمع الفارغ والرجاء الكاذب، ويتمنى على الله ما لا تقتضيه حكمته ولم تسبق به كلمته، فخرج من الدنيا بالموت بغير زاد يوصله إلى المعاد وينفعه يوم يقوم الأشهاد ويفصل بين العباد، لأن خير الزاد إلى الآخرة اتقاء القبائح، وهذا قد تلطخ بأقذارها القبيحة الخبيثة الروائح فهو مهلك لنفسه باسترساله مع الأمل، وهجره للعمل، حتى تتابعت على قلبه ظلمات الغفلة، وغلب عليه رين القسوة، ولم يسعفه المقدور بنيل مرامه من ذلك الحطام الفاني، فلم يزل مغموراً مقهوراً مغموماً إلى أن فرق ملك الموت بينه وبين آماله، وكل جارحة منه متعلقة بالدنيا التي فاتته، فهي تجاذبه إلى الدنيا ومخاليب ملك الموت قد علقت بعروق قلبه تجذبه إلى الآخرة التي لا يريدها، وقدم على الله تعالى بغير حجة أي معذرة يعتذر بها، وبرهان يتمسك به على تفريطه بتضييعه عمره النفيس في طلب شيء خبيث خسيس، وإعراضه عن عبادة ربه التي إنما خلق لأجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال الغزالي: ومن كان هذا حاله فهو كالأنعام بل هو أضل، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له وعطله فهو الناقص عقلاً، المدبر يقيناً، وقيل في المعنى:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً … كنقص القادرين على التمام

ففي الحديث إلزام للحجة مبالغة في الإنذار وتنبيه على إيثار التلذذ والتنعم مما يؤدي إلى طول الأمل وتعطل العمل وهذا هجير أكثر الناس وهي ليست من أخلاق المؤمنين ومن ثم قيل: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين.

ومن ذلك قوله ﷺ: «أعجز الناس من عجز عن الدعاء وأبخل الناس من بخل بالسلام»، رواه الطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «شعب الإيمان».

فالعاجز هو الضعيف الذي لا يستطيع أن يقوم بشؤونه ولكن نبينا ﷺ يرشدنا إلى ما هو أعلى من ذلك وأرقى، وهو أن العاجز هو الذي يعجز عن الطلب من اللّٰه تعالى لا سيما عند الشدائد لتركه ما أمره اللّٰه، وتعرضه لغضبه بإهماله ما لا مشقة عليه فيه، وفي هذا حث على الدعاء.

وقال في الحديث: وأبخل الناس من بخل بالسلام، فذكر أن البخيل هنا هو الذي يبخل بالسلام، والمعروف أن البخيل ضد الكريم وهو الذي لا يجود ولا يعطي، ولكنه هنا يستعمله في الذي يبخل بالسلام على من لقيه من المؤمنين ممن يعرفهم وممن لا يعرفهم، فإنه خفيف المؤونة عظيم المثوبة فلا يهمله إلا من بخل بالقربات وشح بالمثوبات وتهاون بمراسم الشريعة، أطلق عليه البخل لكونه منع ما أمر به الشارع من بذل السلام وجعله أبخل لكون من بخل بالمال معذوراً في الجملة لأنه محبوب للنفوس عديل للروح بحسب الطبع والغريزة، ففي بذله قهر للنفس، وأما السلام فليس فيه بذل مال، فمخالف الأمر في بذله لمن لقيه قد بخل بمجرد النطق، فهو أبخل من كل بخيل.

تدعيم القول بالدليل

ومن منهجه ﷺ في التربية والتعليم: أنه كان يؤيد قوله في التعليم بالدليل والتعليل على صورة القياس والتنظير، فيزداد قوله وضوحاً ويصير حجة، بعد حجة ليقف السائل على حقيقة واضحة يطمئن لها قلبه وتنشرح بها نفسه وتقر بها عينه ويعظم تمسكه بالحق ويرسخ الدليل في نفسه، وهذه الشواهد الناطقة الدالة على ذلك بأصدق بيان وأعظم برهان.

ومن ذلك قوله ﷺ: وفي بضع أحدكم صدقة قالوا: يا رسول اللّه أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.

وقوله: (وفي بضع أحدكم) هو بضم الباء ويطلق على الجماع ويطلق على الفرج نفسه وكلاهما تصح إرادته هنا، وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنيات الصادقات، فالجماع يكون عبادة إذا نوي به قضاء حق الزوجة ومعاشرتها بالمعروف الذي أمر اللّه تعالى به أو طلب ولد صالح أو إعفاف نفسه إو إعفاف الزوجة ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام أو الفكر فيه أو الهم به أو غير ذلك من المقاصد الصالحة.

فالصحابة الكرام تعجبوا من هذ الأمر وهو أن الإنسان يأتي أهله ويقضي شهوته ويتمتع ثم يثاب على ذلك، وكان يكفي أن يقول لهم ﷺ: إن اللّه قد قضى بذلك وحكم وهذا أكبر دليل وأعظم حجة لأن قول اللّه تعالى وقول الرسول هو الحجة والدليل ولكنه ﷺ لم يكن ليكتفي بذلك بل ذكر لهم نظير هذه المسألة مما هو معلوم لديهم ومسلم عندهم، وبهذا يترك لهم الفرصة ليفكروا وينظروا ويقيسوا الأشباه بالنظائر وينتقلوا من الغائب إلى الحاضر، فقال لهم: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.

ومن ذلك ما جاء في الحديث عن النعمان بن بشير قال: انطلق بي أبي يحملني إلى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه إشهد أني قد نحلت النعمان كذا وكذا من مالي، فقال: أكل بنيك قد نحلت مثل ما نحلت النعمان، قال: لا، قال:

فاشهد على هذا غيري، ثم قال: أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء؟ قال: بلى، قال: فلا إذاً، رواه مسلم في «كتاب الهبات» من «صحيحه».

قوله: (أيسرك) أي أيعجبك ويجعلك مسروراً أن يكونوا ـ أي أولادك جميعاً ـ إليك في البر سواء ـ أي مستوين في الإحسان إليك وفي ترك العقوق عليك وفي الأدب والحرمة والتعظيم لديك، قال بلى، قال: فلا إذاً ـ أي إذا كنت تريد ذلك.

فلو قال له ﷺ: إن هذا لا يجوز لكان كافياً لأن قوله ﷺ حجة. وهو الدليل بلا إشكال ولا ريب، ولكنه ﷺ بين له حقيقة الأمر وأظهر له علة الحكم ليوقفه على الدليل بقوله: أيسرك أن يكونوا إليك في البر سواء، ومعلوم أنه يسره ذلك كما أنه إن فعل وأعطى واحداً وترك الباقين فإنهم لا يجتهدون في بره ولا يسارعون إلى مودته هذا إن لم يحصل منهم ما يجرهم إلى العقوق والشحناء فانظر إلى كمال تربية هذا النبي الكريم والرسول العظيم صلوات اللّه وسلامه عليه.

ومن ذلك: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: نعم حجي عنها أرأيت إن كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ أقضوا اللّه فاللّه أحق بالوفاء، رواه البخاري.

فأنت ترى أن النبي ﷺ دلل على صحة قضائها الحج عن أمها بطريق قياسي ليكون ذلك أوقع في نفسها بالمعلوم وتشبيه ما اختلف فيه وأشكل بما اتفق عليه ولا شك إن ذكر الدليل يعطي الحكم قوة وهو أطيب لنفس المستفتي وأدعى لإذعانه.

ومن ذلك: ما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلاماً أسود فقال النبي ﷺ: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فما ألوانها؟ قال: حمر، قال: هل فيها من أورق؟ قال: إن فيها لأورقاً، قال: فأنّى أتاها ذلك؟ قال: عسى أن يكون نزعه عرق، قال: وهذا عسى أن يكون نزعه عرق.

وفي رواية: قال يا رسول اللّه ولدت امرأتي غلاماً أسود وهو حينئذٍ يعرض بأن ينفيه، وزاد في آخر الحديث: ولم يرخص له في الانتفاء منه. رواه مسلم في آخر كتاب اللعان من «صحيحه».

فلو قال ﷺ: إن اللون لا دخل له في إلحاق الولد أو نفيه ما دام أنه ولد على

فراشه وفي مدة يمكن إلحاقه به لكان كافياً، ولكنه ﷺ أراد أن يبين له وجه الحكم ليقف منه على حقيقة ويستمسك منه ببرهان فأعاده ووجه نظره إلى نظيرها مما هو مسلم لديه ومعلوم عنده ليقيس المجهول بالمعلوم ويرد المشكوك فيه إلى المتيقن منه، (والأورق) هو الذي فيه سواد ليس بصاف والمراد (بالعرق) هنا الأصل من النسب تشبيهاً بعرق الثمرة، ومعنى (نزعه) أشبهه واجتذبه إليه، وأظهرها لونه عليه.

العناية بذكر القصة

ومن منهجه ﷺ في التربية والتعليم العناية بذكر القصة والاستعانة بها في شرح الفكرة، وبيان المسألة المطلوب بيانها، فتأتي القصة النبوية جامعة لكثير من الفوائد والمسائل، منها ما يتعلق بالتوحيد فيبين بها فضل الإيمان باللّه ووجوب الصبر على قضائه وتسليم الأمر إليه وفضل التوبة والرجوع إليه والصدق في معاملته وفضل التوكل والرضا، ويبين بها كيف كان السابقون من أهل التوحيد يعذبون في سبيل اللّه، ومنها ما يتعلق بالآداب العامة في كيفية معاملة الخلق من بر الوالدين وصلة الأرحام والإحسان إلى الضعفاء وغير ذلك من المعاني العظيمة والمبادئ الكريمة. وتمتاز القصة النبوية بالصدق، فهي صادقة الوقائع صادقة الشخصيات لأن المتحدث بها هو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

والقصة النبوية ذات أهداف سامية ومقاصد عالية وهي جامعة لجمل من الفوائد وشاملة للعديد من المحامد تدعو إليها وتحض عليها.

قصة المتكلمين في المهد

عن أبي هريرة رضي اللّه عنه عن النبي ﷺ قال: لم يتكلم في المهد[١] إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي رب أمي وصلاتي فأقبل على صلاته. فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات[٢] فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت فلما ولدت قالت: هو من جريج فأتوه فاستنزله وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال: ما شأنكم، قالوا: زنيت بهذه البغي فولدت منك قال: أين الصبي؟ فجاؤوا به فقال: دعوني حتى أصلي فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعنه في بطنه وقال: يا غلام من أبوك قال: فلان الراعي فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب قال: لا أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا[٣].

وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة[٤] وشارة[٥] فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله ثم أقبل على ثديه فجعل يرضع، فكأني أنظر إلى رسول اللّه ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فيه فجعل يمصها، ثم قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت وهي تقول: حسبي اللّه ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها فهنالك تراجعا[٦]

---

(١) المهد: ما تهيئ للصبي، قال تعالى: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾.

(٢) والمومسات: بضم الميم الأولى وإسكان الواو الثانية وبالسين المهملة وهن الزواني والمومسة: الزانية.

(٣) هذا هو الثالث الذي أخبر عنه في أول الحديث.

(٤) دابة فارهة: بالفاء أي حاذقة نفيسة.

(٥) والشارة: بالشين المعجمة وتخفيف الراء وهي الجمال الظاهر في الهيئة والملبس.

(٦) تراجعا الحديث أي حدثت الصبي وحدثها واللّه أعلم.

الحديث، فقالت مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت سرقت فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها. قال إن ذلك الرجل جبار فقلت لا تجعلني مثله وإن هذه يقولون زنيت ولم تزنِ وسرقت ولم تسرق فقلت اللهم اجعلني مثلها.

وفي هذا الحديث يحكي النبي ﷺ قصة جريج أحد عباد بني إسرائيل شغلته عبادته عن تلبية نداء أمه والوفاء بحقه فدعت عليه فأجاب اللّه دعاءها وسلط عليه بغياً ادعت عليه الزنا فعذب وهدمت صومعته وتحققت دعوة أمه ثم أنجاه اللّه تعالى ببركة عبادته فنطق الطفل ببراءته وأعيد إلى مكانته، ويحكي النبي ﷺ قصة امرأة عادية بهرها مظهر رجل صحيح الجسم جميل الدابة مهاب المظهر فدعت اللّه أن يكون ابنها مثله فأبى الصبي واعترض بإنطاق اللّهِ له ونفرت من امرأة معذبة مهانة متهمة بالزنا والسرقة فدعت اللّه أن لا يجعل ابنها مثلها فاعترض الصبي ونطق: اللهم اجعلني مثلها ثم بين لها أن الرجل جبار، وأن المرأة بريئة.

وهكذا يبين الرسول ﷺ بهذه القصة معانٍ جليلة ويدعو إلى فضائل جميلة.

منها أن نفوس أهل الدنيا تقف مع الخيال الظاهر بخلاف أهل الحقيقة فوقوفهم مع حسن السريرة وأن العبرة بالعمل الصالح، وأن الحكم بالظاهر لا يفيد ما في نفس الأمر وإنما يفيد الظن الراجح، وأن اللّه تعالى يتولى السرائر ينصف المظلومين ويواسي المحرومين والمنهكين المتعبين.

ومنها عظم بر الوالدين وتأكد حق الأم وأن دعاءها مجاب وأنه إذا تعارضت الأمور بدئ بأهمها وأن اللّه تعالى يجعل لأوليائه مخارج عند ابتلائهم بالشدائد غالباً قال اللّه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] وقد يجري عليهم الشدائد بعض الأوقات زيادة في أحوالهم وتهذيباً لهم فيكون لطفاً.

ومنها استحباب الوضوء للصلاة عند الدعاء بالمهمات، ومنها أن الوضوء كان معروفاً في شرع من قبلنا، فقد ثبت في هذا الحديث في كتاب البخاري فتوضأ وصلى.

ومنها إثبات كرامات الأولياء، وفيه أن كرامات الأولياء قد تقع باختيارهم وطلبهم وفيه أن الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها.

تقريب المسائل بضرب الأمثال

ومن منهجه ﷺ في التربية والتعليم أنه كان يقرب المسائل بضرب الأمثال.

والمثل من أوضح السبل وأظهرها في تصوير الحقيقة وتوضيحها وتقريبها إلى ذهن السامع.

يقول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي اللّه عنه: «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديث من ثدييهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع». متفق عليه.

فهذا مثل ضربه النبي ﷺ للبخيل والمتصدق فشبههما برجلين أراد كل واحد منهما لبس درع يستتر به من سلاح عدوه فصبها على رأسه ليلبسها والدرع أول ما يقع عل الرأس إلى الثديين إلى أن يدخل الإنسان يديه في كميهما، فجعل المنفق كمن لبس درعاً سابغة فاسترسلت عليه حتى سترت جميع بدنه وجعل البخيل كمثل رجل غلت يداه إلى عنقه فكلما أراد لبسها اجتمعت في عنقه فلزمت ترقوته، وهو معنى قلصت أي تضامت واجتمعت والمراد أن الجواد إذا هم بالصدقة انفسح لها صدره وطابت نفسه وتوسعت في الإنفاق، والبخيل إذا حدثها بها شحت بها فضاق صدره وانقبضت يداه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وقال المهلب: المراد أن اللّه يستر المنفق في الدارين بخلاف البخيل فإنه يفضحه ومعنى يعفو أثره يمحو خطاياه، وتعقبه عياض بأن الخبر جاء على التمثيل لا على الإخبار عن كائن وقيل هو تمثيل لنماء المال بالصدقة والبخيل بضده.

ومن ذلك قوله ﷺ مثل البيت الذي يذكر اللّه فيه والبيت الذي لا يذكر اللّه مثل الحي والميت.

ففي هذا الحديث تشبيه البيت بالحي والميت من حيث وجود الذكر وعدمه شبه الذاكر بالحي الذي يزين ظاهره بنور الحياة وإشراقها فيه وبالتصرف التام فيما يريد وباطنه منور بالعلم والفهم فكذا الذاكر يزين ظاهره بنور العمل وباطنه بنور العلم والمعرفة فقلبه قار في حظيرة القدس وسره في مخدع الوصل وغير الذاكر

ظاهره عاطل وباطنه باطل، وقيل المضاف فيه مقدر أي مثل ساكن البيت، واعترض بأن ساكن البيت حي فكيف يكون مثل الميت.

وأجيب بأن الحي المشبه به من ينتفع بحياته بذكر اللّه وطاعته فلا يكون نفس المشبه كما شبه المؤمن بالحي والكافر بالميت مع كونهما حيين في آية ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢] على أن تشبيه غير الذاكر من جهة أن ظاهره عاطل وباطنه باطل أنسب من تشبيه بيته به.

ومن ذلك قوله ﷺ: «مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه».

رواه الطبراني والضياء عن جندب.

ففي هذا الحديث تشبيه العالم الذي يأمر بالخير ولا يأتمر وينفع الناس ولا يسعى لنفع نفسه بالسراج الذي يضيء ويحرق، والمعنى أن هذا العالم يحرق نفسه بنار الآخرة، فصلاح غيره في هلاكه هذا إن لم يدع إلى طلب الدنيا وإلا فهو كالنار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها، فالعلماء ثلاثة: إما منقذ نفسه وغيره وهو الراغب إلى اللّه عن الدنيا ظاهراً وباطناً وإما مهلك نفسه وغيره وهو الداعي إلى الدنيا، وإما مهلك نفسه منقذ غيره وهو من دعا إلى الآخرة ورفض الدنيا ظاهراً ولم يعمل بعلمه باطناً وهذا وعيد لمن كان له ذكر أو ألقى السمع وهو شهيد، وكان علماء الصحابة في غاية من الوجل والخوف، ولذلك قالت عائشة رضي اللّه عنها لفتى اختلف إليها يسألها وتحدثه فجاءها ذات يوم، فقالت: أي شيء عملت، قال: مه، قالت: فما تستكثر من حجج اللّه علينا وعليك، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام للحواريين: تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل وقال: يا علماء السوء بلا عمل جعلتم الدنيا على رؤوسكم والآخرة تحت أقدامكم قولكم شفاء وعملكم داء كشجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها.

ومن ذلك في هذا المعنى قوله ﷺ: «مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز فلا ينفق منه (طس) عن أبي هريرة (ح).

ومن ذلك قوله ﷺ في هذا المعنى: «مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء للناس وتحرق نفسها»، [رواه الطبراني عن أبي برزة (ح)].

وهذا مثل ضربه المصطفى ﷺ لمن لم يعمل بعلمه وفيه وعيد شديد قال أبو الدرداء: ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن علم ولم يعمل ألف مرة. وقال

التستري: الناس كلهم سكارى إلا العلماء والعلماء كلهم حيارى إلا من عمل بعلمه. وقال: الدنيا جهل وباطل إلا العلم والعلم حجة عليه إلا المعمول به. والعمل هباء إلا بإخلاص والإخلاص على خطر عظيم حتى يختم به. وقال الجنيد: متى أردت أن تشرف بالعلم تكون من أهله وتنتصب له قبل إعطائه حقه احتجب عنك نوره وكان عليك لا لك.

وقد وفقني اللّه تعالى لكتابة رسالة خاصة عن أصول التربية في العهد الأول وكيفية منهجه ﷺ في التعليم واستخلاص نظريات تربوية وأسس منهجية من الحديث النبوي الشريف. ذكرنا هنا خلاصتها واللّه ولي التوفيق.

﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾

[المائدة: ٣]



كمال شريعته ﷺ ووفاؤها بحاجات البشر ومسايرتها لروح العصر دون تحريف أو تبديل

الشريعة الإسلامية هي أكمل وأشرف وأشمل رسالة للهداية، وهي الشريعة التي ختم اللّه بها شرائع السماء وجعلها خالدة، وكتب لها البقاء إلى أن يرث اللّه الأرض، لذا كانت ثابتة مستمرة قوية البناء محكمة النظام، وافية بحاجة الأفراد والجماعات.

ومعلوم أن الشريعة الإسلامية تحتوي على الأصلين العظيمين، والمصدرين الكريمين:

الأول: كتاب اللّه العظيم وصراطه المستقيم وحجته البالغة، وآياته الدامغة، ومنهله العذاب الراوي من ظمأ الجهالة.

والثاني: السنة النبوية المنيرة الشاملة لكل خير وسعادة للبشر في دينهم ودنياهم، وهي ما أضيف إلى رسول اللّه ﷺ قولاً أو فعلاً أو تقريراً وهي قد رضي اللّه عنها، وأوجب اتباعها، والرجوع إليها، والعمل بمقتضاها، وأمر بطاعته ﷺ وجعل من تولى عن ذلك من الكافرين، وعلق كمال محبة اللّه بتمام متابعته لسنته ﷺ، وجعل طاعة النبي ﷺ في متابعة سنته طاعة اللّه سبحانه وتعالى كاتباع قرآنه، وبين أن جميع ذلك من اللّه وأنه لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى. فالقرآن من اللّه والسنة من رسول اللّه ﷺ بأمر اللّه ورضاه، فحينئذٍ يصح أن نقول: إن الذي وضع الأحكام وأحل الحلال وحرم الحرام هو اللّه سبحانه وتعالى.

الشريعة الإسلامية وواقع الحياة:

وشريعتنا ـ بحمد اللّه ـ تساير كل عصر وتصلح لكل جيل وتدور مع واقع الحياة، وفي أصولها التشريعية القوة الكاملة التي تمدنا بتشريعات حية نامية متطورة تكفل للناس في مختلف بيئاتهم وعصورهم العدالة والاطمئنان والحياة الكريمة الطيبة.

وقد استطاعت الشريعة أن تقدم الدليل على صلاحيتها وقدرتها عندما أتيح لها أن تطبق في دنيا الواقع، فكانت فترة تطبيقها فترة فاضلة توفرت فيها العدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية وارتفعت فيها المثل العليا منارة تضيء لأجيال الإنسانية المقبلة سلم الخير والمجد، لقد نعم الناس بالحياة السعيدة وتفرغوا لحمل رسالة تحرير العالم كله من أغلال الظلم وكابوس الجهل وظلمات الضلالة.

وإن واقع الأمم الأخرى التي تعمل بأنظمة مغايرة لهذا الدين ليشهد لهذه الشريعة بالسمو والكمال، إذ تضطر هذه الأمم أن تتنازل عن بعض ما في تشريعها ونظامها، وأن تستعير من الإسلام أموراً عديدة.

فالشريعة الإسلامية تتسع لكل ما يجد للناس من أقضية وتقوم بتنظيم شؤونهم والوفاء بحاجاتهم مهما تباعدت ديارهم وتباينت أجناسهم واختلفت عاداتهم وطباعهم، ولا يجحد ذلك إلا من سفه نفسه.

أصول الكمال والسمو في الشريعة الإسلامية:

والناظر في الفقه الإسلامي وأصوله وقواعده لا بد أن يسلم منصفاً برحابة أفق الشريعة تمام اقتدارها وصلاحيتها على تنظيم حياة الناس وتكفلها بمعالجة شؤونهم، وأنها لم تجر أحكامها على طريقة واحدة من التفصيل والبيان بل عالجت بعض المسائل على استقلال وأدمجت كثيراً من المسائل تحت قواعد كلية، وتركت للمستنبطين من أولي العلم تطبيق هذه القواعد الكلية على المسائل الجزئية ما وجد وما يجد.

وعلى هذا نفهم قول اللّه تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] وبهذا المعنى ينبغي أن نفهم معنى التطور والتجديد في الشريعة الإسلامية وهي رحمة محضة وعناية ربانية بهذه الأمة.

ولذلك جاءت الشريعة الإسلامية على نظام يحفظ هذا الانتظام وفي نسق يضمن التناسق التام بين الأصول والقواعد الثابتة وبين الحوادث والنوازل العصرية المختلفة، وهذا الانتظام والتناسق هو العامل الرئيسي الذي أراده الحق تبارك وتعالى لحفظ هذه الشريعة وبقاء هذا الدين مصوناً عن عبث العابثين وتخريب المخربين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين.

وإذا علمت هذا فاعلم أيضاً أن هذا الانتظام والتناسق يعتمد في جوهره وسره على أصول يتصل بعضها ببعض ويكمل بعضها بعضاً هي تاج التشريع الإسلامي؛ تاجه متلألئ في جلال وكمال، وهي المحور الذي يرتكز عليه وهي سمات وصفات وأسس التطور والتجديد والكمال.

فتح باب الاجتهاد:

أول تلك الأصول والركائز والسمات: فتح باب الاجتهاد، فالتشريع الإسلامي يقوم على الاجتهاد، وذلك لأن الأحكام التي وردت نصوصها في الكتاب والسنة معدودة ومحدودة، فقد ذكر ابن القيم في أعلام الموقعين: أن عدد الآيات التي هي أصول الأحكام في القرآن لا تزيد عن خمسمائة آية، وعدد الأحاديث التي

هي أصول الأحكام خمسمائة حديث منتشرة في آلاف الأحاديث، فأصول الأحكام في هذه الشريعة من القرآن والسنة ألف نص هي أساس هذا التشريع الإسلامي الضخم الذي بقي إلى يومنا هذا يؤتي منافعه لأبناء هذه الملة.

ولقد علم القرآن المسلمين أن يجتهدوا وأن يستنبطوا وأن يسترشدوا بعلمائهم ومفكريهم، يقول اللّه سبحانه في محكم آياته: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء: ٨٣].

وهي دعوة صريحة إلى الاستنباط والاجتهاد، ولذلك حدثنا التاريخ عن الصحابة الفقهاء الذين عرفوا بالاجتهاد في الأحكام والأقضية في عهد رسول اللّه ﷺ.

وحدثنا التاريخ أيضاً عن الرسول ﷺ وكيف كان يدرب أصحابه على القضايا والأحكام ويشجعهم على حرية التفكير وحرية الاجتهاد ويملأ قلوبهم ثقة وطمأنينة عند الخوف من الخطأ مع الاجتهاد. فللمجتهد المصيب أجران وللمخطئ أجر، واللّه سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥].

وعلى هذه السماحة المشرقة والاجتهاد الكريم الواسع قامت حياة المسلمين منذ فجرهم الأول، فكان الصحابة رضوان اللّه عليهم يجتهدون ويشجعهم الرسول على هذا الاجتهاد ويباركه، وتشربت نفوسهم الحرة مبادئ الإسلام فكانوا يختلفون في فهمهم للقضايا، وفي فهمهم للأحداث ولكنه اختلاف الأحرار لا يعرفون لجاجة ولا خصومة ولا يتنابزون بالألقاب ولا يتراشقون بالتهم ولا يفكرون في أن يحجروا رأياً أو يقيدوا فكراً.

وأكبر شاهد ناطق موقفه ﷺ منهم يوم بني قريظة إذ قال لهم: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة فأدركهم وقت العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي ولم يرد منا ذلك، فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف واحدة من الطائفتين وعلق على ذلك ابن عبد البر بقوله: «هذه سبيل الاجتهاد على الأصول عند جماعة الفقهاء» كما سن الرسول ﷺ لولاته في الأمصار أن يجتهدوا وكانوا يرون أن أكبر نعم اللّه على عباده هو أن يؤتيهم فهماً في القرآن وفهماً في حديث رسول اللّه ﷺ وفهماً في قضاياهم.

وبهذا الفهم الكامل لروح الإسلام وبهذا الاجتهاد المتصل في يسر وسماحة وطلاقة ساير التشريع الإسلامي تطورات المسلمين من الجزيرة العربية إلى سهول

الأرض وقمم جبالها أينما كانت الحياة، فما أحس المسلمون يوماً بقصور التشريع وما احتاجوا لحظة من زمن ـ والدنيا في أيديهم ـ إلى قوانين من غير شريعتهم ولا إلى مشرعين من غير فقهائهم بل كانوا مشرعين[١] لأنفسهم والإنسانية كافة حتى ليقول (ويلز)[٢] في كتابه «ملامح تاريخ الإنسانية»: إن أوروبا مدينة للإسلام بالجانب الأكبر من قوانينها الإدارية والتجارية.

ومشت الحياة بالمسلمين رخاء طيبة وحياتهم قوية عزيزة متطورة مع الخطو الإنساني السريع بفضل الإمدادات المتعاقبة من الدراسات الاجتهادية الحرة التي كانت سمة العالم الإسلامي وطابعه المميز حتى انحرف الناس عن المنهج الرباني فانحرفت بهم المركب وغرقت يوماً ونجت يوماً نجاة الغريق العريان.

الثاني: اعتبار المصلحة في التشريع:

ومن ركائز الكمال في الشريعة هو اعتبار المصلحة في التشريع الإسلامي، وقد أشار العلامة عز الدين بن عبد السلام إلى هذا المعنى فقال في كتابه قواعد الأحكام: «والتكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وآخرتهم والله غني عن عبادة الكل، لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين، وإن مصالح الآخرة لا تتم إلا بمصالح الدنيا».

ويقول الإمام الشاطبي: «والمعتمد أن الشريعة إنما وضعت لمصالح العباد، علم ذلك بالاستقراء، فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل وهي الأصل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

يقول ابن القيم في «أعلام الموقعين»: «إن شريعة الله مبناها في الحكم مصالح العباد في المعاش والمعاد وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكم كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة».

فشريعة الله الخالدة كائن حي تتسع أحكامها للمصالح العامة بشرط أن لا يكون في ذلك إهدار حكم إلٰهي أو الاعتداء على قاعدة إسلامية أو تبديل لشرعة الإسلام.

الثالث: العناية بالقواعد الكلية الجامعة:

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية العناية بالقواعد الكلية الجامعة.

---

(١) بتشديد الراء.

(٢) أحد المستشرقين.

أقامت الشريعة دعائم كلية وقواعد جامعة ينبني على كل دعامة منها أصول وأحكام يستخرجها العارف بطبيعة النوازل العالم بمقصد الشارع في أمثالها، ومن هذه القواعد الجامعة مثلاً قاعدة العبادات. وهي أن اللّٰه سبحانه وتعالى لا يعبد إلا بما شرع، ولذلك كانت العبادات كلها توقيفية لا تعلم إلا من جهة اللّٰه تعالى لأنه هو الذي يعلم ما يرضيه وما لا يرضيه، وقد بين في كتابه على لسان رسول اللّٰه ﷺ كل ما يتعلق بذلك، فعبادة اللّٰه تكون بكتاب اللّٰه وسنة رسوله وباتباع السلف الصالح.

قاعدة المعاملات:

وهي «أن المعاملات طلق حتى يعلم المنع»، وعليه فما سكت عنه الشارع ولم يرد عنه أمر به أو نهي عنه أو تخيير فهو محل نظر، وخلاصة ما قيل في هذا الباب هو: أن ما سكت عنه الشارع من المعاملات ولم يشتمل على ضرر يكون الأصل فيها الصحة، ودليل هذه الوجهة هو أن العقود والمعاملات تنبني على عادات الناس وعرفهم، ولذلك فهي تجري على ذلك ما لم يأت عنه نهي ولهذا قال اللّٰه تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١١٩] وهو يقضي أن كل شيء حلال إلا ما فصل تحريمه في القرآن والسنة، فكل شرط أو عقد أو معاملة سكت عنها فإنه لا يجوز القول بتحريمها حتى يرد دليل على منعها أو يظهر اشتمالها على ضرر لأن سكوته عنها إنما هو رحمة لا نسيان كما روى الترمذي عن سلمان الفارسي أن رسول اللّٰه ﷺ قال: الحلال ما أحل اللّٰه في كتابه والحرام ما حرم اللّٰه في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا لكم. ومثله ما أخرجه الدارقطني عن أبي ثعلبة أن رسول اللّٰه ﷺ قال: إن اللّٰه فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تتعدوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

وهناك دعائم أخرى مشهورة اعتنى العلماء بجمعها وترتيبها وتصنيفها وشرحها ونظمها وخدمتها خدمة كبرى، منها: المشقة تجلب التيسير، ومنها: الضرر يزال، ومنها: الأمور بمقاصدها، ومنها: اليقين لا يزال بالشك، ومنها: العادة محكمة.

الرابع: الدعوة إلى فتح باب العلم:

من أصول الكمال في الشريعة فتح باب العلم بالتأكيد على فضله والتحريض على اكتسابه وبيان شرف أهله، ويمكن القول: بأن من مفاخر الإسلام أنه أكبر مناصر للعلم وأعظم محرض على اكتسابه، وكانت أول فقرة نزلت من القرآن تتصل بالقراءة والعلم.

وقضية العلم في الإسلام أشهر من أن تذكر أو تحصر، وآيات الكتاب

وأحاديث سيد المرسلين فيها دلائل واضحات تشير بوضوح إلى جملة كبيرة من المسائل التي رفعت شأن العلم والعلماء والمتعلمين والعناية بالقواعد الكلية.

الخامس: عدم وجوب التزام بمذهب معين:

من أصول الكمال في الشريعة الإسلامية المرونة وعدم الجمود في التزام رأي معين أو مذهب خاص فيما شأنه الاجتهاد والنظر، لأن النص الشرعي قد يحمل أكثر من معنى واحد دون أن يكون ثمة ما يقطع بصحة معنى واحد منها دون المعاني الأخرى.

والطريق الذي يترجح به هذا المعنى المستفاد على المعنى الآخر المستفاد من نص واحد هو: الاجتهاد والنظر والبحث.

كما أنه بالبحث والنظر والمراجعة يمكن ترجيح المعنى المرجوح في زمن آخر يقتضي ترجيحه لمصلحة.

ولم يوجب علينا الشرع إلزام معنى ظهر رجحانه عند إمام أو عالم مهما تغيرت الأحوال واختلفت الأزمنة.

بل عذر الخلق إذا ما اختلفوا فيها ورفع عنهم الحرج ومنح المخطئ منهم في اجتهاده أجراً والمصيب أجرين تشجيعاً للبحث والتأمل لاستجلاء ما فيه المصلحة الراجحة للجميع.

ولذلك وقع الخلاف في هذه المسائل والأحكام وهو رحمة اللّه على هذه الأمة، وإن من فضل اللّه على الناس في هذا الاختلاف تكثير الطرق الموصلة للنجاة كما أن قلة الأصول في الحكم نعمة أخرى قصدها صاحب الشريعة حتى كان ينهي أصحابه أن يكثروا من سؤاله لتبقى على أصلها وهو الحل والإباحة «ابن عابدين ١/ ١٠٩»:

ولم يكن أئمة الدين والفقه يلزمون الأخذ بمذاهبهم والتزام العمل بها، بل كانوا يرون غضاضة من هذا الخلاف وكان الواحد منهم إذا رأى المصلحة لا يأنف أن يرجع إليها.

فأبو حنيفة مثلاً كان يفضل الصدقة على حج التطوع فلما حج ورأى مشقته عاد عن قوله هذا إلى تفضيل الأخير، ولمحمد رأي في النجاسات عدل عنه لما ذهب إلى مرو ـ ورأى بلوى الناس بها.

ومالك أيضاً كان يقول بأشياء ثم رجع عنها.

والإمام الشافعي إمام المذهب الشهير لما انتقل من العراق إلى مصر عاد فأنشأ مذهباً جديداً وترك مذهبه الأول، إلا بضعاً وعشرين مسألة منه.

لهذا كان السلف الصالح من العلماء يعذر بعضهم بعضاً إذا ما اختلفوا فيها ولا يعيب أحد منهم رأياً رآه غيره. ولا يخفي موقف الإمام مالك الذي لم يرض للخليفة هارون الرشيد أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه «الموطأ» مع شدة تحري الإمام مالك في روايته له وموافقة علماء الدين عليه، وعلل مالك رفضه هذا بقوله إن أصحاب رسول اللّه ﷺ تفرقوا في البلاد وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغني ولو بلغني لغيرت شيئاً مما دونته، ولهذا كان الإمام المجتهد ينهى من يستفتونه أن يتخذوا فتواه ديناً يقلدونه أو أن يجعلوه سبباً للتفرقة، وبناءً على ذلك كان بعضهم يعمل باجتهاد غيرهم ترخصاً أو موافقة لجماعة المسلمين.

ومن هذا ما روي عن الإمام أحمد رحمه اللّه: كان يرى أن الحجامة أو الفصد تنقض الوضوء، فسئل عمن رأى الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ هل يصلي الإمام أحمد خلفه.

قال: كيف لا أصلي خلف مالك وسعيد بن المسيب.

وكان أبو حنيفة وأصحابه يرون الوضوء من خروج الدم ولكن أبا يوسف «صاحب أبي حنيفة» رأى هارون الرشيد احتجم. وكان مالك أفتى هارون بأنه لا وضوء عليه إذا هو احتجم فصلى أبو يوسف خلفه ولم يعد الصلاة.

وروي أن الشافعي رضي اللّه عنه ترك القنوت في الصبح لما صلى مع جماعة الحنفية في مسجد إمامهم بضواحي بغداد فقال كثير من الناس: فعل ذلك أدباً مع الإمام.

وأيضاً كان كبار علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم من مجتهدي السلف يتحاشون أن يسموا آراءهم الاجتهادية حكم اللّه أو شرع اللّه بل كان أعظمهم قدراً وأوسعهم علماً يقول: هذا مبلغ علمي واجتهادي إذا كان صواباً فمن اللّه وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان.

وكان مما يوصي به النبي ﷺ أمير الجيش قوله: إذا حاصرت قوماً فأرادوا أن تنزلهم على حكم اللّه فلا تنزلهم على حكم اللّه ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدري أتصيب حكم اللّه فيهم أم لا «رواه أحمد ومسلم» قال ابن القيم في «أعلام الموقعين»: لا يجوز للمفتي أن يقول هذا حكم اللّه أو أحل كذا أو حرم اللّه كذا تبعاً لشيء وجده في الكتاب الذي تلقاه عمن قلده بل يقول هذا قول فلان.

وعلى هذا المنهج الفريد الحميد وبتلك الروح الخالصة المخلصة الصادقة سار أئمة السلف الصالح رضي اللّه عنهم فكانوا بهذا أقرب في الوصول إلى الصواب، وأسرع بلوغاً إليه إذا لمحوه وأقوى تمسكاً به إذا أدركوه وكان شعارهم

جميعاً في ذلك هو أن الرجوع إلى الحق من أمهات الفضائل وكان من أثر ذلك في علاقة بعضهم ببعض نمو روح التسامح فيما بينهم وقوة المحبة والأخوة في اللّه وفي سبيل الحق والتعاون على كل ما يوصل إلى رضا اللّه وإلى سعادة الأمة.

فبارك اللّه لهم في أعمارهم وَمالهم وحفظها من أن تضيع في جدل عقيم سقيم ليس له من باعث سوى العناد للرأي والانتصار للمذهب مهما بعد عن الحق أو ظهر خطؤه.

وحفظهم سبحانه كذلك من التخاصم والتحاسد ومن كل ما يفسد القلوب ويحبط الأعمال فنفعهم بأعمالهم ونفع الأمة بها وها هي آثارهم لا زالت مناراً يهتدي به من أراد سلوك طريقهم ونموذجاً لمن وهبه اللّه ما وهبهم من فقه في الدين وحرص على تحري الحق وأراد أن ينفع كما نفعوا ويثمر كما أثمروا.

ولعل من أسباب نجاحهم أنهم يغترفون من نهر واسع الجنبات عميق الغور، ذلك هو كتاب اللّه وسنة رسوله يرتوي منه كل منهم على قدر استعداده ولا يقابل من غيره بعتاب ولا ملام.

وكان بعضهم يفهم في الآية أو الحديث فهماً ويفهم غيره فيهما فهماً آخر فيناقش كل صاحبه بالتي هي أحسن فإن كانت النتيجة اتفاقاً حمدا اللّه تعالى وإن كانت الأخرى عذر كل صاحبه وانصرفا صديقين متحابين، مع ملاحظة أن اختلافهم هذا كان مع اعترافهم جميعاً بحجية هذه الأدلة جملة ووجوب الرجوع إليها وأن التعبد بها واعتبار حجيتها وإنما ثبت بدليل قطعي متواتر، وأن إنكار جملة هذه الأدلة وإن كانت تفيد الظن ـ كفر صريح ـ إذ هو في الحقيقة إنكار للدليل القطعي اليقيني الذي أمر بوجوب اعتبارها. وأحب هنا أن أنبه على مسألة مهمة يقع فيها كثير ممن يظن به الخير وهي عدم التفريق في إنكار الآحاد بين إنكار خبر واحد في مسألة بخصوصها وبين إنكار جملة أخبار الآحاد قائلين في كلا الأمرين عند المحاجة والمباحثة أن منكر الآحاد لا يكفر بل يفسق، وهذا خطأ أو جهل إذ يدخل في ذلك إنكار السنة النبوية كلها إلا شيئاً يسيراً ـ والواجب أن نفرق بين إنكار الآحاد جملة واحدة لأنها آحاد وبين إنكار خبر واحد بلا مبرر أو عذر، ونقول: إن منكر الآحاد أي «جنس الآحاد» جملة واحدة كافر لأنه في الحقيقة منكر للسنة النبوية. إذ هي أغلبها آحاد وإن منكر خبر أو نحوه في مسألة بخصوصها فاسق إذا كان بلا مبرر أو عذر يقتضي ترك الأخذ به فينبغي ملاحظة هذه النقطة.

معنى التطور في الشريعة

وهذه المرونة والتطور والمسايرة في الشريعة قد يفهمها قوم على غير المراد، ويذهب بهم الوهم إلى تصور أن الإسلام لا يرد شيئاً مما يجد ويحدث كائناً ما كان مهما لاح لهم بزعمهم صلاحه وتراءى لهم فلاحه في غير عرض على قواعد التشريع وركائز الأحكام ودلائله ثم في عدم تدقيق أيضاً لهذا الذي يحدث هل النفع فيه حقيقي وهل صلاحه متأكد؟.

والذي يجب في هذا هو تصحيح التصور وتصفية النظر والغوص على الحجج والدلائل على الأعماق حتى لا نقع في شر من حيث نريد الخير وكم من مريد للحق لن يصيبه، نعم إن صدر الإسلام رحب ومجاله فسيح ولكنه ليس يلزم من هذا أن يتقبل كل جديد دون تحقيق بالقبول، حقيق أن الإسلام يقبل أشياء ويرفض أشياء ففيه الحل والحرمة والوجوب والكراهة فعلى المطالعين أن يعقلوا عن الكاتبين الإسلاميين ـ وفقهم اللّٰه ـ مرمى كلماتهم ومغزى عباراتهم من غير تسرع إلى التزام ما ليس مراداً مما قد يسبق إلى الأوهام وتسوء به الأفهام.

تحديد معنى الاجتهاد:

وتحديد معنى الاجتهاد في الإسلام ليس تضييقاً بل هو ضبط لقواعده وحماية له لا بد منها وتنظيم لطرقه وترتيب لأصوله وتمييز لأفراده وإخراج للمتطفلين الأدعياء من الذين يحسبهم الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، ولذلك يقرر أئمة الأصول أن الاجتهاد لما كان مرتبة عظمى شرعية ودرجة كبرى عليه فإنه يحتاج إلى سعة في العلم وغزارة في المادة ومعرفة تامة بأنواع الأدلة الشرعية، ومن هنا كان مدعي الاجتهاد المطلق في هذه الأعصر الأخيرة ينبغي له أن يراجع نفسه ويتبصر في دعواه فقد يرى بعد التثبت أنه جاهل بمقدار الرتبة التي يدعيها أو جاهل بمقدار نفسه وهو في كل ذلك ليس معذوراً، وقد جاء رجل يملأ شدقيه فخراً بدعوى الاجتهاد ويريد الاستنباط من الكتاب والسنة العربيين وهو لا يعرف قراءة العبارة سالمة من اللحن بل ولا يعرف علم النحو أصلاً الذي هو مفتاح العربية. فباللّٰه كيف تصح من أمثال هؤلاء دعوى الاستنباط كاستنباط السلف الصالحين أو أن يكونوا في عداد المجتهدين؟!

ولسنا ندعي غلق باب الاجتهاد بل هو مفتوح على مصراعيه إلى يوم القيامة

ولكن لمن كان أهلاً لذلك وتحقق بأهلية الاستنباط وعرف ما يجب أن يعرفه من ناسخ ومنسوخ ومجمع عليه، فإن فضل اللّه واسع والمواهب منح واللّه ذو الفضل العظيم، نعم: قد يهب اللّه تعالى لبعض عباده فتحاً في القرآن وفهماً في السنة النبوية يؤهله لمراجعة بعض المسائل أو البحث في بعض القضايا أو استظهار فهم جديد أو الوصول إلى معرفة بعض الحقائق أو معرفة حكم بعض النوازل والوقائع وتأصيلها إلا أن ذلك لا يسمو به في مجموعه إلى درجة الاجتهاد المطلق، بل يكون باحثاً أو صاحب نظر ورأي فدعوى الاجتهاد ممن ليس أهلاً له كلمة حق أريد بها باطل وموضوع فتنة عن حلية الحق عاطل، وتدليس للحق وتنفير عن متابعة السنة والجماعة ومخالفة للجمهور.

وكم بلينا معشر المسلمين بجهلاء يحبون تفريق كلمة الدين ويلمزون الأئمة المتقدمين ويوقدون نار الفتن ويشوهون سمعة العلماء ويحبون المخالفة في كل شيء وراء المصالح وإطاعة للشيطان وحباً للمادة وطلباً للرياسة وتفريقاً للكلمة وتشويشاً على العوام، فيدخلون عليهم من باب الحث على النظر والبحث وطلب الأدلة إلى «قضية أن الاجتهاد واجب والتقليد حرام» هكذا يطلقون هذه القضية على ما هي عليه فيبقى العامي متخبطاً في متاهات من العلم الموهوم والبحث المزعوم، فلا هو بقي على ما هو عليه ولا هم علموه ليصنعوا منه مجتهداً، ومن ذا الذي يقول بأن الاجتهاد واجب على جميع الناس وفيهم العوام والجهلاء وأرباب الصنائع، فإن كان ينكر وجودهم في الأمة فتلك مكابرة للحج وإنكار للمشاهدة وإن كان يعترف بوجود العوام المحتاجين إلى التقليد فلا شك أن تقليد العوام لأهل القرون الثلاثة السابقين من الأئمة الأكابر أولى وأحق من تقليد غيرهم، فقد شهد النبي ﷺ لهم بالخيرية فقال: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

وهي شهادة صادقة فيهم رضي اللّه عنهم مع كونهم انضبطت مذاهبهم وصفت مشاربهم وتحررت أقوالهم وفتاويهم عن أتباعهم نقلاً صحيحاً أو متواتراً خلفاً عن سلف، فكيف يترك أتباع هؤلاء العلماء إلى تقليد من لا يعرف مواقع الإجماع، ولا أسرار التشريع، ولا كيفية الاستنباط؟

وليس القصد من هذا النيل من شخصية ذاتية أو تحقير أحد بعينه فإن ذلك أمر لا يعنى به العاقل ولا يتألم منه الجاهل ـ ما لجرح بميت إيلام ـ إنما القصد من ذلك إرشاد المسلمين وتنبيه المتعلمين لتقدير السلف الصالحين والحث على جمع الشمل وتوحيد الكلمة، فإن ذلك أكمل وأهم وأحق ما بذلت له الهمم، ونحن أحوج إلى الوئام من تفرق يذهب القوة والاستعداد فتتداعى علينا الأمم تداعي الأكلة على القصاع ونحن في غمرة ساهون.

تهمة باطلة وظن فاسد

وقد ظن بعض القاصرين ممن لم يتثقفوا بالثقافة الإسلامية الصحيحة قصور الشريعة الإسلامية عن الوفاء بحاجة البشر في كل زمان ومكان وصوروا هذا التحديد لسلطة التشريع في الإسلام تقييداً، فوصفوا الشريعة بالجمود والخمود وادعوا زوراً وبهتاناً أنها لا تصلح لهذا الزمان، ولا يمكن أن تساير روح العصر. وأن المسلمين مضطرون أن يلجؤوا إلى القوانين الوضعية لتنظيم مجتمعهم وسياستهم بجانب عملهم بأحكام الفقه الشرعي الذي وصل إليه فقهاء العصور الأولى من الإسلام وذلك أنه كلما اتسع العمران وارتقت العلوم والصناعات وتشعبت مذاهب الحياة تجددت حوادث ونبتت مشاكل وعرضت شؤون لم يكن للناس عهد بها من قبل، ولذا زعموا أنه لا يمكن الاكتفاء بالشريعة دون غيرها ولا يمكن الاقتصار على ما شرعته، فراحوا يتخبطون في الاستمداد من القوانين الوضعية ويعتبرونها أصلاً ومصدراً يساوي الشريعة، وأخذوا يحللون الحرام ويحرمون الحلال بما يناسب في نظرهم وتفكيرهم الحال زماناً ومكاناً دون تفريق بين أصل وفرع وظن وقطع.

إن صدور مثل هذه الفرية من أعداء الإسلام أمر ليس بغريب ولا مستنكر لأن أعداء الإسلام لم تكفهم الحروب السافرة والمؤامرات المدمرة التي تسفك فيها الدماء وتنتهك الأعراض وتسلب الأموال وتضاع الحقوق بل شنوا حروباً أخرى هي حرب الأكاذيب والمفتريات والتمويه والتضليل وتشويه الحقائق وقلب الأوضاع وخلق النقائص.

لكن العجيب أن يصدر مثل هذا من أبناء بلدتنا ممن يتكلمون بألسنتنا وينسبون إلى الإسلام ويحسبون عليه في تنكر ظاهر لشريعتهم بعد أن اعترف بها وسلم بسعة أفقها أعداء الإسلام، فهذا مؤتمر القانون المقارن المعقود في لاهاي سنة ١٩٣٧ الذي اجتمع فيه مفكرون وباحثون غربيون من مختلف بلاد العالم يقرر:

١ ـ اعتبار الشريعة الإسلامية مصدراً من مصادر التشريع العام.

٢ ـ اعتبار الشريعة الإسلامية شريعة حية.

٣ ـ اعتبارها قائمة بذاتها ليست مأخوذة من غيرها.

ولا نشك أن هؤلاء الذين ينتسبون إلى الإسلام من أعظم دسائس الاستعمار وأخطر مؤامراته ومخططاته التي أراد بها تهديم المجتمع الإسلامي والإتيان عليه من القواعد، إذ ألقي في أذهانهم ـ لما رضعوا في دياره ونشؤوا في أحضانه ـ أن من أكبر أسباب انحطاط المسلمين اليوم وتخلفهم عن ركب الحضارة إنما هو تمسكهم بدينهم، وأن دين الإسلام هذا لا يتفق مع العلم وأن التمسك به لا يؤدي إلى التقدم والتطور بل يقف حجر عثرة في سبيل ذلك كله «هكذا قال أعداء الإسلام» فتأثر بهذه الفكرة الجهلة من أبناء المسلمين وأجروا أقلامهم، للاستعمار وأذنابه وقد فات هؤلاء الدساسين الفرق الشاسع بين ديننا ودينهم، وأن دينهم ورجاله وقفوا قبل فترة من الزمان في وجه النهضة الحضارية الأوروبية وعرقلوا تقدمها وقادوا حركة التخلف فوقفوا من دينهم موقف العدو الحاقد، لكن ديننا ورجاله وقادته أقاموا صرح الحضارة الإسلامية الخالدة في التاريخ وهم الذين حركوا العالم من نومه وجهله فقادوا حركة النهضة، فينبغي أن نقف من ديننا موقف الصديق القائد لا موقف العدو الحاقد.

وهؤلاء كبار رجال القانون والفكر في أوروبا يقفون في الندوة العلمية المنعقدة في الرياض في شهر صفر سنة ١٣٩٢ ـ ليعلنوا إعجابهم بأحكام الشريعة الإسلامية وما سمعوه عن الحقائق عنها وحقوق الإنسان فيها. وقال رئيسهم «المستر ماك برايد» الأستاذ في جامعة دوبلن ووزير خارجية إيرلندا السابق: من هنا ومن هذا البلد الإسلامي يجب أن تعلن حقوق الإنسان لا من غيره من البلدان. وقال زميله: إن أحكام القرآن في حقوق الإنسان هي لا شك تتفوق على ميثاق حقوق الإنسان.

الخاتمة

إن السيرة النبوية وسير الصحابة رضي اللّٰه عنهم وتاريخهم هي القدوة الحسنة في منهاج الدعاة، والمصدر الكبير لقوتهم الإيمانية وعاطفتهم الدينية يقتبسون منها شعلة الإيمان، ويشعلون بها مجامر القلوب، يرون فيها دعوة احتضنها الإيمان والصدق فهانت في سبيلها الأنفس على أصحابها، والأموال على أربابها والعشيرة على أهلها واستعذب العذاب لأجلها، وتتابعت الرحلات لنشرها في مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها وأغوارها وأنجادها. فنسيت في ذلك اللذات وهجرت الراحات وتركت الأوطان وبذلت المهج وحر الأموال حتى أفضى اليقين على القلوب وسيطر على النفوس والعقول، وأقبلت القلوب على اللّٰهِ وهبت ريح الإيمان قوية عاصفة طيبة مباركة، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى وانتشرت الهداية في العالم ودخل الناس في دين اللّٰه أفواجاً.

ومن هنا اشتدت عناية المصلحين والمجددين بهذه السيرة المباركة لتكون قدوة حسنة، ومادة لتجديد البعث الجديد في حياة المسلمين وإيقاظ هممهم وإلهاب قلوبهم بجذوة الإيمان والحماسة الدينية، وليس لمجرد الوقوف على الوقائع التاريخية أو سرد القصص والأحداث بل لمشاهدة الحقيقة الإسلامية في مجموعها العملي التطبيقي مجسدة كاملة في مثلها الأعلى محمد ﷺ وصحبه الكرام.

وإن هذه السيرة العطرة في شخصية هذا النبي ﷺ وصحبه الكرام رضوان اللّٰه عليهم ترسم المنهج السوي والطريق المستقيم والسنن البينة الواضحة لدعاة الصلاح والإصلاح وأساتذة الإرشاد والتعليم وتضمن لهم إن ساروا عليها النجاح والفلاح وتحقيق المرام على أكمل وجه وأحسنه.

وإن هذا الفراغ الفكري والخلاء الهائل المهيمن على العقول عن هذه السيرة الكريمة، وعن هذا التاريخ الإسلامي المجيد الذي خرج أمثال أولئك الأبطال الغر الميامين والغزاة الفاتحين قادة العالم وأساتذة الحضارة الإسلامية حماة الإسلام الأعزة الأتقياء الذين هدوا العالم ودكوا العروش وفتحوا البلدان، وثقفوا بالمعارف الأذهان، وأسسوا حضارة إسلامية مزدهرة على تقوى من اللّٰه ورضوان، وبنوا صرح دولة إسلامية عتيدة من الشرق إلى الغرب.

هذا الفراغ عن هذه السيرة أمر له خطره الجسيم، وعاقبته الوخيمة ونتيجته السيئة في الأمة الإسلامية إن لم نرجع إلى سيرة مجدنا القديم ونستمد حضارتنا من أصول تلك الحضارة العريقة، ونكون على صلة وثيقة تامة بأبطالنا ورجالنا وتاريخ حياتهم الذين تخرجوا من مدرسة الإنسان الكامل ﷺ فهم الذين لا يؤخذ إلا عنهم، ولا يقتدى إلا بهم، ولا يسمع إلا لهم، ولا يصلح لنا حال إلا بما صلح حالهم به.

نسألك اللهم أن تبعث لهذا الدين الراعي الأمين والقائم الرشيد الذي يعيد لنا المجد، ويبعث فينا منه النهضة. يجمع الشتات ويرفع الرايات ويصلح الأمة ويكشف الغمة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقيم حكمك ويمضي أمرك وينشر عدلك ويغار على محارمك وينصر عبادك المؤمنين، آمين.

محمد علوي المالكي

غرة ربيع الأول ١٤٠٠ من الهجرة النبوية

المراجع والمصادر

● **كتب التفيسر**

١ ـ **تفسير القرآن العظيم**، للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير.

٢ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، للإمام محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي.

٣ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، للعلامة أبو الفرج بن الجوزي.

● **كتب الحديث**

٤ ـ **الجامع الصحيح**، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري.

٥ ـ **صحيح مسلم**، للإمام مسلم بن الحاج القشيري النيسابوري.

٦ ـ **الجامع للترمذي**، للإمام محمد بن عيسى الترمذي.

٧ ـ **سنن أبي داود**، للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني.

٨ ـ **سنن النسائي**، للقاضي أحمد بن شعيب بن علي النسائي.

٩ ـ **سنن ابن ماجه**، للعلامة محمد بن يزيد بن ماجه القزويني.

١٠ ـ **موطأ مالك**، للإمام مالك بن أنس الأصبحي.

١١ ـ **مسند أحمد**، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني.

١٢ ـ **شمائل الترمذي**، للإمام محمد بن عيسى الترمذي.

١٣ ـ **دلائل النبوة**، للعلامة أحمد بن الحسين البيهقي.

١٤ ـ **دلائل النبوة**، للعلامة أبي نعيم الأصبهاني.

١٥ ـ **الترغيب والترهيب**، للحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري.

١٦ ـ **الأدب المفرد**، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري.

١٧ ـ **معجم الطبراني الصغير**، للعلامة سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي الطبراني.

١٨ ـ **الجامع الصغير**، للعلامة جلال الدين بن محمد بن أحمد السيوطي.

١٩ ـ **المقاصد الحسنة في الأحاديث الجارية على الألسنة**، للحافظ شمس الدين السخاوي.

١٠ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للعلامة نور الدين الهيثمي.

٢١ ـ **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين**، للحافظ زين الدين العراقي.

• كتب السيرة النبوية

٢٢ ـ **السيرة النبوية**، للعلامة أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن هشام.
٢٣ ـ **السيرة النبوية**، للعلامة السيد أحمد زيني دحلان.
٢٤ ـ **السيرة الحلبية**، للشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي.
٢٥ ـ **الخصائص الكبرى**، للعلامة جلال الدين السيوطي.
٢٦ ـ **الشفاء**، للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي.
٢٧ ـ **شرح الشفاء**، للعلامة شهاب الدين الخفاجي.
٢٨ ـ **المواهب اللدنية**، للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني.
٢٩ ـ **شرح المواهب اللدنية**، للعلامة محمد بن عبد الباقي الزرقاني.
٣٠ ـ **الشمائل**، للشيخ عبد اللّه سراج الدين.
٣١ ـ **أقضية الرسول**، ابن الطلاع.
٣٢ ـ **التراتيب الإدارية**، للعلامة عبد الحي الكتاني.
٣٣ ـ **الوفاء في فضائل المصطفى**، أبو الفرج بن الجوزي باعتناء بروكلمان.

• كتب التاريخ والتراجم

٣٤ ـ **الطبقات الكبرى**، للعلامة محمد بن سعد كاتب الواقدي.
٣٥ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، للحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني.
٣٦ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، للحافظ ابن عبد البر النمري القرطبي.
٣٧ ـ **البداية والنهاية**، للحافظ عماد الدين بن كثير.
٣٨ ـ **تاريخ الخلفاء**، للعلامة جلال الدين السيوطي.
٣٩ ـ **مقدمة ابن خلدون**، للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

• كتب الشريعة الإسلامية والآداب

٤٠ ـ **الموافقات في أصول الشريعة**، للعلامة أبي إسحاق الشاطبي.
٤١ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، للعلامة جلال الدين السيوطي.
٤٢ ـ **غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب**، للشيخ محمد السفاريني الحنبلي.
٤٣ ـ **شرح قصيدة البردة**، للعلامة أبي البركات ابن الأنباري.
دراسة وتحقيق الدكتور محمود حسن زيني ـ

الفهارس العامة

فهرس الأعلام والقبائل

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأماكن

فهرس المحتويات

كمال عِصْمته عن النقائِص والشُبهات
وحفْظُ اللّه تعالى لهُ مِن الأعْداء وَالشّياطِين والمخالفات

كمال أخلاقه العظيمة وشمائله الكريمة

كمال مَناقِبه الحميدة وخصائصه الفريدة

كمال حكمته السياسية وقيادته الحربية

كمال شريعته ﷺ ووفاؤها بحاجات البشر ومسايرتها لروح العصر دون تحريف أو تبديل